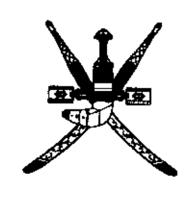


سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة

تنزيه الأبصار والأفكار

في رحلة سلطان زنجبار

جمعه

زاهر بن سعيد

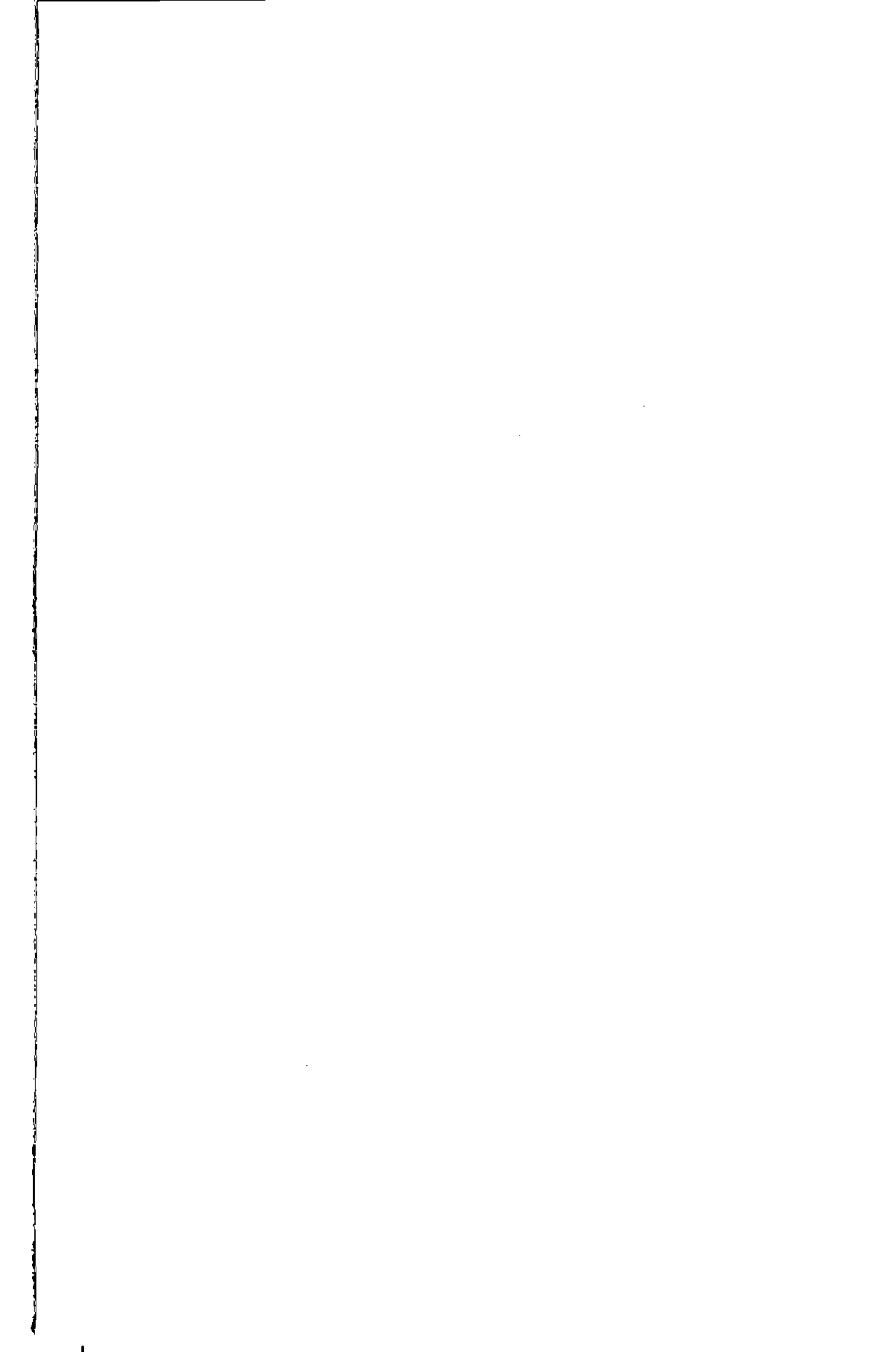
الكاتب الأول في دار السلطان برغش

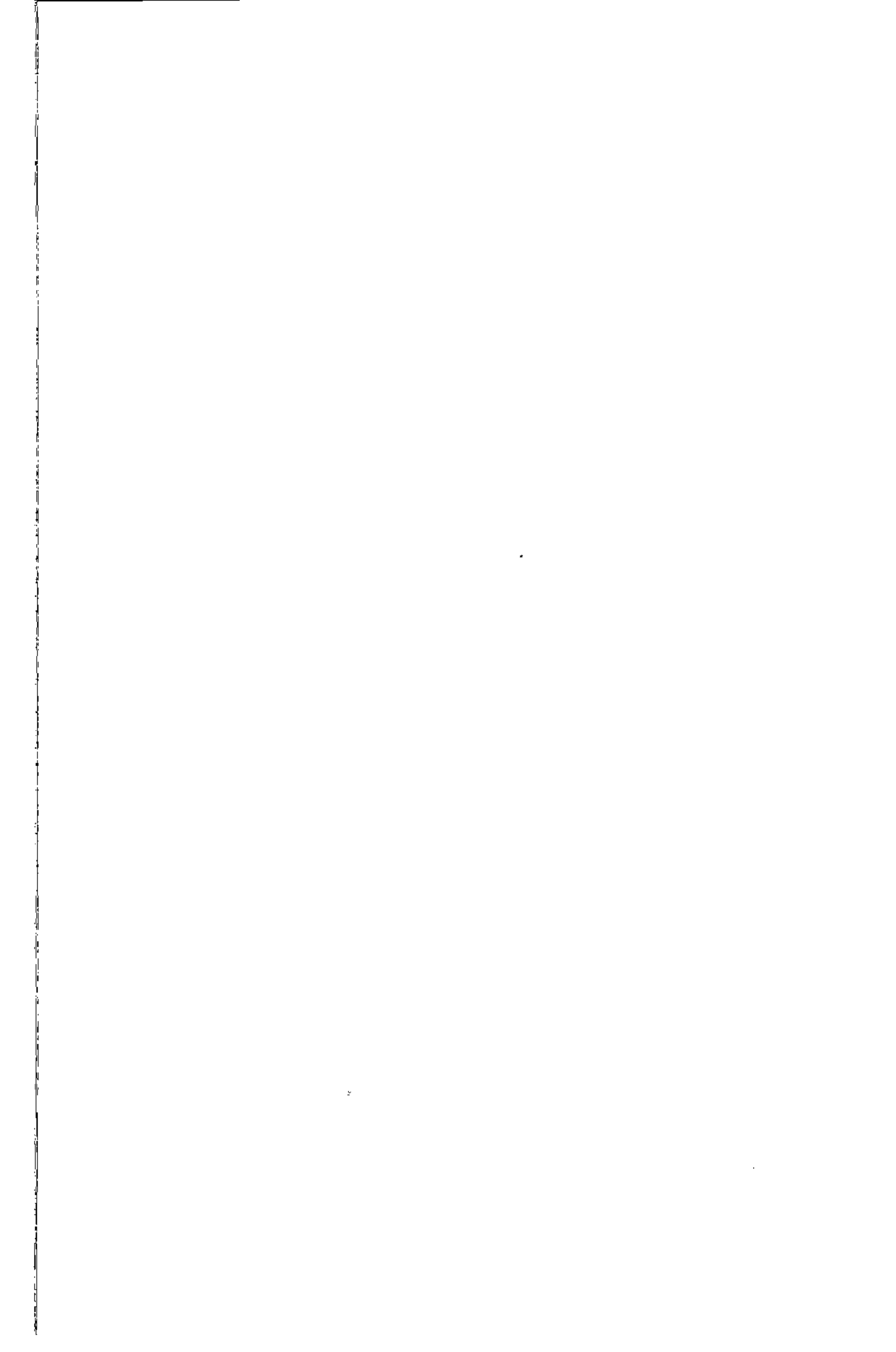
رتبه وصوبه

لويس صابونجي

مراجعة

الدكتور ابراهيم عبده

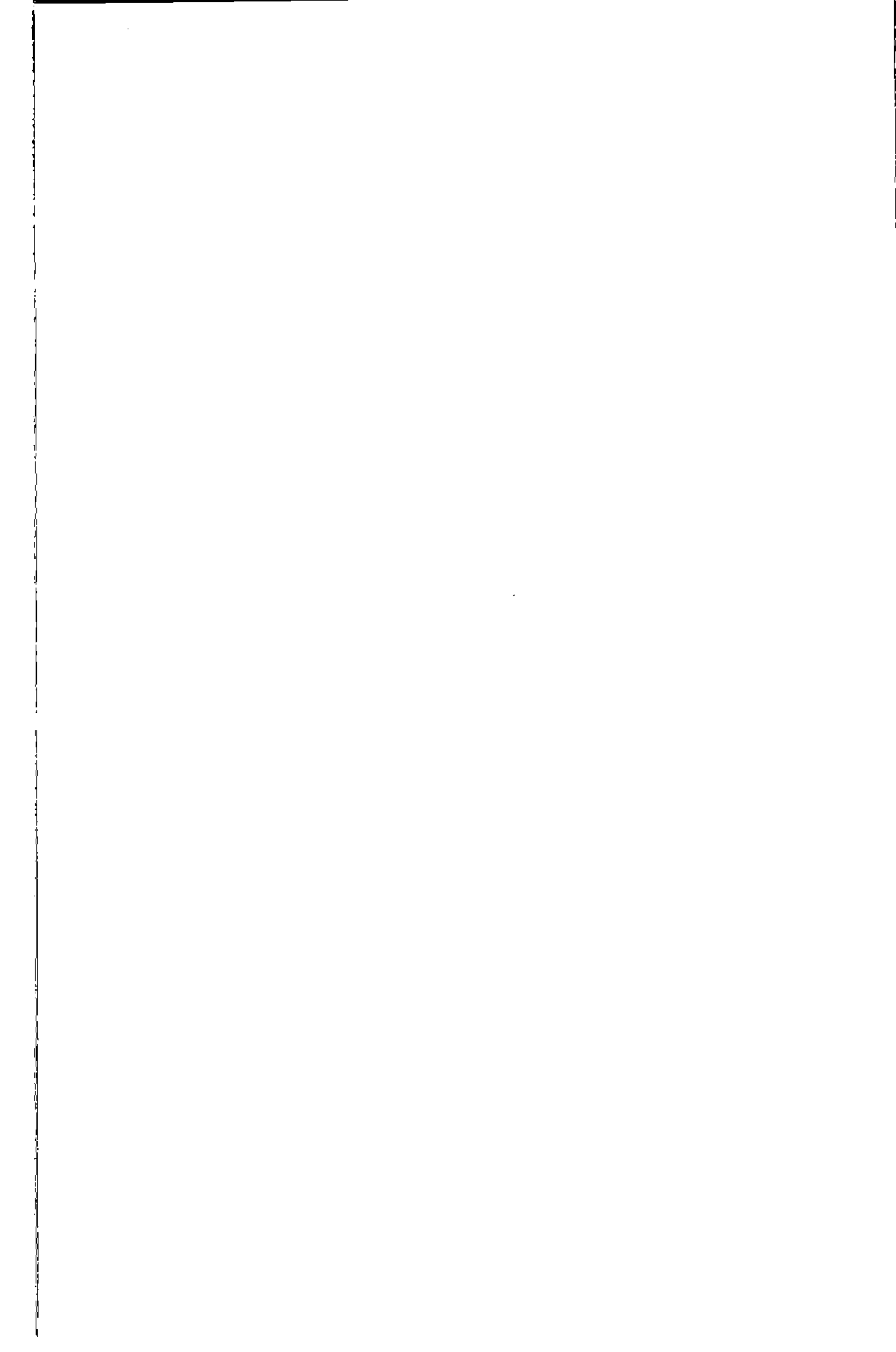






جلالة سلطان زنجبار المعظم

لكك الفخر يا من قد تفرد بالسـخا	وأسس ملكاً بالسعادة والبهـا
جلست على كرسى الأمـان مظفرا	سبحان من أعطاك ملكاً قـد زها



بسم الله الرحمن الرحيم

الفاتحـــة

الحمد لله رب العالمين • المالك يوم الدين • الذى بسط الأرض مهادا • ووضع الجبال لها أوتادا • وأرســـل فى حزونها الأنهار جلابا • ومد على سطحها من الغمر بحورا عبابا • وجعل الأسفار نزهة لذوى الأبصار • وباعثا على اكتساب المعارف وكشف خبايا الأسرار • وأوحى الى نوح عليه السلام صنعة انشاء السفن وسيرها فى البحار • وعلم بنيه مد سكك الحديد لدرج القطار • وأرشدهم الى رصد النجوم هداية لهم فى الليل المدلهم • وكشف لهم عن خبايا المغنطيس عناية منه لما فيها من النفع المهم • وقال لعباده ان اسلكوا فى الأرض بالطول والعرض • وجولوا البلاد • وعاشروا العبـــاد • وافرجوا ما فى قلبكم من الغم • بالجوب فى البر والقلع فى اليم • وداوا من العقل الكلوم • بشرب كوثر العلوم • وفى ذلك قال الامام على رضى الله عنه :

تغرب عن الأوطان فى طلب العـــــلا
وسافر ففى الأســـــفار خمس فوائد
تفـــرجُ همٍ واكتســـــاب منـــافعٍ
وعـــــلم" وآداب" وصـــحبة ماجـــــد

ولا جرم ان فى الاسفار فوائد جمة غير هذه منها ما قاله موسى عليه السلام — « لا تلوموا السفر فانى أدركت فيه ما لم يدركه أحد » — يريد ان الله كلمه وهو مسافر عن الأوطان • وقال المأمون — « لا شىء ألذ من السفر فإنه يشد الأبدان وينشط الكسلان ويشهى الطعام » — إلى غير ذلك • ولهـــذا كان للناس فى الأســــفار مذاهب • فمنهم من سافر فى طلب العلم والمعارف واكتساب الفوائد • ومنهم من أراد منها الزهد والعبادة •

ومنهم من قصدها فى طلب الرزق واكتساب المعاش وحشد الأموال • ومنهم من طمع منها بنوال الفخر والأمجاد كقول حسين بن على الطائى •

إن العــــلى حدثنى وهى صـــادقة
فيما تحدث ان العـــــز فى النقـــل
لو ان فى شرف المـــأوى بلوغ منى
لم تبرح الشمس يوما دارة الحمــل

ومنهم من عمل الركاب وطاف ما أمكنه الوصول اليه من بقاع الأرض بالسياحة حتى يشاهد حال البلدان والدول فى الحال ويثبته فى مؤلفات جديدة يوضح فيها ما شاهد من رحلاته ولا يبالى بمشقات السفر وعوارض الاغتراب والبعد عن الأهل والوطن كل ذلك له بنفاسة ما هو فيه من خدمة أبناء عصره بتحقيق أخبار البلاد الشاسعة حتى يصير هذا الاغتراب عن الأهل والاتراب ديدناً له لا يبتعد عنه ويقضى فيه حياته ويقول بقول مصعب العقلى :

إذا كان أصـــلى من تراب فكلهـــا
بـــــلادى وكـــل العامـــــين أقاربى

ولهذا قد تصدى كثير من متبصرى المسلمين والفرنجة من أهالى أوروبا وغيرها للسياحة لإفادة أبناء جنسهم من أحوال الأمم التى لم تكن على نحو مألوفاتهم وبذلك يتحققون معنى سعة أرض الله وكثرة جنود ربك واختلاف ألوان الناس وألسنتهم ويخلدونها فى بطون الأوراق لافادة أمم جميع الآفاق • أما الملوك والسلاطين ففيهم من سافر طمعاً فى الاكتشاف على بلاد الله الواسعة الفلا الكثيرة الكلأ والنظر الى ما فيها من الخيرات وأسباب التمدن والحضارة والمعارف والصنائع إلى غير ذلك من بواعث الخيرات والنجاح ليزداد خبرة ويستعين بها على نقل ما فيها من المحاسن الى ممالكه كما فعل بطرس الأكبر ملك الروسية وغيره من الملوك والسلاطين •

فبناءً على ما ذكرنا صمم السيد الهمام والقرم القمقام[1] السلطان بن السلطان بن السلطان ابن الامام برغش بن سعيد بن سلطان بن الامام أحمد سعيد على مبارحة ملكه الرغيد وتجشم مشقة الأسفار والخروج الى بلاد أوروبا الغنية بكنوز المعارف والصنائع وأسباب الحضارة والعمران ليرى ما فيها مما يستحق نقله الى بلاده وان كان ملكه على جانب عظيم من الخصب والعمران فانه قد شاد فيه حصون الحضارة على أركان العدالة وصارت رعاياه ترتع على مروج الخصب والسلام وتضحك عن ثغر بسام •

غير أن السلطان برغش أعز الله شأنه قد جبل على طبع جليل يشتاق الى طلب المعالى والفلاح • ومن حسن دابه الاثيل اذا سمع بمفخرة لم يألُ جهداً عن امتطاء سنامها والفوز بنوالها ولهذا عزم على الاسفار والجولان فى الأمصار وكتب يقول الى جلالة فيكتوريا ملكة بريطانية[2] وسلطانة الهند الفخيمة انه يريد زيارة البلاد الأوروبية • فهشت وبشت جلالة الملكة الى رؤياه وأرسلت تستقدمه برسالة ودادية[3] فلباها السيد برغش بحسن القبول • واتمام المأمول •

ولما كنت ممن تشرف بصحبة جلالة السلطان فى هذه الرحلة الزهية ورأيت بمرأى العين ما حصل لجلالته من العز والجاه فى تلك البلاد السعيدة وسرحت نظرى بما فيها من المفترجات والتحف النفيسة التى تتوق اليها العقول وترتاح الى استماع أخبارها النفوس عولت على جمع ذلك الى كتاب براسه سميته :

« بتنزيه الأبصار والأفكار فى رحلة سلطان زنجبار »

---

(١) هى تكرار لمعنى السيد الهمام •
(٢) يقصد بريطانيا •
(٣) يقصد رسالة ودية •

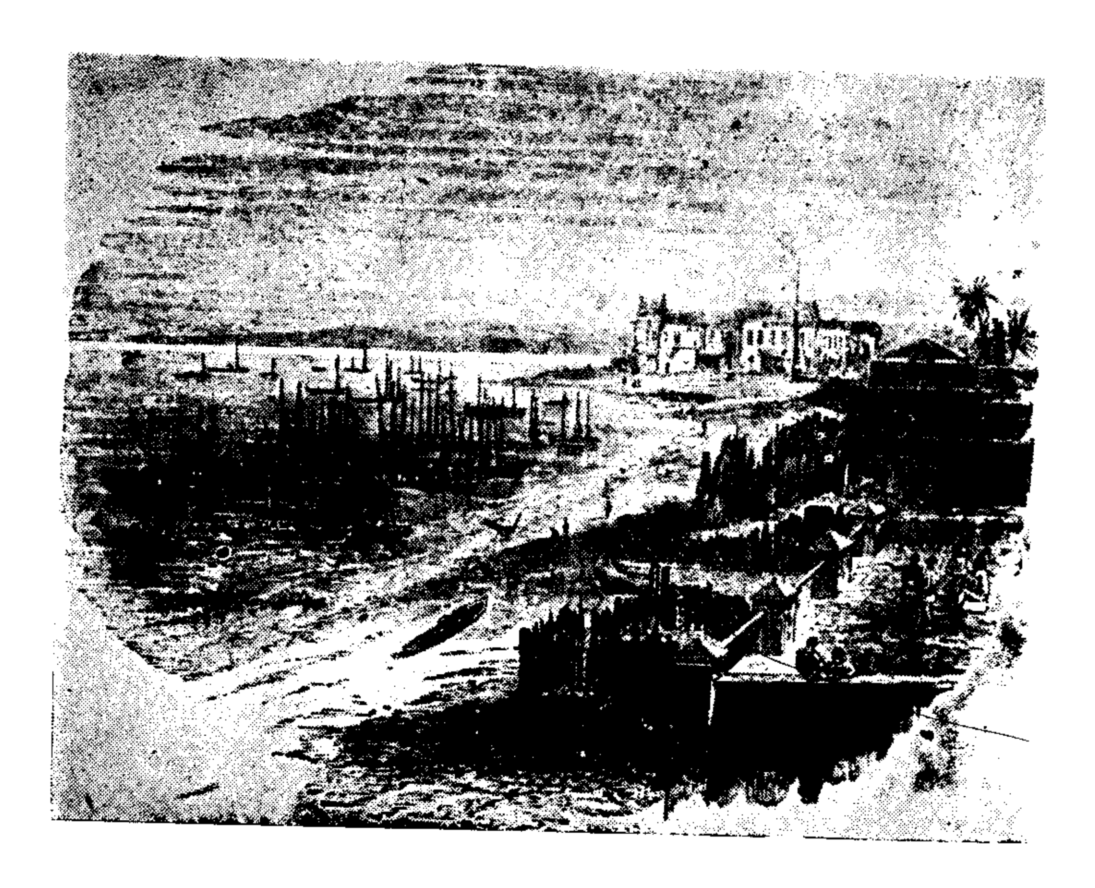
فالمأمول ممن يقف على هذا المؤلف الصغير المنظر الكبير المخبر ان يغتفر كثير صوابى فى قليل خطائى[1] • فإن الله يأبى العصمة لكتاب غير كتابه • هذا وانى قد عملت الفكرة فى وضعه على طريقة سهلة المناولة يتيسر لكل من يسرح نظره فى رياضه أن ينزه أفكاره بأخباره وقد جاء مصداقا لقول الشـــاعر :

ان رمت فى الدنيــا نزاهة ســايحٍ
فانظر الى هذا المصنف دارســــا
من ليس يطمــع ان يراها ماشـــيا
فانا الضــمين أن يراها جالســــا

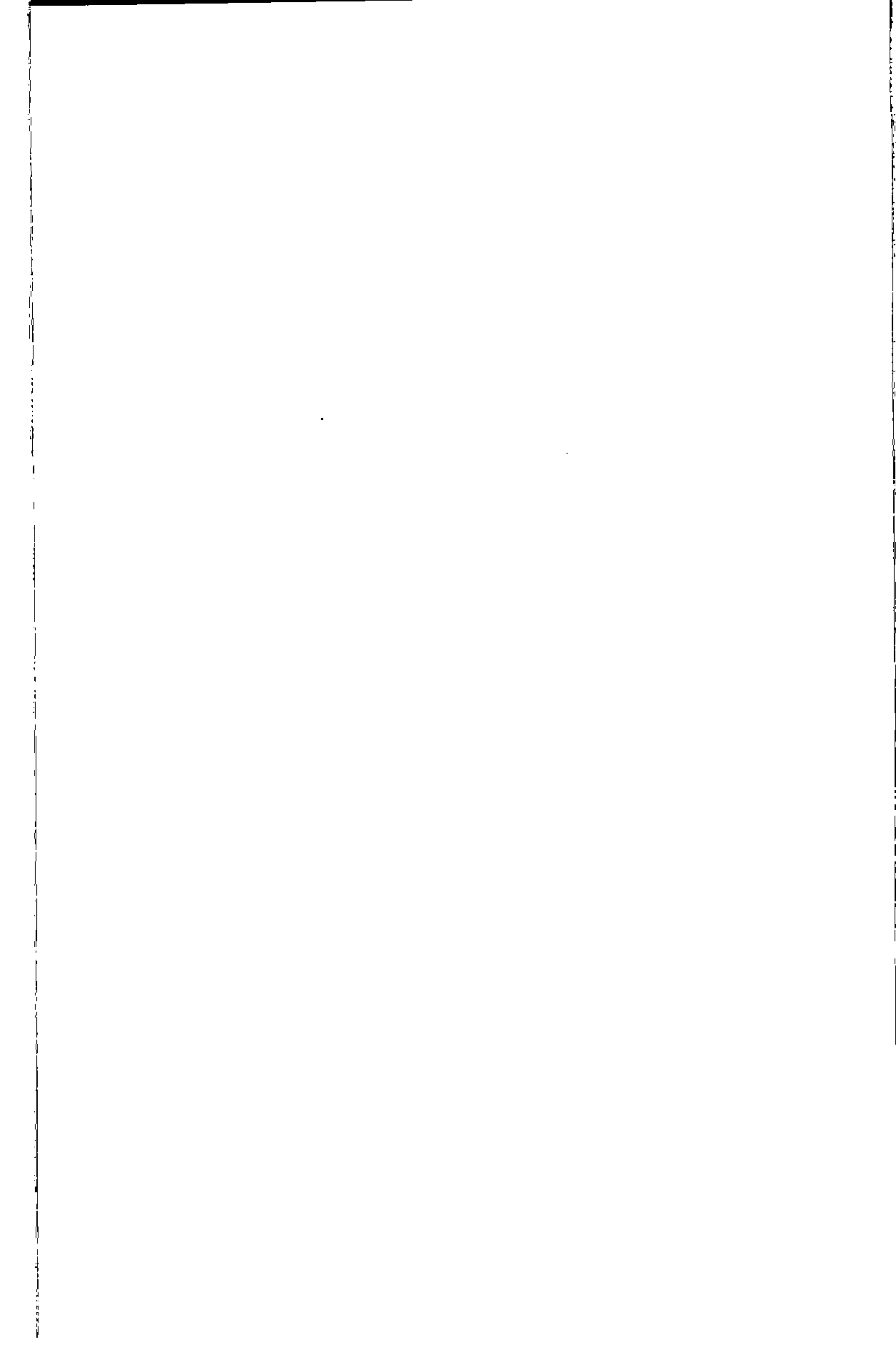
فعلى السعى به وعلى الله النجاح

---

(١) الصحيح خطئى . أو ربما يقصد اخطائى .



(منظر مدينة زنجبار)



البـــــاب الأول

فى التأهب الى الســـــفر

لـــا عزم جلالة السلطان على السفر بالسلامة تهيأت له باخرة انكليزية اسمها « كوكوناده » واسم قبطانها « اندرسن » فاختار السلطان أعزه الله بضعة أنفار من حشمه يرافقونه فى رحلته وهم السادات : حمود بن أحمد ، وحمد بن سليمان ، ومحمد بن أحمد ، وناصر بن سعيد ، والفاصل فى الدعاوى الشرعية الشيخ محمد بن سليمان ، و « تارياتوين » كبير تجار أهل الهنـــد المقيمين فى جزيرة زنجبار والقبطان محمد بن خميس والكاتب زاهر بن سعيد وعبيد بن عوض قابض المالية وغيرهم من الخدمة مجموعهم تسعة عشر رجلا •

البـــــاب الثـــــانى

فى الســـــفر من زنجبـــــار

كان سفر جلالةالسلطان من زنجبار نهار السبت فى اليوم الأول من ربيع الآخر سنة ١٢٩٢ • وعند ركوبه الباخرة شيعه كبار مملكته وأرباب دولته وقناصل الدول بأجمعها وأطلقت له المدافع من حصون العاصمة ومن بارجة الانكليز التى كانت فى المرفأ •

وفى الساعة الرابعة وعشر دقائق أقلعت السفينة وسافر السلطان أعزه الله على بركات الله تعالى مصحوبا بقنصل جنرال دولة بريطانية[1] مستر جون كيرك الذى أمرته جلالة الملكة أن يرافق السلطان ذهابا وإيابا • فساروا وطابت لهم الريح وصفا الجو وراق البحر ومازالوا يقلعون فى راحة وسرور حتى أقبلوا على سراج فوق منارة على رأس مدخل بندر عدن •

ولـــا اتفق وصولهم الى المدخل قبل طلوع الفجر خشى القبطان من

---

(١) صحتها بريطانيا •

المرورَ به ليلاً حذراً من تصادف الأخطار • فأمسك عن ذلك لشدة حزمه حتى الصباح• وكان ذلك صباح نهار الأحد فدخل القبطان حينئذ بالباخرة بندر عدن وقد نشر علم السلطان فى أعلى دقلها[١] •

ولمـــا رست الباخرة أتى أعيـــان البلد وتجارها ووكيل الباخرات[٢] الانكليزية السيد كاواجى الفارسى الأصل وغيرهم من أكابر عدن ليسلموا على سعادة السلطان • ثم حضر قبطان العساكر الانكليزية الى باخرة سعادة السلطان وسلم عليه ثم تصافحا وانصرف • وكان بمرسى عدن عدة سفن أجنبية وبوارج حربية انكليزية من جملتها بارجة اسمها جلاصجوه كان فيها أمير البحر فأمر باطلاق ٢١ مدفعا اجلالاً لحضرة السلطان كما يطلق لكل ملك له شـــــأن •

وفى الساعة السادسة من النهار قدم والى عدن وأمير البحر الإنكليزى ومعه قباطين البوارج وكبير العساكر المقدم ذكره لمواجهة السلطان وتبليغه التهانى بوصوله الى بلادهم سالما غانما • فترحب السلطان بهم وأكرم مثواهم وترفق بهم غاية الرفق كمألوف عادته ثم انصرفوا وهم يثنون على رقة جانبه • وفى الساعة العاشرة من نهار ذلك اليوم حضر قنصل جنرال دولة جرمانيا لمواجهة السلطان فى الباخرة فاقتبله[٣] السيد برغش بمزيد العز والاكرام واضافه[٤] فباتوا ليلتهم فى المركب •

---

(١) اى ساريتها .
(٢) يقصد البواخر .
(٣) اى استقبله .
(٤) يقصد استضافه .

البـــاب الثالث

فى خروج حضرة السلطان الى بندر عدن

نزل جناب السلطان يوم الاثنين من اليوم العاشر من السفر الى زيارة والى البلد ومعه تسعة أنفار من حشمه وعند بلوغه البر أطلق الجنود ٢١ مدفعا اجلالاً له وترحاباً بقدومه الى بلادهم وعلم السلطان منشورا يخفق فوق رؤوسهم • ثم سار السلطان الى دار الوالى ورد له الزيارة فتلقاه الوالى بمزيد العز والاكرام ثم خرجوا جميعا وأرباب الدولة تكتنفهم وذهبوا الى مكان يسمى طواهى ثم ركبوا على جوارى الخيل (عربيات) والعساكر الخيالة تسير من أمامهم وورائهم ودخلوا مدينة عدن يريدون الفرجة •

وعدن مدينة من مدن البلاد العربية على شط بحر الهند ولها مرساة أمينة للسفن • كانت لها تجارة واسعة بين الشرق والغرب لكنها الآن فى انحطاط • والأراضى التى حولها جديبة يابسة وهى بيد الانكليز محطا لمراكبهم الجارية بين الهند والسويس وقد أقاموا فيها استحكامات منيعة وحفروا صهاريج عميقة عظيمة منقورة فى الكهوف نقرا محكما تصب فيها مياه الأمطار المنحدرة من الجبال وتحفظ طول السنة ومنها يستقى الناس الماء القراح • وبعد أن طاف السلطان ومن معه مدينة عدن ورأوا منها ما كان أهلا للفرجة رجعوا إلى الباخرة فى الساعة الخامسة •

البـــاب الرابـع

فى ســفر حضرة السلطان من عدن

كانت الدولة البريطانية أعدت لحضرة السلطان برغش فى عدن باخرة أخرى من بوارج الدولة فانتقل اليها فى قارب جميل تخفق فى مؤخرته الراية الزنجبارية • وكان قد رافقه كثيرون من أرباب الدولة البريطانية وأعيان البلد وتجارها يشيعونه بالسلامة • وبعد ان قضوا فروض الوداع عادوا الى البر وأقلعت الباخرة الحاملة للسلطان وسافرت فى حراسة الرحمن • فطابت لها الريح وصفا الجو وراق البحر ومازالوا يقلعون وهم فى أرغد عيش واذا ببارجة انكليزية حاملة أمير البحر قادمة فعرف الأمير باخرة السلطان وأمر باطلاق ٢١ مدفعا على سبيل السلام والتوديع لجلالته ثم ساروا الليل بطوله حتى انكشف لهم نور فوق منارة قد شادتها الدولة البريطانية هداية للسفن فى مرورها ليلا فى مضيق مدخل باب المندب •

وفى اليوم الثانى من السفر صادفت باخرة السلطان مركبا عظيما ذا أربعة قلاع يخاله الناظر اليه قمة جبل عال ، وبعد غياب الشمس بثلث ساعة مرت السفينة بنور آخر على منارة مشيدة فى شعب يدعى أبو الكيزان وفى ليلة الأحد مرت الباخرة بمنارة الاشرف وهى مشيدة فى شاطىء بر افريقية تجاه شاطىء بر الشام حذاء جبل سينا بقرب بركة فرعون وهى التى غرق فيها فرعون بفرسانه ومركباته • وفى الساعة السابعة من الليلة المذكورة مرت السفينة بمنارة رأس غارب • ونهار الأحد مرت بمنارة الزعفران •

وبعد خمس ساعات وصلت الباخرة بندر السويس وهى بلدة واقعة شرقى مدينة القاهرة بمصر على مدخل خليج السويس عند منتهى البحـــر الأحمر وقد انشأ الفرنساويون فيها معامل لصالح خليج السويس والسهر

على حفظه فى أحسن حال • وأهلها من العرب والمصريين والفرنساويين وغيرهم من الأجانب •

وبعد ان رست باخرة حضرة السلطان بنصف ساعة أتى قبطان من مراكب حضرة خديو مصر وصعد الى الباخرة وطلب علما من أعلام جلالة السلطان لينشره فى مركبه فأعطى له ثم أرسله مع واحد من أتباعه ونشره فى دقل مركب الخديو ثم أطلق الملاحون المصريون ٢١ مدفعا سلاماً لحضرة السلطان •

وفى أثناء ذلك طلب قبطان مركب الخديو مواجهة الامام برغش • فخرج السلطان الى ظهر الباخرة وقابل القبطان بالبشاشة والاكرام ثم انصرف • ثم أتى بعده قبطانان آخران من قباطين المراكب الخديوية وسلما على جلالة السلطان ثم انصرفا • ثم أتى بعدهم قنصل دولة بريطانية الفخيمة وجناب السيد دى لاسبس ناظر شركة خليج السويس وسلما على سعادة السلطان ثم انصرفا •

ثم حضر بعدهم حاكم بندر السويس المسمى حسن بك ورحب بقدوم السلطان ثم انصرف وهو يثنى على ما ناله من الاكرام من سعادة السيد برغش الذى كان يبش بوجه جميع الذين تشرفوا بمواجهته حتى سمعت قوما يقولون بارك الله فى سلطان متصف بهذه السجايا والخصال الحميدة •

البـــــاب الخامس

فى الســــفر من الســـويس

فى الساعة العاشرة من نهار يوم الأحد سافرت باخرة سعادة السلطان من مرسى السويس حتى اذا مرت ببارجة سعادة الخديو أمر قبطانها باطلاق ٢١ مدفعا اكراما لحضرة السلطان • وكان ملاحو البارجة قد صعدوا الى السطح ورؤوس السوارى وهم يبدون أصوات الابتهاج والتسليم على سعادةالسيد برغش ، وكان السلطان قائما فىصدر باخرته يردالسلام عليهم بلطفه وانسه المعتادين • وفى أثناء ذلك أخذت باخرة السلطان بالدخول الى خليج السويس وفيما كانت السفينة مارة بالخليج صادفت سفينة أخرى كانت مقبلة من بورت سعيد •

ولمـــا كان الخليج ضيقا لا يسمح لمرور باخرتين بجانب بعضهما وجب على احدى السفينتين أن تلتجىء الى المرفأ وترسو فى محطات معينة لها حتى تسمح للسفينة الأخرى أن تمر فى منتصف الخليج •

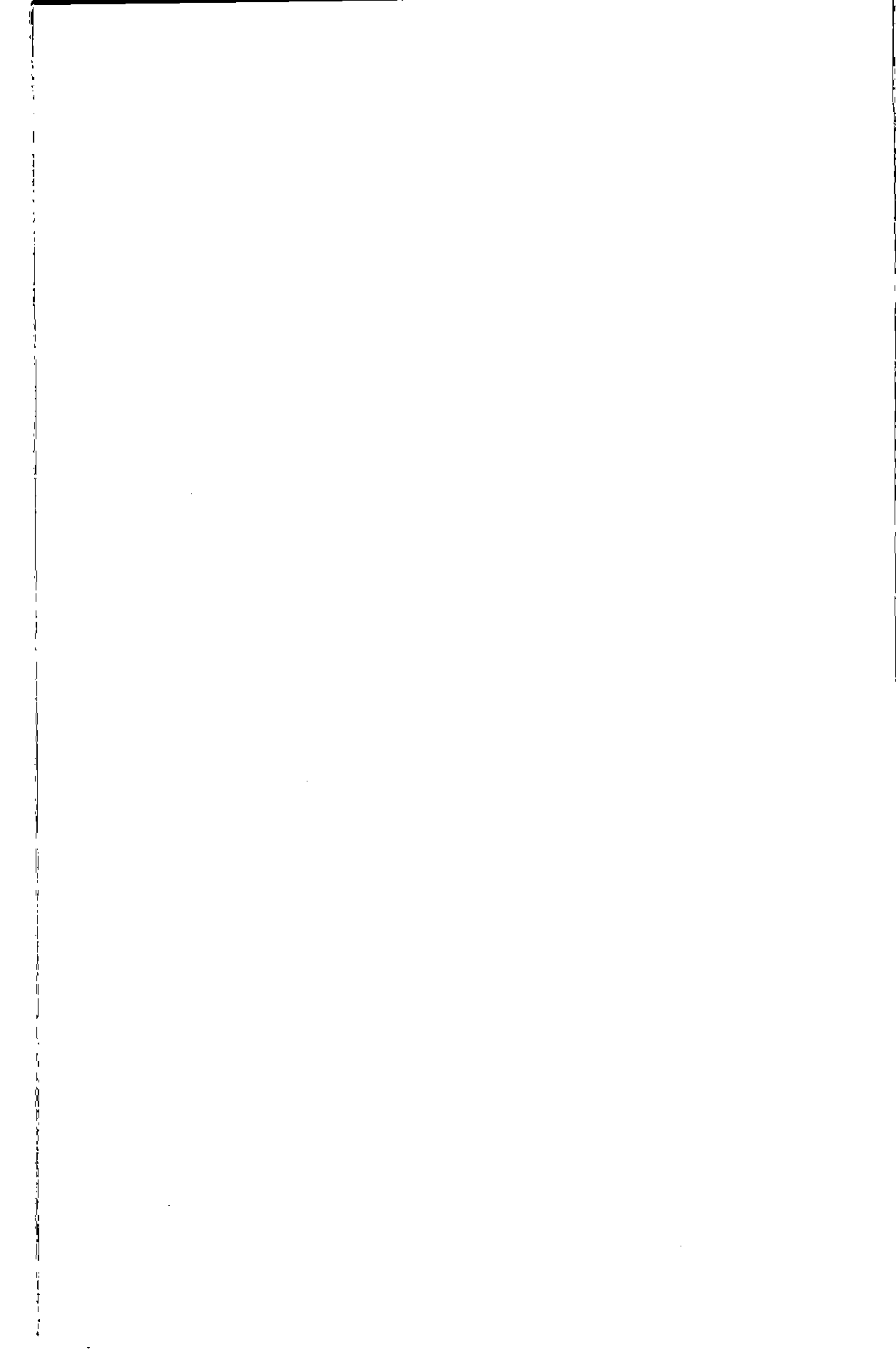
وقد رتب المحافظون على الخليج قوانينوقواعد لمرور المراكب ؛ فقد عينوا مراسى تقف فيها المراكب الواردة من جهة بورت سعيد[1] ومراسى تقف فيها المراكب الواردة من جهة السويس • فلما أقبلت السفينة من جهة بورت سعيد كانت باخرة سعادة السلطان قد وصلت الى المرسى المعين لتوقيف المراكب الواردة من السويس فمال بها القبطان الى المرسى وربطها الملاحون الى الشاطىء حتى مرت الباخرة الآتية من بورت سعيد ولبثت باخرة سعادة السلطان فى ذلك المرسى نحو ساعة •

---

(١) هذا نطق انجليزى لبورسعيد .



(صورة بندر السويس)



ثم حلوا حبال الباخرة وأطلقوا سبيلها وسارت حتى غروب الشمس • ولضيق الخليج لا يسمح للمراكب أن تسافر فيه ليلا • ولايسمح أيضا للبواخر أن تسافر فى الخليج نهارا أكثر من خمسة أميال فى الساعة ولما كانت باخرة السلطان راسية فى محطة مبيتها مر بها نهار الاثنين صباحا مركب كبير ذو أربعة دقال • ومركب آخر ذو دقل واحد قد أعدته شركة الخليج لانقاذ المراكب اذا جرى لها عارض فى مرورها بالخليج • وفى الساعة الأولى من نهار الاثنين أقلعت باخرة السلطان وسافرت ثم وصلت الى المرسى الخامس حيث يأخذ الخليج بالانفراج والتنفس عن ضيقه الأول •

وكان فى هذا المرسى آلة يسمونها كراكة تحفر قرار الخليج وتحمل رماله وتقذفها بقوة البخار الى سفن أخرى صغيرة تدنو منها وتحمل ذلك الطين الى الساحل وهكذا تنقى باطن الخليج • ولا يسمح المحافظون على الخليج لأحد أن يرمى فى ميائه أقذارا من المراكب ولا رمادا ولا فحما ولا غيره •

وبعد برهة وجيزة دخلت باخرة السلطان بحيرة التمساح وهى بحيرة مستديرة فى منتصف الخليج كما ترى رسم ذلك فى خريطة الخليج وعلى ساحل هذه البحيرة قد اختط المهندسون مدينة جديدة سموها « الاسماعيلية » تيمناً باسم اسماعيل باشا خديو مصر • وفى البحيرة كراكات كثيرة كالتى سبق أن ذكرناها وذكرنا أنها أعدت لتنقية قعر الخليج من الرمال التى تقذفها الى باطنه الرياح ويأتى بها التيار من البحر المتوسط • ثم أخذت باخرة السلطان تمر بالمرسى السادس وهو على ساحل جزيرة صغيرة فى البحيرة المذكورة •

وفى أثناء ذلك رأى سعادة السلطان دخاناً قد ارتفع من البر ثم سار بسرعة

البرق • وكان ذلك دخان فابور[1] سكة الحديد المصرية وكانت هذه أول مرة شاهد فيها جناب السيد برغش وحشمه فابور سكة الحديد • ثم قبل وصول الباخرة الى المرسى السابع مرت بمنارة فى شكل عامود من حديد ارتفاعها أربعون قدما (فوتا) [2] • ولما بلغت الباخرة الى المرسى السابع أخذ الخليج يضيق رويدا رويدا حتى صار كما كان قبل بحيرة التمساح •

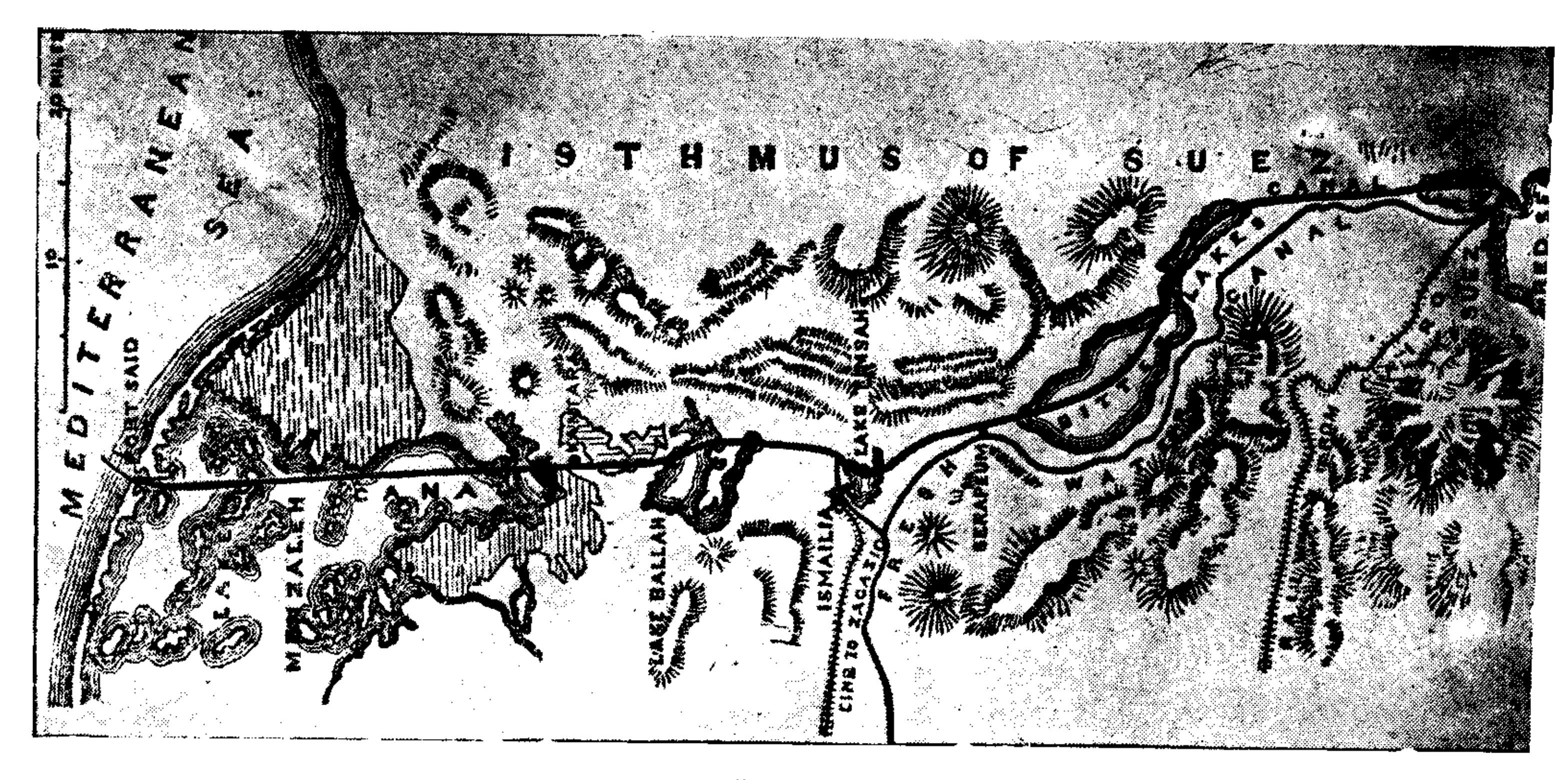
ومن المرسى السابع الى البر قنطرة من حديد (جسر) يمر فوقها الناس من المرسى الى البر وهناك أيضا ماء حلو من ترعة النيل وأدوات بخارية لتطهير الماء من أقذاره وارساله فى اقنية الى مدينة الاسماعيلية التى مر بنـــا ذكرها •

ومازالت الباخرة تمر من مرسى الى مرسى حتى وصلت الى مرسى بهج المنظر انقطع فيه منظر الرمال القاحلة وظهرت آثار الخضار والأشجار وتدفق المياه بين الرياض والأزهار وبقرب هذه البقعة من الأرض الطريق المؤدية الى بيت المقدس (أوروشليم) • وبجانب هذه المحطة بركة الملاحة التى ذكرها السيد حمود بن أحمد فى كتابه ان ضمانها يبلغ ثلاثماية ألف ريال فى السـنة •

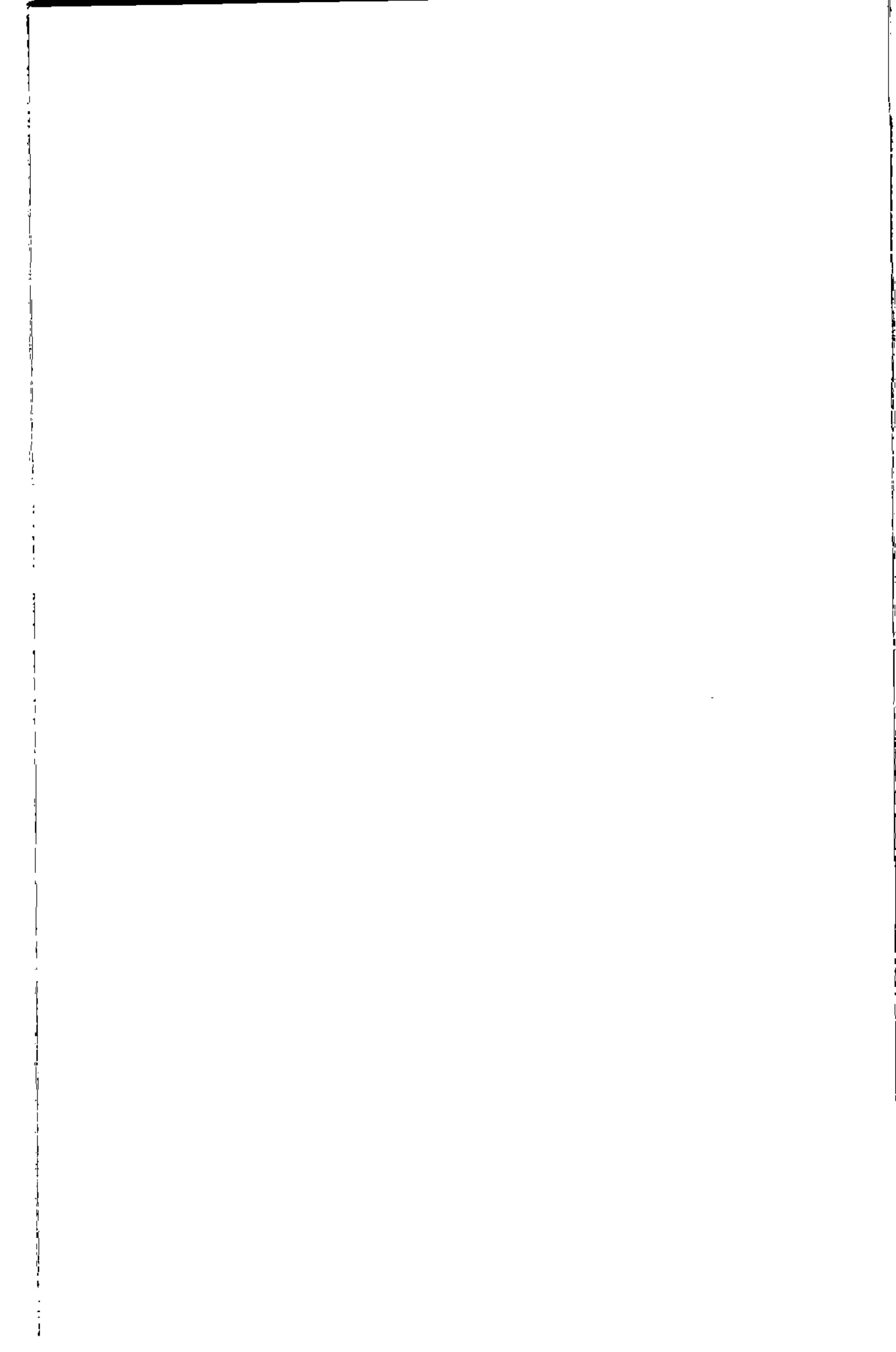
ومازالت الباخرة تسير حتى قطعت كل مراسى الخليج وهى ١٢ مرسى ووصلت الى بورت سعيد بعد غياب الشمس بساعة • وطول الخليج من السويس الى بورت سعيد ٨٥ ميلا وأعداد الأميال مرقومة على ألواح موضوعة على جسور خشبية تدل المـــار بها على عدد الأميال التى قطعها فى سيره • وقطعت الباخرة الحاملة جلالة السلطان هذه المسافة فى مدة ١٢ ساعة ونصف ثم توقفت فى مرسى بورت سعيد وباتت هنالك •

---

(١) يقصد الكلمة العامية (وابور) اى القطار .
(٢) هى الكلمة الانجليزية لجمع قدم باللغة العربية .



(خريطة خليج السويس)



وفى الساعة الثانية من صباح اليوم الثامن عشر من سـفر سعادة السلطان أتى ابراهيم بك والى مدينة بورت سعيد ومعه حسن بك قبطان بارجة الخديو (منور) ثم جناب محمد قبطان وكيل سعادة السلطان وغيرهم من أعيان البلدة وصعدوا الى المركب وسلموا على جلالة السلطان وبلغوه التهانى بوصوله بالسلامة • فتلقاهم بالترحيب والبشاشة كمألوف عادته الغراء ثم انصرفوا الى حال سبيلهم •

البـاب السـادس

فى السفر من بورت سعيد الى ليسبون

فى الساعة الثالثة ونصف من صباح ذلك النهار رفعت باخرة السلطان أنجرها من مرسى بورت سعيد وسافرت فى كنف الرحمن حتى اذا عادلت بارجة من بوارج حضرة الخديو (منور) أمر قبطانها باطلاق ٢١ مدفعا لجلالة السيد برغش ثم نشر أعلاما كثيرة فى أرجاء البارجة وأمر جنوده البحريين بالاصطفاف على سطح البارجة وهم حاملون السلاح ثم رفعوا أصواتهم بالدعاء والسلام لحضرة السلطان ، وكان قوم من الجنود البحريين يعزفون بآلات الموسيقة [١] • فقام جناب السيد ومن معه وأقبلوا نحو بارجةالخديو وردوا السلام على قبطانها وعلى من فيها من الضباط ، ومازال الفريقان يشيران الى بعضهما بالتحية والسلام حتى افترقا وسافرت باخرة سعادة السيد على بركة الله تعالى •

ولمـا كان اليوم ٢٢ من أيام السفر واجهت باخرة سعادته جزيرة مالطه ولكنها لم تعرج على مرساها • وفى اليوم الرابع والعشرين وصلت الى جزيرة

---

(١) يقصد الموسيقى .

مسينا من بلادالايتليان[١] وكذلك لم تعرج عليها . وكان الجو مدة هذا السفر بطوله صاحيا والبحر هادئا غير أنه فى ليلة اليوم الخامس والعشرين اشتدت الغيوم فى الجو وأظلمت الدنيا ولاح وميض البرق من المغرب وتراكم السحاب وعصفت الرياح وهطلت الأمطار وتعالت الأمواج من ذلك البحر العجاج واندفعت الى سطح السفينة وطفحت عليها ودام الحال على هذا المنوال الى اليوم السادس والعشرين .

ثم اشتد الضباب وأظلم الجو فى قلب النهار حتى عجز البحارة عن رصد ما يمر بهم من السفن فخشيوا من أن تمر بهم سفينة تصدم باخرة السلطان وهم لايرونها من شدة الضباب والظلام فأخذوا فى اطلاق أصوات الصفير لينبهوا من كان وراءهم ومن كان أمامهم يعج فى تلك البحار حتى يجنبوا أنفسهم من مصادمة سفنهم .

ولما كان مساء ذلك النهار انكشف ذلك الضباب وانجلى الظلام عن وجه البحار بأمر الله تعالى صاحب العزة والاقتدار .

وفى الليلة السابعة والعشرين مرت باخرة السلطان بمضيق جبل طارق وجبل طارق حصن" منيع على مدخل البحر المتوسط تدخل السفن من مضيقه الى بحر الأوقيانوس الاتلنتيك[٢] .

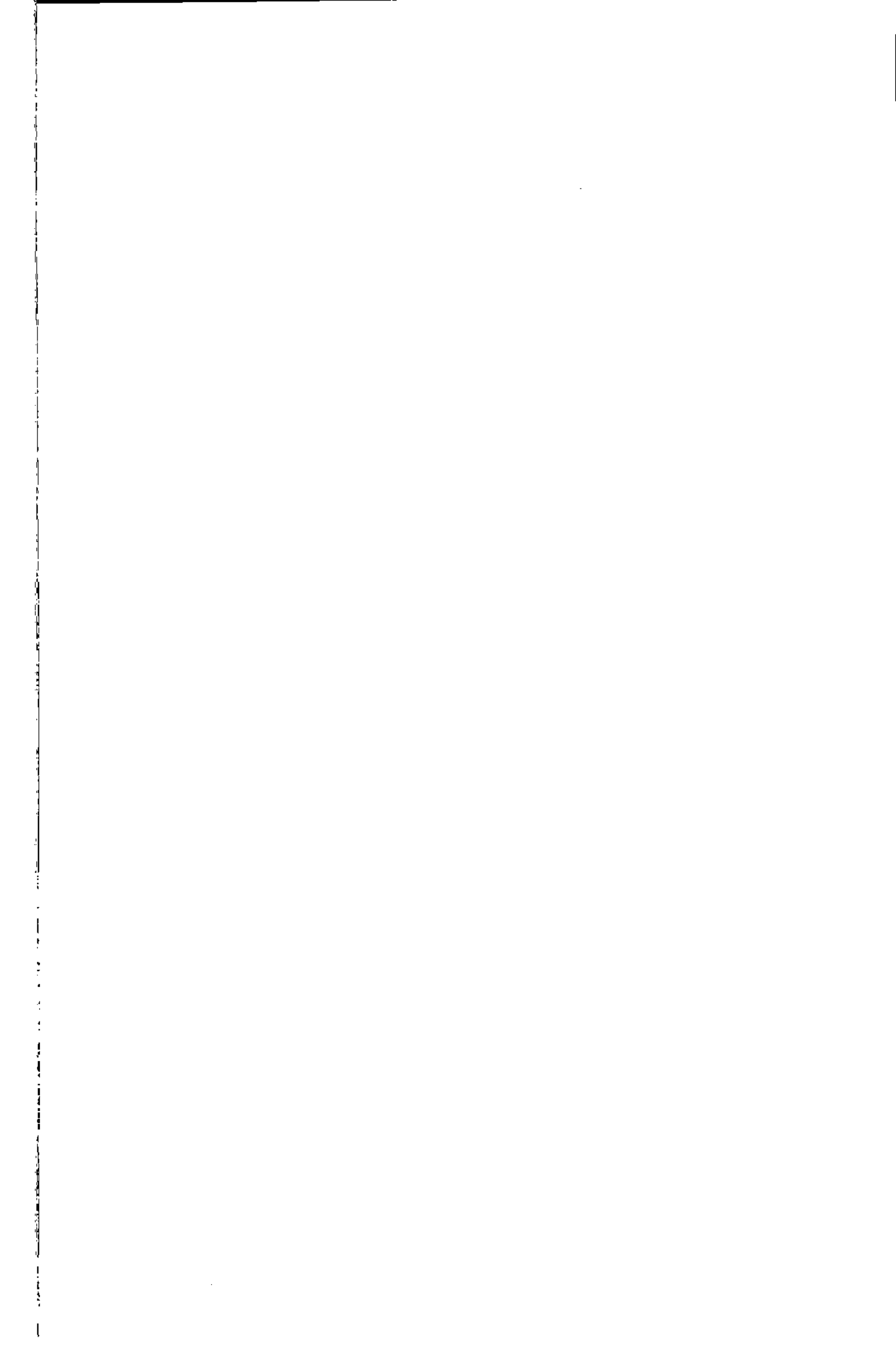
وهذا الجبل صخر عظيم يبلغ ارتفاعه ١٤٣٩ قدما (فوتا) وفيه مغارات واسعة منقورة فى الصخر الأصم ومحصنة بالمدافع وغيرها من الأسلحة ، كما أنها حصون طبيعية قد زادتها استحكاما القوى العقلية ودرابة[٣]

---

(١) يقصد الايطاليين .
(٢) يقصد المحيط الاطلنطى .
(٣) يعنى دربة : أى حسن تدريبهم .



(صورة لجبل طارق وحصنها المنيع)



الانكليز فى الفنون الحربية • ولم يزل هذا الجبل الى الآن فى يد الدولة البريطانية منذ أخذته من مملكة أسبانيا سنة ١٧٠٩! • وقد حاولت مملكتا أسبانيا وفرنسا جهدهما فى أخذ هذا الحصن المنيع من يد الانكليز فلم يستطيعا أخذه • وسمى هذا الجبل باسم « جبل الطار »[1] نسبة الى القائد العربى طارق بن زياد الذى دخل بلاد أسبانيا من جهة هذا الجبل وفتحها فى الجيل الثامن فى خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان وهو سادس الخلفاء الأمويين •

وفى اليوم السابع والعشرين قرب الغروب واجهت باخــرة السلطان محطة السلك البرقى على ساحل بلاد أسبانيا فطلب المتوظفون[2] فى ادارة السلك من قبطان باخرة السلطان ان يخبرهم بمن كان فى باخرته • وكان خطابهم مع القبطان برفع رايات مختلفة الألوان والنقوش • وكل راية ذات نقش تدل على كلام فمتى طلب القبطان شيئاً نشر على رأس الراية التى تدل على مطلوبه فيفهمها الناظر اليها من بعيد ويرفع له الراية التى تدل على جواب مطلوبه •

وهذا علم" جزيل الفائدة للقباطين يتمكنون به من مساعدة بعضهم فى حدوث الأخطار • فاذا عرض لمركب حادث مهلك أو كان مشرفا على الغرق أو محتاجا الى مؤونة ورأى قبطانه مركبا آخر مارا على مسافة بعيدة عنه لا يصل صوته الى مسامع قبطانه ليستغيثه بالكلام أخذ بطلب اغاثته بواسطة اشارات الرايات وحصل منه على الفرج •

فبهذه الطريقة أفهم قبطان باخرة السلطان المتوظفين فى ادارة التلغراف انه حامل فى مركبه جلالة السيد برغش سلطان زنجبار وانه يريد الذهاب

---

(١) جبل الطار يقصد به جبل طارق .
(٢) يعنى الموظفون .

الى مدينة ليسبون ويكون وصوله اليها فى وقت كذا ان شاء الله تعالى » • ففهم المتوظفون فى ادارة التلغراف كلامه وأرسلوا ذلك الخبر بسلك الاشارة الى مدينة ليسبون[1] •

وبلغ ملك البورتكال[2] خبر وصول سعادة السلطان برغش الى ليسبون فى أقرب وقت وأمر باستحضار قصر جميل لسكنى سعادته عند وصوله بالسلامة • وفى اليوم الثامن والعشرين وكان نهار الجمعة وصلت الباخرة الى مينا مدينة ليسبون •

وبعد أن ألقت أنجرها[3] أتى طبيب الصحة بأمر الحكومة وسأل القبطان عن صحة أهل الباخرة فأجاب القبطان ان سعادة السيد برغش ومن معه فى غاية الصحة والعافية • ثم أخرج قرطاس الشهادة وعرضه على طبيب الصحة فتيقن الطبيب أن باخرة سعادته قد سافرت من بلاد ليس فيها وباء معد وأن جميع من كان فيها سالمون • فكتب ذلك فى كتابه وانصرف الى حال سبيله •

ثم أتى بعده نفران من حراس المدينة وسألوا القبطان عما عنده من البارود • فقال عندنا شىء يكفى لاطلاق مدفعين فقط • قالوا لا تسمح شريعة المملكة ان يدخل مركب الى مرسى بلادها وهو حامل شيئا من البارود ونحن نحفظه عندنا الى وقت رحيلكم • قال القبطان حبا وكرامة • ثم أمر البحارة ان يسلموا حراس البلد ما فضل عندهم من البارود ففعلوا •

وبعد ذلك دخلت الباخرة الى قلب المرسى • وكان فيه عدة مراكب منها ستة لدولة الانكليز • ولما قاربت باخرة السلطان فى مرورها بارجة من

---

(١) أى مدينة لشبونه .
(٢) أى ملك البرتغال .
(٣) يقصد مرساها .

بوارج الانكليز أطلقت تلك البارجة ٢١ مدفعا لسلام حضرة السلطان • فكان البادى باطلاق المدافع مركب كبير وكان يحمل أمير البحر الانكليزى ثم تبعه باقى المراكب الانكليزية ورفعوا علم السلطان على سارية مراكبهم اكراما له • وكذلك لما مرت باخرة سعادته بجانب بارجة الدولة البورتيكيزية (منور) أمر قبطانها البورتكيزى باطلاق ٢١ مدفعا لجلالة السلطان ونشر علمه على سارية بارجته الحربية •

ثم ألقت الباخرة مراسيها ، وبعد ذلك أطلقت البارجة الأميريكانية ٢١ مدفعا لسلام السلطان • ثم تبعتها بارجة دولة أوستريا (منور) وأطلقت كذلك ٢١ مدفعا •

وفى الساعة الرابعة من نهار ذلك اليوم قدم الى باخرة السلطان أمير البحر البورتكيزى ووزيره ومعاونه وسلموا على سعادة السيد وهنأوه بوصوله بالسلامة فرحب بهم جناب السيد وقابلهم باللطف والبشاشة • ثم قالوا قد أرسلنا اليكَ مولانا ملك البورتكيز بالنيابةِ عن جلالته لنطلب الى سعادتك أن تشرف بلاده بنزولك الى البر وقد أعد لجلالتك قصرا من قصوره لكى تكون سعادتك فى ضيافته مدة اقامتك فى عاصمة ملكه وها نحن مأمورون أن نمتثل بأمر سعادتك • فرحب بهم السيد برغش وقال « بارك الله فيكم وفى جلالة ملككم • اننا لننزل ان شاء الله تعالى فى الساعة التاسعة ونتشرف بمصافحة جلالة ملككم المعظم » •

وفيما كان السلطان يخاطب أولئك السفراء واذا بأمير البحر الانكليزى الأول ومعه الأمير الثانى وبقية قباطين الانكليز قد أقبلوا ليسلموا على سعادته فتلقاهم جناب السيد بالسرور والترحاب • وبعد أن قضوا واجبات السلامِ انصرفوا الى حال سبيلهمِ •

ثم عاد السلطان الى سفراء ملك البورتوكيز وأعاد عليهم كلامه الأول ثم ترخصوا[١] من سعادته بالانصراف فودعهم وانصرفوا الى ملكهم وهم حاملون اليه بشارة قدوم السلطان برغش الى تخت ملكه ٠

وفى الساعة التاسعة من نهار ذلك اليوم وصل وزير ملك البورتكيز فى فلك[٢] (ماشوة) يديرها اثنا عشر نوتياً وهى مزينة بالأثاث والأقمشة ٠ وكانت فى معيته فلك أخرى يديرها أربعة وعشرون نوتياً وكانت كذلك مزينة كزميلتها ٠ فنزل جناب السيد برغش فى أفخر الماشوات رتبة مع خمسة أنفار من وزرائه ونزل باقى حشمه فى الفلك الثانية وساروا الى البر حتى اذا خرجوا الى المدينة وجدوا جوارى الخيل (عربيات) متأهبة على الساحل لتحملهم ٠

وكانت عساكر البورتكيز قائمين صفوفا صفوفا وهم رافعون السلاح فى سلام جلالة السلطان ٠ فركب السيد برغش ووزير البورتكال فى عربة تجرها أربعة رؤوس من الخيل وركب السيد حمود بن أحمد والسيد حمد بن سليمان ومستر جون كيرك قنصل جنرال دولة الانكليز فى عربة ثانية تجرها كذلك أربعة رؤوس من الخيل وركب باقى حشم السلطان فى جوار (عربات) يجرها رأسـان من الخيل فسارت جوارى الحشم أولا ثم تبعها بالترتيب العربة التى كانت حاملة للسيدين محمد بن أحمد وناصر بن سعيد ثم من بعدها العربة الحاملة للسيد حمود بن أحمد وحمد بن سليمان وجناب الدكتور كيرك قنصل جنرال الدولة البريطانية ثم تبعهم فرسان البورتكيز ثم سارت فى أثرهم المركبة الحاملة لسعادة السلطان برغش ووزير ملك البورتكال حتى وصلوا الى دار الملك وهو قصر عالى البنيان راسخ الأركان ٠ وكانت الجنود مصطفة أمام القصر وهى رافعة السلاح ٠

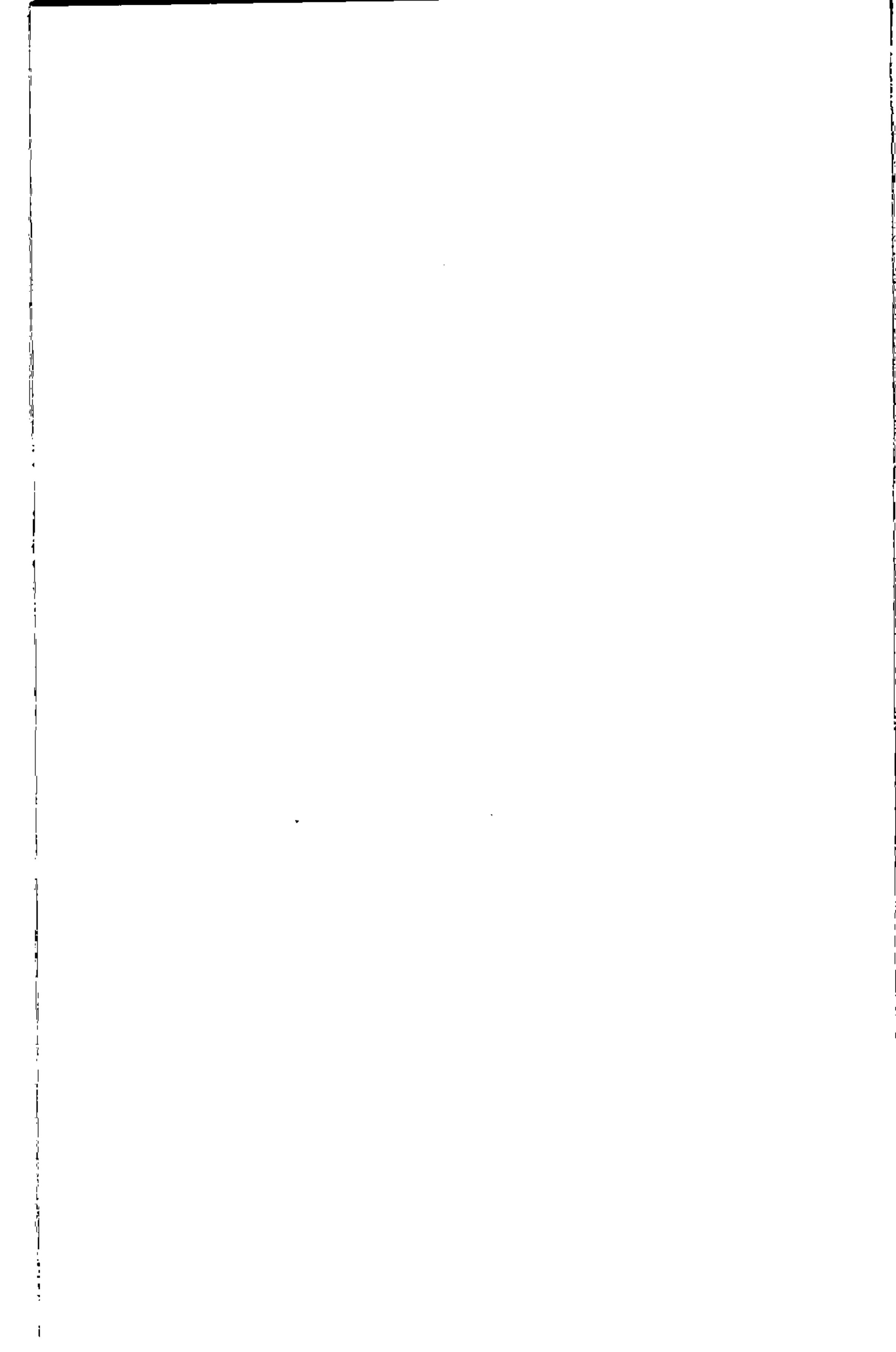
---

(١) أى استأذنوا

(٢) ما يطلق عليه اسم فلوكة أو قارب .



(صورة مدينة ليسبون « لشبونة »)



ولمـــا وصل السلطان عزف الجنود بآلات الموسيقى ورحبوا بقدومه ، وخرج ملك البورتكال ومعه جلالة الملكة وهى لابسة أفخر الحلل وعليها من الزينة والجواهر ما يبهــر النواظر ، فتلقت جلالة السلطان بالحشـــمة والترحاب .

وبعد أن انقضت واجبات السلام والرسميات صافح السلطان ملك البورتكال وقرينته ثم ركب فى مركبته وسارت الجنود به وبحشمه الى القصر المهيـــأ لهم .

وبعد أن حل ركابهم فى المنزل العظيم وصل جلالة ملك البورتكال ومعه ثلاثة من الوزراء الكبار فصعدوا القصر ودخل الملك اليه وقال له قد اعددت هذا المنزل لجلالتك لتقيم فيه أنت والحشم مادمتم مشرفين عاصمة ملكى . وقد أتيت أريد زيارتك وتبليغك التهانى بوصولك سالما غانما الى بلادى . وهذه عاصمة ملكى تحت أمرك ووزرائى فى خدمتك وقد أوصيتهم أن يطوفوا بك المدينة ويفرجوك على ما فيها من التحف والنوادر . فشكره السلطان على مآثره وجزيل فضله واعتذر اليه من اطالة الاقامة فى بلاده وقال انه مصمم على السفر فى تلك الليلة نفسها .

أما مدينة ليسبون عاصمة مملكة البورتكال فهى مبنية على جانبى نهر تاغوس بالقرب من مصبه . وفيها أبنية فاخرة جميلة وقصورها أجمـــل قصور أوروبا . وشوارعها متساوية وجميع طرقها واسعة مرصوفة بحجارة وقد جعلوا فى وسطها طريقا عريضة تمر فيها المركبات والخيل . وعلى طرفيها طريق لا يمر فيها الا الناس المشاة فقط ، وبيوت المدينة مبنية على طبقات عديدة من خمس الى ست طبقات تحف بها بساتين وجنائن تتخللها سواقى المياه الصافية . وبعض جدران المنازل منقوشة بالفخار الصينى وأنواع الزجاج المختلفة وفيها كنيسة و٧٥ ديرا للرهبان والراهبات ، ولها مكتبة فيها ٨٠٠٠٠ مجلد وسكانها نحو ٢٦٠٠٠٠ نسمة .

البـــاب الســابع
فى سفر السلطان من ليسبون الى لندن

لما عزم السيد برغش على السفر من ليسبون أتى الرجلان اللذان استلما البارود من الباخرة عند وصولها الى الميناء وسلماه لرجال باخرة السلطان ، وفى أثناء ذلك أمر السيد برغش أمين صندوقه بأن ينعم عليهما بصلة فى نظير أتعابهما فقبلاها بمزيد الشكران وأثنيا على مكارم السلطان وانصرفا .

ثم أمر القبطان برفع مراسى الباخرة نهار السبت ٢٩ الشهر ، فسارت بكنف الرحمن ومازالت سائرة حتى غرة هلال جمادى الأولى . وفى اليوم الثالث منه وصلت الباخرة الى جزيرة بريطانية . ثم سارت من هناك ووصلت الى ميناء بورتسموث نهار الأربعاء . وحال وصولها أطلقت بارجة حربية انكليزية كانت فى الميناء ٢١ مدفعاً اجلالاً لسعادة السلطان ونشروا بيرقه فى سارى البارجة الى نهاية اطلاق المدافع .

ثم سارت باخرة السيد من هناك تريد مدينة لندن . وكانت فى سيرها تمر بسفن وبواخر لا تحصى منها قادمة من لندن تريد الذهاب الى أقطار العالم ومنها قادمة من أقطار الدنيا تريد الذهاب الى لندن . ومازالت سفينة السيد تسير سيراً هنيئا حتى وصلت الى مينا اسمها كريفزند وهى عند مصب نهر التيمس فرست الباخرة فيها وكانت الباخرة كبيرة لا تصلح للصعود بنهر التيمس لصغره .

وكانت الدولة البريطانية قد جهزت باخرة صغيرة اسمها « ريفر كوين » . وأرسلت فيها عدة رجال من أصحاب المناصب ليلاقوا ســعادة السلطان ويبلغوه تهانى جلالة الملكة فيكتوريا بوصوله سالماً غانماً الى بلادها . وكان من جملة هؤلاء الرجال القس جرجس باجر الفقيه ، وكانت قد اختارته

جلالة الملكة ترجماناً لسعادة السلطان لما كان بينه وبين سعادة السيد برغش من المودة القديمة •

وكانت تلك الباخرة مزينة كلها برايات مختلفة الألوان تخفق فى جوانبها وكانت راية الانكليز منشورة فى مؤخر الباخرة وراية السلطان الحمراء منشورة فى وسط الباخرة ، فلما دنت الباخرة الصغيرة من الباخرة الكبيرة صعد رجال الملكة الى باخرة السلطان وحيوه بالسلام ورحبوا بقدومه • فتلقاهم السلطان بالعز والترحاب وشكر لهم ولجلالة الملكة كرمها وعنايتها به غاية العناية •

ثم طلب اليه رجال الدولة أن ينتقل الى الباخرة التى أعدتها له الدولة فأجاب طلبهم بلطف وشكران ، ثم نشروا رايته فى سارى الباخرة حذاء راية الدولة البريطانية ،وأخذوا يسيرون فى نهر التيمس حتى اذا قربوا من بارجة من بوارج الدولة البريطانية أطلقت المدافع سلاما لجلالة السلطان ، ثم لما مرت بجانب وليج مارشس أطلق الجنود ٢١ مدفعا من الحصن سلاما لسعادة السيد برغش •

ولما وصلت الباخرة الى مكان يدعى فيسكارد كانت هناك بارجة انكليزية فاصطف الجنود على ظهرها وسلموا على السلطان برفع السلاح • وكان مقدام الجنود القبطان بالمر يذكر مودة السلطان له وهو فى زنجبار لما كان قبطانا فى بارجة الدولة البريطانية المسماة برشن • فلما علم السلطان بوجوده أمر بتوقيف الباخرة وأخذ يخاطبه بمودة ولطف • فسر القبطان من ذلك غاية السرور وشكر لجلالة السلطان حسن مودته له ولطفه معه •

وبعد انقضاء التحيات مخرت السفينة حتى اذا مرت حذاء قلعة لندن أطلق الجنود ٢١ مدفعا سلاما لجلالته • وما زالت الباخرة تسير الهوينى

حتى بلغت لندن • ولا يخفى أن هذه العاصمة مبنية على ضفتى نهر التيمس وهو يمر بوسطها بتعاريج كثيرة ويقسمها الى شطرين • وعليه عشرة جسور ، منها ما بنى من حجارة ومنها ما بنى من حديد تسير عليه الناس والخيل • وجسور أخرى كثيرة تمر من فوقها ارتال سكك الحديد ومن تحتها السفن والبواخر ذهابا وايابا ، وعرض هذا النهر فى قلب المدينة يختلف من ٢٣٠ ذراعا الى نحو ٤٣٠ ذراعا ومعظم عرضه عند الجسر الحجرى العظيم المسمى « واترلو » •

فمرت باخرة السلطان أعزه الله أولا بجسر لندن وهو من أعظم جسورها • باشر بناءه المهندس جون رينى وأولاده سنة ١٨٢١ وانتهى منه سنة ١٨٣١ • وقد وضع فى أساسه المدافع التى اغتنمها الانكليز فى حرب بينينسولا • وله خمس قناطر من حجر هلالى الشكل واتساع القنطرة الوسطى نحو ٤٦ ذراعا وعلوها فوق الماء نحو ٩ أذرع ويبلغ طول الجسر نحو ٢٨٣ ذراعا • وبلغت نفقة بنائه نحو ٥٠ مليون من الفرنكات •

ثم مرت باخرة سعادة السيد برغش بجسر آخر صغير • ثم وصلت الى جسر آخر من حجر اسمه « ابلاكفرايرس » (معناه الرهبان السود • فكان بقربه دير يسكنه رهبان يلبسون ملابس سود فسمى الجسر باسم الرهبان السود) وهو جسر عظيم شاده المهندس روبرت ملنى سنة ١٧٦٠ وفرغ من بنائه سنة ١٧٦٩ • وله تسع قناطر وطوله نحو ٣٠٣ أذرع •

ثم وصلت الباخرة الى جسر « واترلو » الذى سبق ذكره • وهو من أجمل الجسور التى بنيت فى العالم كله • باشروا بناءه على هندسة السيد رالف دود فى ١١ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٨١١ وسموه بهذا الاسم تذكارا لانتصار الانكليز على نابوليون الأول فى الواقعة الشهيرة التى جرت بين الدوق ويلنكتن ونابوليون الأول بقرب مدينة واترلو •

والجسر المذكور مبنى على تسع قناطر هلالية الشكل عرض كل قنطرة نحو ٣٦ ذراعا وعلوها نحو ١٢ ذراعا وعرض سطح الجسر ٢٢ ذراعا وطوله نحو ٤٢٠ ذراعا واذا أضفنا اليه القناطر المبنية على شاطئيه خارج المـاء بملاصقته بلغ طوله نحو ٨٠٠ ذراعا • وبلغت نفقة بنائه نحو ٢٥ مليونا من الفرنكات •

ثم مرت السفينة تحت هذا الجسر وسارت حتى وصلت جسر جارين كروس • وهو جسر عظيم مؤسس على سبعة عواميد خمسة منها مصنوعة من حديد ومغروسة فى قرار النهر على عمق عظيم • وعلو القناطر عن مساواة الماء نحو ١٠ أذرع وكان قد رسم هندسة بنائه السيد برونل وكمل بناءه فى ١٨ نيسان (ابريل) سنة ١٨٤٠ • وهو جسر عريض تمر فى وسطه ارتال سكك الحديد ولا يسمح للخيل بالمرور من فوقه •

وأما البشر فمسموح لهم المرور به عن جانبيه • فسارت بارجة السلطان من تحتـــه حتى وصلت الى الجسر المسمى ويستمنستر • وهو جسر عظيم جديد البناء يشغل محل جسر قديم كان قد عنى بهندسته السـيد لابيلى السويزى بين سنة ١٧٣٨ و ١٧٥٠ أما الجسر الحاضر فقد عنى بهنـدسته المهندس باج • وهو قائم على دعائم من حديد مظفـورة من ٢٣٣ قضيبا من حديد ومغروسة على عمق ثمان أذرع فى أرض صماء تحت المـاء فى قرار النهر • ويبلغ عرض أكبر قناطره نحو ٧٠ ذراعا وكل قناطره مبنيـة على شكل هليلجى (بيضاوى) وكمل بناؤه سنة ١٨٦٢ عيسوية[١] وهو محـاذ دار الندوة الكبرى[٢] بلندن حيث يجتمع نواب الأمة وشرفاء المملكة لمعاطاة الأحكام ومصالح الأمة وهى الدار المعروفة باسم « برلمنت » •

---

(١) يقصد ميلادية .
(٢) أى البرلمان .

وسوف نطيل الشرح بوصفها فى بابها ونطبع رسمها إن شاء الله ، ولما وصلت باخرة سعادة السلطان الى هذا الجسر أمر القبطان بالقاء مرساها . وكان شعب لندن قد سبق وعرف بوصول سعادة السلطان فى الساعة المعينة . فاجتمع الناس أفواجا أفواجا الى الميناء ليشاهدوا أميرا من أول أمراء العرب قد أتى يريد زيارة بلادهم ، وكانوا قد فرشوا أرض القصر حيث مر السلطان بطنافس وبسط من جوخ أحمر ، واصطفت فرقة من الجنود الشرفية تحت امرة الاميرالاى فريمانتل والقائد برتي والملازم مانسفيلد فى سلام سعادة السلطان . وكانت فرقة أخرى من الجنود تعزف بآلات الموسيقى العسكرية تحت ادارة السيد فريد كودفراى .

وكان قوم من رجال الدولة قد قدموا الى الشاطىء لملاقاة جلالته وهم السيد الشريف بورك من أعضاء مجلس النواب وثانى كاتم أسرار وزارة الخارجية . والأمير كليفورد وسار بارتل فراير . وسار كنناوى عضو من أعضاء مجلس النواب . ولورد جون مانرس عضو من أعضاء مجلس النواب والقبطان الشريف اكرطن كاتم أسرار الوزارة البحرية . والسيد كليمنت هيل من ادارة وزارة الخارجية . وحضرة القس جرجس باجر الفقيه . وحضرة الدوكتور كريستى وغيرهم كثيرون من أعضاء مجلس الشورى ومجلس الأعيان [1] .

فلما رست باخرة السلطان صعد اليها السيد بورك وسار[2] بارتل فراير وغيرهم كثيرون وصافحوا جلالة السلطان ورحبوا بقدومه وبلغوه تحيات جلالة الملكة فقابلهم السيد بسرور وبشاشة وشكر لهم ما أبدوه نحوه من الاكرام والاعزاز ثم نهض السيد بورك المومأ اليه وقال لجلالة السلطان باللغة الانكليزية ما تعريبه « قد أمرني اللورد داربى

---

(١) أى مجلس اللوردات .

(٢) يقصد سير وهو لقب يمنح لمن يؤدى خدمة عظيمة للوطن الانجليزى

وزير الخارجية أن أبلغ سعادتك باسم جلالة الملكة التهنئة بوصولك الى بلادها سالما غانما • وتؤمل بان تسر سعادتك بزيارة المملكة البريطانية • فانها ترغب فى أن سعادتك تشاهد كل ما فى ملكها من النفيس والمليح والمفيد • ولهذا قد أصدرت أمرها الى رجال دولتها أن يعينوا رجالا من خيرة ملكها يحسنون التكلم باللغة العربية ليكونوا فى خدمة سعادتك مدة اقامتك فى هذه البلاد • وهؤلاء الرجال الأمناء هم الدكتور كيرث والقس جرجس باجر الفقيه والسيد كليمنت هيل • فكل ما اشتهته نفس سعادتك مُر حضرة الدكتور كيرك وكيل جلالة الملكة فيكون أمرك مطاعا على الرأس والعين »•

فلما ترجم الدكتور باجر هذا الكلام بالعربية لسعادة السلطان شكر للسيد بورك على مكارمه الأثيلة وقال بارك الله فى جلالة الملكة وأدام عزها بالمجد والاقبال •

وفيما كان السيد برغش ينطق بهذه العبارة ثارت عاصفة شديدة فوق المدينة وهطل مطر غزير كادت تطفح الازقة من فيض مياهه • ثم خرج السلطان من السفينة الى البر وكان السيد بورك وحضرة الفقيه باجر والسيد داوز عن شماله وكان حشمه يتبعونه حسب مقامهم حتى اذا وصلوا الى رأس الدرج الموصل الى جسر ويستمنستر ضج الشعب المزدحم فوق الجسر بأصوات السرور والفرح ، وكشفوا قلانسهم عن رؤوسهم حسب عوائدهم وسلموا على السلطان ورحبوا بقدومه •

وكانت الموسيقى تعزف بألحان الأمة البريطانية ، والجنود مصطفة فى سلامه فسار بحشمه حتى اذا وصلوا الى صحن دار الولاية كانت هناك عربات تجرها الخيول مهيأة لركوب السلطان وحشمه فركبوا وساروا الى المنزل الذى « أعدته ــ الدولة » لسعادة السلطان •

وكان هذا منزلا عظيما رحبا جدا مشيدا على قارعة طريق رحب وبازائه

أكبر بستان بلندن يعرف بهيد بارك ، واسم المنزل اللكزاندار هوتل . وهو من أشهر منازل لندن وأعظمها جمالا وزينة واتساعا وموقعه فى قلب المدينة التى يسكنها أعيان الأمة والأمراء والشرفاء .

ولما وصل السلطان الى هذا المنزل خرج الخدم صفوفا الى لقائه وهم يمتثلون أمره ويقومون بخدمته حتى دخل الى القاعة الكبرى واستراح من تعب السفر فى اليوم الحادى عشر من يونيو سنة ١٨٧٥ وفى اليوم الثانى زاره اللورد داربى وسلم عليه ولبث يتفاوض مع السلطان زمانا طويلاً فى أمور السياسة .

الباب الثامن

فيما نشرته جرائد لندن عن سعادة السيد برغش

قالت جريدة التيمس . « من جملة سلاطين المشرق وامرائهم الذين شرفوا بلادنا بحضورهم هو السيد برغش بن سعيد سلطان زنجبار . فهو رجل ذو هيبة ووقار تلوح على هيئته سمات البشاشة واللطف ، وقد سرت الأمة بمشاهدة هذا الحاكم الافريقى الذى هو من أعز ضيوفها وأجلهم مقاما ، وهو أول أمير عربى خاض البحار وأتى يريد زيارة جزيرتنا هذه . فهو مستحق اكرامنا لأجل صفاته الحميدة ومآثره الجليلة ، ولأجل غايات سياسية لابد لأمة الانكليز من مراعاتها فهذا الأمير الافريقى متصف بمزايا وخلال حميدة ، وهو من نسل عربى شريف قديم النسب والحسب ، وقد قصد بلادنا يريد الارتباط بودنا . فمن الواجب علينا أن نمد اليه يمين الوداد فانه امام همام قد **قام حق القيام بكل ما وعد به من ابطال تجارة الرقيق وتحمل خسائر باهظة وعانى مشقات شديدة وعرض نفسه وملكه لأخطار عظيمة من جراء ابطال هذه التجارة الذميمة كما شهد له بذلك سر بارتل فراير .**

فلو كان مقام أمير من الأمراء موقوفا على سعة أملاكه وامتداد سلطته الى مسافة بعيدة من الأميال الجغرافية كان مقام السيد برغش مقام السلطان العثمانى أو مقام شاه ايران وخديو مصر • فان ملك السلطان برغش يمتد الى عرض ١٢ درجة من العرض الجغرافى وذلك عبارة عن ٦٦٠ ميــلا • وأما بالطول الجغرافى فلا يعرف حد لسلطته • ومنذ ٤٠ سنة قد انفتحت أبواب تجارة واسعة فى أملاكه الأفريقية الشرقية وفاض الثراء فى أراضيه ، وعن قريب سيضحى ملكه من أعظــم ممالك الشرق لأنه الطريق الوحيــد لمرور القوافل للتجارة مع أواسط قارة أفريقية العظيمة •

أما باعتبار صفاته الطبيعية الخارجة فهو رجل مهيب قد بلــغ سن الأربعين تلوح عليه ســمات الرقة والكرم العربى ، وهو ذو عقــل حاذق يحب مراعاة كل ما يشاهد ويدقق فى حقائقه بعين البحث والادراك • وله اطلاع واف فى العلوم العربية وقد ارتقى الى درجات التمدن وخلع عنــه رداء التعصب وطرق سبل العدالة والانصاف ، وقد أضحت الأمة البريطانية مدينة له باعطائه اياها ما اقترحته عليه • فوجب عليها أن تقوم باكرامه حق القيام ، وتمد اليه يد الوداد والمساعدة ليــكمل ما باشر به من الاصــلاح والتمدن فى بلاده » •

وقد نشرت جريدة الديلى تلغراف وغيرها مقالات طويلة فى مــدح الســيد برغش ووصف أملاكه وعظم أهميتها وسعيها على قدم النجاح • وقد استوفى المؤلفون البــارعون الكلام عن هــذه المملكة السعيدة منهم القبطان برطن فى كتابه عن زنجبار وحضرة الدكتور باجــر فى تاريخه عن سليل بن رزيق والسيد بالكراف فى كتابه عن بلاد العربية الشرقية وســار بارتل فراير فى مخابراته مع الدولة البريطانية المجموعة الى كتاب الدولة المسمى « بالأزرق » • وغيرهم من العلماء الذين ساحوا فى البلاد الافريقية والعربية وقد لخصنا عن تواليفهم المطولة ما يأتى :

أفريقية قارة واسعة رحبة قد اشتهرت بالحضارة والعمار منذ عهد الرومانيين • غير أنها لبثت زمانا مديدا مجهولة عند الأوروبيين ، وكانوا يزعمون انها بلاد قفرة يسكنها قوم همج من الزنوج الخشنى الطباع • فلما تيسر للبرتغاليين أن يسيحوا حول « رأس الرجاء الصالح » اكتشفوا تلك البلاد ورأوا أهلها على جانب من الحضارة والتمدن خلافا للسكان على الشواطئ الغربية • فان العرب الذين حافظوا على العلوم من عهد قديم وسلموها الى الأوروبيين كانوا قد حلوا فى أفريقية الشرقية وشادوا فيها حصون العلوم ووسعوا نطاق الحضارة فى بلادهم •

ففى القرن السابع من التاريخ المسيحى أقلع خمسون اعرابيا برفقة بعض من الفرس يريدون الاكتشاف على سواحل افريقية الشرقية فعثروا على ميلند وممباسا وزنجبار وأقاموا فيها وبدعوا تجارة واسعة مع الهند وبلاد فارس بالعاج والذهب • ثم استظهر البورتكيز[1] على العرب وأخذوا منهم هذه البلاد الغنية • أما عرب عمان فكانوا أشد بأسا ممن يجاورهم وكانوا أول من فتح باب التجارة والحضارة فى تلك الجهات • وكانت مدينة مسقط عاصمة ملكهم فى البلاد العربية • ثم استولى البوكرك على مسقط سنة ١٥٠٨ ميلاديه ولبثت فى يد البورتكيز الى سنة ١٦٤٨ • ثم وقع النزاع على عمان بين البورتكيز وأهل هولندا والعجم فدامت الحرب بينهم سجالا ولم يتم لأحد منهم الاستيلاء على عمان زمانا طويلا •

قال المؤرخ بالكراف ما ترجمته « ولما ثقل نير هؤلاء الأجانب على حكومة عمان استحمست أهاليها وخلعت نير جورهم ونهضت من كبوتها وشبت كنار الغضا من تحت رمادها ونهضت لمحاربة هؤلاء الأجانب

---

(١) أى انتصر البرتغاليون .

واستظهرت عليهم وجعلت نفس خسـائرها رأس مال لانشاء تجارة واسعة صارت سبب ثرائها المستمر •

ومن المحقق أن شعب عمان تمكن من طرد الأجانب من بلاده وحمـل عـلى الأجـانب حمـلة الأبطـال وغـزا منهم ما كانوا قـد غزوه من زمـان مديد •

ففى سنة ١٧٤١ قام أحمد بن سعيد حاكم صحار وحارب العجم الذين أرادوا غزو بلاده وكسرهم وشتت شملهم • فسرت الأمة العمانية بشهامته وجراءته وانتخبه القوم اماما عليهم وواليا على عمان •

ثم قام بعده ابن ابنه سعيد بن سلطان واستوى على عرش الملك سنة ١٨٠٣ وله من العمر ١٤ سنة وملك على أراض واسعة فى أفريقية بأيدى جيوشه البرية والبحرية وسفنه التجارية وجمـع بين التجارة والمحـاربة معا ، وحذا حذو الانكليز فى سياسته • فكانت سفنه تسير الى أقصى البلاد بحجة التجارة واذا تجاسر أحد على مقاومتها والتعرض لتجارها أثاروا عليه حربا واستظهروا عليـه وغزوا بلاده وملكوا عليهـا • وكان الامام سعيد ابن سلطان المومأ اليه يود الانكليز كل المودة ويؤثر أن يحذو حذوهم فى دقائق السياسة وطرائق التجـارة ، ولهذا تحـالف معهم وحارب أعداءه القاطنين فى سواحل خليج العجم •

ولما اشتهر بالبأس والفراسـة والشجاعة أهداه والى ولاة الهنـد سيفا ثمينا سنة ١٨٢١ • قال القبطان برطن فى كتابه عن زنجبار ما ترجمته « قد اتصف الامـام سعيد بن سلطان بصفات حميدة رفعت مقامه بين الأمراء المتمدنين • فانه قد تسـاهل بحسن مآثره السنية مع دول أوروبا وسمح للتجار الأوروبيين والهنود أن يقيموا فى بلاده ويوسعوا فيهـا نطاق التجارة والحضارة والفلاح وسمح لعمارة انكليزية مؤلفة من ثلاث فرقيطات

وأربع كورفيتات وتسع سفن و ٢٠ سفينة تجارية أن تقيم وتسير فى البحور التابعة لملكه » .

« **ثم اكتسب حب الانكليز باتفاقه مع دولتهم فى عهد كبير وزرائهم لورد بالمرستن على ابطال تجارة الرقيق من سواحل افريقية الشرقية وقد تحقق عندنا أن هذا الأمير تكبد خسائر عظيمة فى مالية ملكه من جراء ابطال تجارة الرقيق** . فكان دخل المملكة نحـــو ألف ريال سنويا من المكوس **التى كانت تدفع على الرقيق عند مرورهم ببلاده** » .

« **ثم رفض** قبول ألفى ليرة انكليزية (باون) **قدمتها له الدولة البريطانية** سنة ١٨٢٢ **عن يد القبطان مورسبى تعويضا عما حل بماليته من الخلل لأجل ابطال تجارة الرقيق** » . ثم أثار الفرس حربا على عمان واستظهروا على جيوش الامام سعيد بن سلطان واستولوا على أملاكه فى بلاد فارس ولكن العمانيين أعادوا الكرة وحمـــلوا على الفرس واسترجعوا منهم مدينة بندر عباس سنة ١٨٥٤ .

ثم تعرض الانكليز لوالى عمان وأجبروه على عقد معاهدة سلمية مع شاه العجم سنة ١٨٥٦ . فشق هذا الأمر على السيد سعيد بن سلطان ومات كمدا وهو شيخ طاعن بالسن . فانه قال رحمه الله « حاببت الانكليز وراعيت ذمامهم ولكنهم خانوا عهدى وحرمونى ثمرة انتصارى » ثم مات هذا البطل الهمام عن ١٥ ولدا .

وجرى بينهم نزاع طويل على ملك أبيهم ، ولمـــا قصد الانكليز حسم الدعوى بينهم سأل سار بارتل فرير السيد برغش السلطان الحالى عن شرائع الخلافة فى مملكة جدوده حتى يستنسن[1] بها فى فصل الدعوى . فقال السيد برغش أعزه الله فى جوابه « ان سألت أيها السار (الســـير) الأكرم

---

(١) يقصد أن يستعين بها فى فصل الدعوى .

عن سنة الخلافة فينا فما عندنا سنة نحتكم عندها سوى سنة سيفنا فمن كان منا أطول سيفا كان أولى بالخلافة » .

وبناء على ذلك خلف بكر السيد سعيد اباه فى الملك وحكم فى مسقط . أما ماجد ابنه الرابع فملك على زنجبار . ثم نهض تركى الابن الثالث وادعى فى مسقط أنه الأولى بالملك ثم قام السيد برغش الابن الخامس وقال إنه الأحق بالملك على زنجبار . فنهض لمقاومته الكولونل ريكبى سفير دولة بريطانية الذى كان مقيما بزنجبار وقتئذ وأرسله الى ممباى[1] .

ثم دخل طمع الملك قلب حاكمى مسقط وزنجبار وقاما لمحاربة بعضهما يريد كل منهما الاستئثار بالملك على مسقاط[2] وزنجبار . فاعترضهما لورد كانينك والى ولاة الهند وأقام سار ويليم كوغلان والفقيه جرجس باجر لفصل الدعوى بين هذين الأميرين . فأبرما الحكم بفصل حكومة **مسقط** من حكومة زنجبار وفرضا على حاكم زنجبار السيد ماجد أن يدفع كل سنة مبلغا من النقود الى أخيه الأكبر حاكم **مسقط** على سبيل الجزية . وفى أثناء ذلك لبث السيد برغش مقيما فى الهند بحاضرة ممباى حتى أكد للانكليز بشهامته المعهودة انه لا يتعرض لأخيه ماجد ولا ينازعه فى الملك فسمحوا له بالاياب الى أوطانه فرجع بالسلامة وكان عند وعده فلم يتعرض لأخيه بسوء .

ولما توفى أخوه ماجد سنة ١٨٧٠ خلفه فى ملك زنجبار واستوى على تخت السلطنة بلا معارضة . أما ملكه فيمتد الى مسافة ٦٦٠ ميلا من طونجى على حدود أملاك البورتكيز عند رأس دلغادمر جنوبا الى وارشيق .

---

(١) يقصد مدينة بومباى فى الهند .
(٢) درج المؤلف على كتابة مسقط كما ترى فى المتن .

وعدا ذلك قد اتسع الآن نطاق ولايته الى نحـــو ٣٠٠ ميل فى البر بأفريقية ورايته تخفق فى انيايمبى ببلاد السودان وأملاكه تتاخم أملاك خديو مصر • ولسعادته جنود من العرب منتظمة ومدربة فى الفنون الحربية بعناية قواد من الانكليز وفرقة من الجنود المقدسة فى فن الموسيقى العسكرية باعتناء أساتذة ماهرين من أهل البورتكيز •

وشعب المملكة مكون من خليط الهنود والعرب والزنوج • وأحسن أراض فى ملكه جزيرة زنجبار وهى جيدة التربة كثيرة الخصب يجللها خضار دائم السنة بطولها وتخترقها أنهر ذات مياه غزيرة وتهطل فيها الأمطـــار أربعة أضعاف ما يهطل فى بريطانيا • ومن مآثر السيد برغش الحسنة التى زادت فى غنى المملكة ورفاهية الرعية هو انه علم شعبه زرع القرنفل بعد أن كان قد تغافل الناس عنه ، ومن محاصيل جزيرة زنجبار الجوز الهندى والأرز وقصب السكر والورد والذرة والمانكو[1] وكل أصناف الأثمار بكثرة • وجميع طرقات الجزيرة مغطاة بأشجار البورتقال فيمر الانسان بها وروايح الأزهار عابقة به من كل ناحية •

وفى أوقات هبوب ريح المانسون من شمالى شرقى الجزيرة يقصدها التجار من الهند والبلاد العربية وجزيرة ماداكسكار[2] وخليج العجم • وقد اضحت زنجبار أعظم بندر فى الدنيا لتجارة العاج والبخور الجاوى وهو صمغ عطر جدا •

---

(١) اى فاكهة المانجو .
(٢) يقصد مدينة مدغشقر .

البـــاب التاســع

فى حضور السيد برغش سباق خيل الرهان فى اسكوت

قد اعتاد الانكليز على اتخاذ بعض أيام من أيام السنة يقيمون فيها مشهدا لسباق خيل الرهان • فاتفق قيام مشهد بقرية اسكوت على بعد ٨ أميال من لندن بعد وصول سعادة السلطان برغش الى لندن بيومين •

فأرسل لورد داربى[١] بالنيابة عن الدولة البريطانية يستدعى سعادة السيد برغش الى حضور ذلك المشهد لعلمه بأن سعادة السيد برغش يسر بمشاهدة الخيل الأصيلة كونه عربيا قحا قد نشأ فى بلاد العرب السعيدة التى هى بلاد الخيل الأصيلة •

ويقر الانكليز أنفسهم بأن الخيل العربية تفوق فى أصالتها الخيـــل الانكليزية فى نحافتها وسرعة عدوها • وقد أطنب سار فرنسيس دويل فى مدح خيـــل العرب الأصيلة فقـــال فى قصيد نظمه سنة ١٨٢٧ عيسوية ما ترجمته ــ يفضل الاعرابى جواده على امرأته ويعزه كحياته •

فاقتبل السيد برغش دعوة لورد داربى وخرج بحشمه الى المشهد المذكور للفرجة • وكانت الطرقات غاصة بالناس والخيل والعربات • وعلى جانبى الطريق منازل عامرة وقصور باذخة وبساتين مزهرة • فلما وصل السيد برغش الى محل السباق واستوى على مكان كانت الدولة أعدته له

---

(٣) كان اهتمام اللورد دربى بهذا السباق امرا مشهورا حتى سمى السباق الى اليوم باسمه (المراجـــع) •

ولحشمه رأى تلك البقعة من الأرض غاصة بثلاثين ألف من الرجال والنساء قد اجتمعوا للفرجة من أماكن مختلفة •

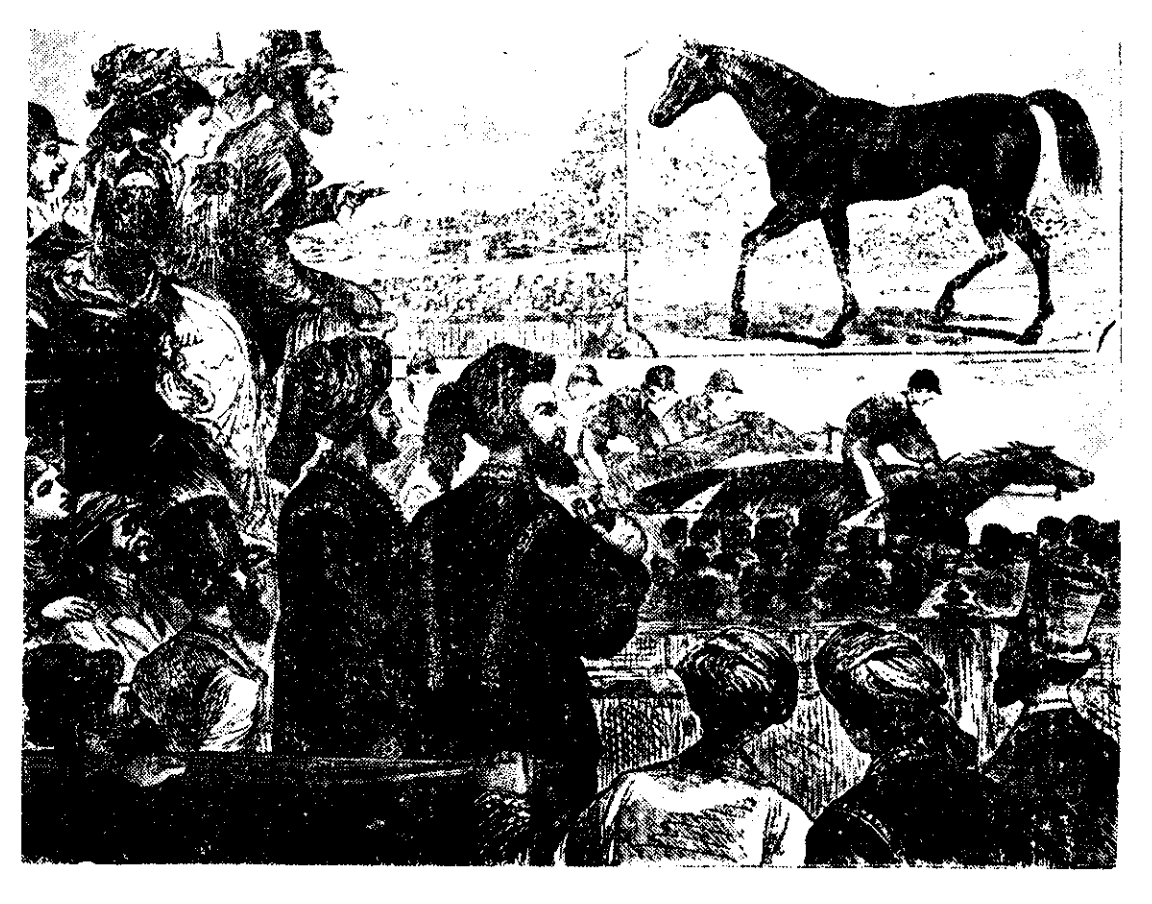
ومن عوائد أصحاب خيل الرهان انهم يختارون رجالا خفيفى البدن ويفرضون عليهم الأكل والشرب بقانون وتقتير الى مدة معلومة حتى ينحف جسمهم ويجف لحمهم ويخف ثقلهم ثم يجعلونهم يركبون خيل الرهان ويحثونها على الجرى يوم السبق •

ولما استوى السباق وأطلق العنان للخيل اندفعت اندفاع البرق من كبد السحاب وطارت طير السهام من القوس • وكان فيها جواد اسمه دونكاستر يعده الانكليز من أجود خيل بلادهم وقد فاز على باقى خيل الرهان وبلغ الغرض قبل الجميع ونال صاحبه شرف الرهان •

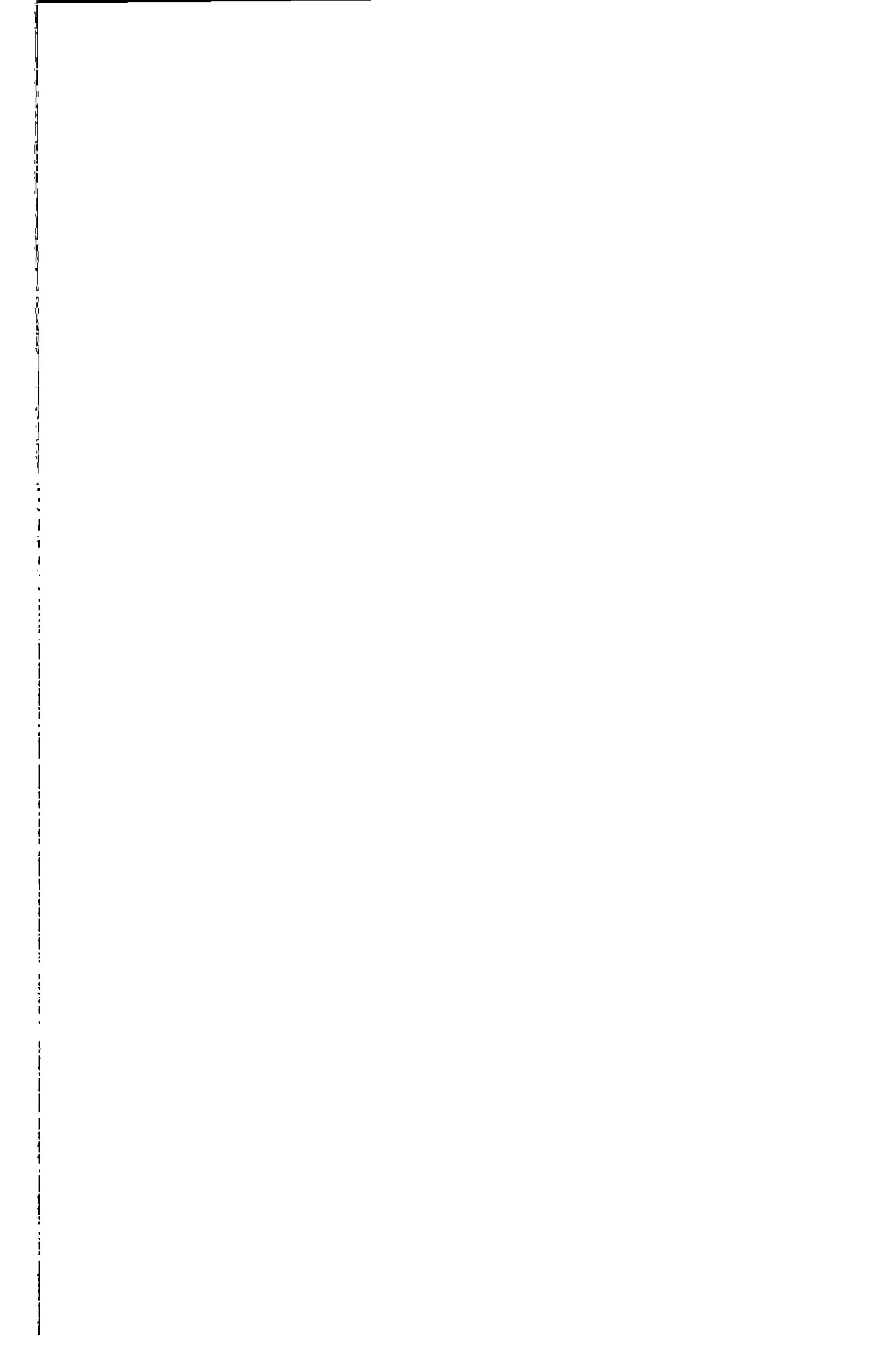
فلما رأى السلطان ما بدا من ذلك الجواد الأصيل طفح السرور على قلبه وقال « بارك الله فى هذا الجواد فانه من جياد الخيل ويضارع أحسن الجياد العربية » • قيل ان ذلك الجواد عزيز جدا على صاحبه قد اشتراه بعشرة آلاف ليرة انكليزية وقد طبعنا رسم هذا الجواد ومشهد السبق كما حضره السيد برغش أعزه الله •

ومن عوائد الانكليز أنه اذا استوى السبق وانتصب جعلوا يتراهنون مع بعضهم على مبالغ وافرة من الليرات • فمنهم من يعتقد أن الجواد الفلانى يحوز قصب السبق ، ومنهم من يعتقد عكس ذلك فيقع الرهان بينهم ويبلغ قدره تارة نحو ألوف من الليرات •

وكذلك من ديدن الانكليز انهم يتفاخرون فى جودة خيلهم وسرعة جريها ، وكلما زار بلادهم ملك أو سلطان أقاموا له مشهدا لسبق خيل الرهان كما فعلوا لسعادة السلطان برغش • ولمـا أتى قيصر الروسية بلاد الانكليز سنة ١٨٤٤ هيأوا له كذلك مشهد السباق اكراما له •



(هذا رسم الجواد دونكاستر ومشهد السباق كما حضره السيد برغش)



وكان السباق عند العرب من الأمور المشهورة • فكانوا يعقدون حلبة ويختارون عشرة رؤوس من جياد الخيل يسمونها خيل السباق وكان اسم أولها « السابق » المعروف بالمتجلى أيضا • ثم المصلى ثم المسلى ثم الثالى ثم المرتاح ثم العاطف ثم الخطى ثم المؤمل ثم اللطيم ثم السكيت • وكانوا يضعون لها جائزة يتراهنون عليها يحوزها صاحب الجواد المجلى •

البـــاب العاشر

فى زيارة أصحاب الجرائد لسعادة السلطان

قال مكاتب الديلى تلغراف : وددت لو أن تمكنى الفرصة من المثول بحضرة السيد برغش لأتشرف بمشاهدته واستقصى من سعادته عن أمور كثيرة فى أحوال افريقية بحسب كونى عضوا من أعضاء الجمعية الجغرافية الملوكية ، فاستعنت على نوال مرغوبى بواسطة صديقى المخاص ســـار بارتل فرير وصديقه حضرة القس باجر الفقيه وكلاهما من أخص محبى سعادة السلطان • فقصدت قصر سعادته نهار الجمعة ١١ جون (حزيران) فقابلنى الخدم بغاية العز والاكرام وأدخلونى قاعة فسيحة مزينة بأثاث فاخر ملوكى فجلست أنتظر تشريف سعادة السلطان •

وبعد بضع دقائق واذا بخادم فتح باب القاعة ودخل سعادته بهيبة ووقار فنهض كل من كان فى القاعة اجلالا لمقام السلطان فاستقبلتنا سعادته بلطف وبشاشة لا مزيد عليهما ثم جلس على كرسى كان منصوبا له وأمرنا بالجلوس فامتثلنا لأمره وجلسنا بين يديه • فرفعت نظرى الى سعادته فرأيت سمات الهيبة والوقار مرسومة فى جبهته الغراء وعينيه السوادوين تلمعان لميع كوكب الصبح ، والابتسام يلوح على شفتيه ، فرحب بنا بكل أنس وبشاشة حسب دأبه المعهود •

ثم استأذنت من سـعادته بالتـكلم بين يديه فأومأ لى أن أقول ما بدا لى ، فقلت كيف رأيت أيها السلطان هذه البلاد وهل طابت نفس سعادتك بمناظر مدينة لندن ؟ .

قال وهو يتبسم بأعذب ابتسام ، وأى نفس لا تطيب بحسن مناظر هذه الحاضرة الجميلة وبحدائقها النضرة وبقصورها الباذخة وشوارعها المتسعة وخصال أهلها ولطف أخلاقهم المأنوسة ؟ فانى قد اضحيت ممنونا غاية الامتنان للأمة الانكليزية لأجل ما أبدته نحوى من العز والاكرام واللطف . بارك الله فيها وأيد دولتها طول الزمان .

فقلت لهان ما قدمته الأمة والدولة البريطانية فى حق سعادتك من الاكرام والعز هو بعض من واجباتها وفروضها ومما هى مدينة به لسعادتك لأجل جهادك معها فى ابطال تجارة الرقيق من افريقية . وان جرائد لندن كلها قد حثت الدولة والأمة البريطانية على تقديم الاكرام الواجب لسعادة أمير جليل وسيد نبيل قد زادها شرفا بزيارة بلادها .

فقال لى السلطان فى جوابه بارك الله فى بلادكم السـعيدة وعمَّـر دياركم الفريدة فانى رأيت فى هذه الحاضرة العظيمة منازل كبيرة جدا وجميلة البناء كأنها قصور ملوك أعزاء ، وقد قيل لى إنها منازل قد أعدها أصحاب الخـير منها للفقراء والبائسين ، ومنهـا مستشفيات للمرضى والمقعدين ، فطابت بذلك نفسى واتسع صدرى وقلت « هذه حسنة كبيرة عند الله » .

ثم لمـا جلت شوارع هذه المدينة العظيمة وطفت ضواحيها الجميلة ورأيت قصورها الباذخة ودرت بين جنائنها وحدائقها النضرة تعجبت من كبرها واتساعها وقلت حقا هذه مدينة من أعظم مدن الدنيا كلها كبرا وأكثرها سكانا وأحسنها خلقا وأجملها منظرا » .

قلت وهل تحسب سعادتك ان الانكليز أجمل الناس خلقا وأحسنهم منظــرا ؟ •

قال الناس طرا من نسل حضرة أبينا آدم عليه السلام وانما اختلاف الأراضى التى سكنها البشر واختلاف المعيشة والاقاليم قد أوجبت الاختلاف فى هيئاتهم وأخلاقهم وهذا أمر الله يجريه فى خلقه وقد قدر على كل خليقة أمرا ولابد من تنفيذه •

قلت أصبت أيها السلطان بحسن رأيك وعسى تصبح بلادك يوما من الأيام مثل لندن وأحسن منها وقولى هذا لا يخامره اشتباه • فان بلادك السعيدة لا يؤذيها ما يؤذى لندن من كثافة الضباب وسواد الدخان الحالك ، فتبسم السيد وقال ان شاء الله الحق سبحانه وتعالى يستجيب دعاءك •

ثم عرضت بين يدى سعادة السيد برغش بعض أسئلة عن مســتر استانلى الأميريكانى السايح المشهور وعن رئيس النخاسين المدعو ميرامبو الذى كان يحاول منع ابطال تجارة الرقيق فى افريقية فاستحسن الســيد سؤالى وقال قد بذلت وسعى بطيبة الخاطر فى مساعدة مستر استانلى وجميع الانكليز الذين ساحوا فى افريقية وأود لو أن يرجع مستر استانلى مارا ببلادى حتى كنت أقوم بمساعدته حق المساعدة ولكنه لا يرجع عن طريق بلادى وأومل أن يكون سعيه مقرونا بالنجاح •

أما رئيس النخاسين المدعو ميرامبو فقد انكسرت شوكته الآن بهمة ملك أوكندا[1] وقد أرسل سفيرا الى زنجبار يطلب العفو عما فرط منه فى الماضى ويعد بصرف همته الى ابطال تجارة الرقيق ما استطاع •

فقلت ليس بخاف على الدولة البريطانية ما قاسيته سعادتك من العناء والاخطار فى القضاء على تجارة الرقيق وادخال الاصلاح فى بلادك السعيدة ولهذا قد أضحت الدولة ممنونة لسعادتك غاية الامتنان •

---

(١) اى ملك اوغنده .

قالَ السيد فى جوابه • انى قاسيت مشقات باهظة وعرضت نفسى لأخطار مهولة بادخال الاصلاح الأوروبى فى قوم لم يعتادوا عليه • وهذا يجــرى فى كل أمة ســواء كانت متمدنة تمام التمدن أو غير متمدنة • فان تغيير عوائد القوم من أصعب الأمور التى يجريها رجال الاصلاح • ولابد لكل مصلح من أن يتذرع بالجرأة ويقتحم الأخطار ومن لا يقتحم الأهوال لا ينل الآمال •

قال المكاتب المذكور فتعجبت من حكمة أقوال السيد برغش وقلت إن من زينته هذه الحكمة جدير بأن يســتولى على رقاب العبــاد ويصــلح البــلاد •

قال السلطان فى جوابه حبذا قولك ولكن دون ذلك أهوال ، والأقوال ليست كالأفعال ومجرد الكلام لا يقوم باعباء الأمور المهمة • فانتم يا معشر الانكليز تكتفون بالثناء على لأجــل ما قاسيته من الأخطــار وخسرته من الأموال بسبب ابطال تجارة الرقيق وأنا اعانى المشقات واقتحم الاخطار وأخسر الأموال •

ولكن تقــول العرب من يكتفى بالشفقة على المســكين ليس كمن يمد اليه يد المساعدة فان بين الحالتين بونا عظيما • قلت صدقت أيهــا السيد الكريم • ونحن معشر الانكليز ندرك حق الادراك عظم هذه المخاطر كلها ولابد لنا من بذل المال والاقتدار فى سبيل الخير وادخــال الفلاح فى بلاد أفريقية ان شاء الله • فقال السلطان فى ختام كلامه بارك الله فيكم وعظم أجركم فى الدنيا والآخرة •

البـــاب الحادى عشر
فى زيارة حاكم لندن ولورد بيكنسفيلد وغيرهم
لسـعادة السـلطان

كان نهار السبت ١٤ (جون) حزيران نهارا شديد المطر فاضطر السيد برغش الى ملازمة قصره • وفى الساعة الرابعة بعد الظهر قدم حاكم لندن الى قصر سعادة السلطان يريد زيارته فقابله بالترحاب والبشاشة ولبثا يتفاوضان ساعة زمانية ثم انصرف اللورد حاكم لندن مسرورا وشاكرا من لطف سعادة السلطان •

ثم بعد ذلك بنصف ساعة قدم لورد بيكنسفيلد أيضـا يريد زيارة السلطان وكان مصحوبا بكاتم سره الخصوصى مستر مونتاكوكوررى • فقابلهما السيد برغش بكل سرور وبشاشة • ولمـا كانت هذه الزيارة من كبير وزراء الدولة البريطانية زيارة سلام رسمى فلم يلبث لورد بيكنسفيلد زمانا طويلا لدى السلطان •

وبعد انصرافه قدم لزيارة السلطان لورد بوشام خولى دائرة الملكة • ثم الأمير اسكندر أحمد خان باريكزى الأفغانى • والكولونل لويس بللى وسار بورروس والدكتور لورتنر ناظر المدرسة العالية فى لاهور بالهنـد وغيرهم كثيرون من أصحاب المناصب العالية •

الباب الثانى عشر

فى زيارة السلطان للبرنس أف ولس ولى العهد

قصد السيد برغش زيارة ولى عهد الدولة البريطانية فى ١٥ جون (يونيو) فى موكب حافل • فاستقبله ولى العهد بلطف وبشاشة لا مزيد عليهما • فسر السلطان غاية السرور وقال الى بعض من محبيه الثقاة • لما التقيت بولى العهد فى مدخل الدار رأيت لوايح السرور والبشاشة تلوح على وجهه الأغر فعلمت أنه يقابلنى ليس مقابلة رسمية بوجه عبوس كعادة رجال السياسة بل مقابلة ودية وقلبية •

ولما أحضر البرنس ولى العهد حضرة الأميرة قرينته المصونة وحضرة أخته الكريمة الأميرة أليس وزوجها الشريف ليسلموا على غدق السرور على بقلبى بمشاهدتهم وبما رأيته منهم من اللطف والبشاشة • وازددت فرحا وسرورا لما سألنى ولى العهد ان كنت أحب أن أرى أنجاله المحروسين فقلت حبذا هذا فانه تمام المرغوب •

فظننت أن ولى العهد يريد أن يحضر الى واحدا من أنجاله • ولكن أخذ الفرح منى كل مأخذ لما رأيت جميع أنجال الأمير واقفين أمامى كحور الجنان فى حشمة وكمال لا مزيد عليهما • ولا أقدر أعبر عن شعائر فؤادى لما رأيت هؤلاء الأمراء الحديثى السن يقبلون والدهم واحدا بعد واحد بحنو غريب ويعانقونه معانقة حلوة •

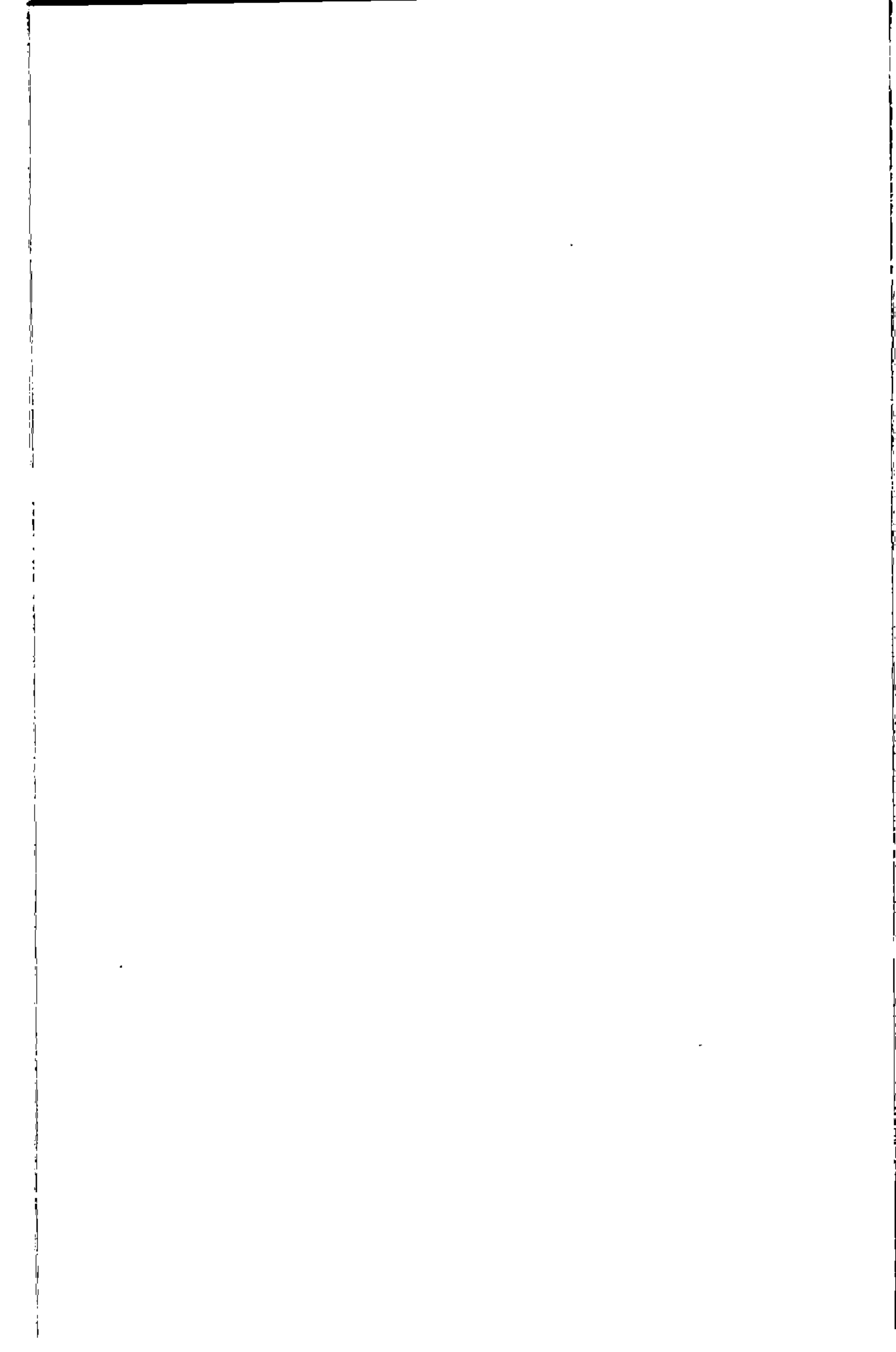
وكان ولى العهد يمد ذراعيه الأبوية الى أصغرهم ويرفعه عن الأرض ويقربه الى فمه ليطبع على شفتيه العذبتين قبلة الحب الأبوى • فتحركت حينئذ شعائر[1] الحنو فى صميم فؤادى وكادت الدموع تطفح من عينى

---

(١) المقصود « مشاعر » .



(صورة البرنس أف ويلز وأسرته)



حنوا • فقلت فى قلبى اللهم بارك هذه العائلة السعيدة واحفظ بيمينك العزيزة هؤلاء الأنجال المحروسين •

وتضاعف سرورى لما جلس هؤلاء الحور الى جانبى واحدا بعد الآخر بلطف وأنس وثقة تعهد فى الأطفال الأبرياء • ولم يستغربوا منظر رجل اعرابى مكتسى بملابس عربية لم يشاهدوها عمرهم بطوله قبل ذلك الوقت • وكانت الحشمة والكمال قد ضاعفت محاسنهم وزينت أشخاصهم •

وبعد أن تمليت من مشاهدتهم سألنى ولى العهد ما الذى سرنى بلندن أكثر • قلت فى جوابى له قد سررت غاية السرور بكل ما رأيته فى مملكة جلالة الملكة ولكن منظر أنجالك الأمراء المحروسين قد زادنى سروراً لم أشعر به إبان عمرى بطوله • فتبسم ولى العهد تبسما حلوا وقال هذا من فرط لطفك وحبك أيها السيد الكريم قلت كلا أيها الأمير وانما قولى هذا قول جد وقد انطبعت فى مرآة عقلى صورة ما رأيته من منزلك العامر من السعادة ولطف أنجالك المحروسين ولاتزول هذه الصورة المحبوبة من عقلى •

ثم قال : ولما رأيت بعضا من أنجالك مرتدين بملابس على زى ملابس البحرية خطر ببالى ان مجد الدولة البريطانية وعزها وفخرها قائم فى حبها للقوة الجندية البحرية حتى جعلت أنجال ملوكها يتوشحون بملابس البحريين • والآن انا ألتمس من الحق سبحانه وتعالى أن يؤيد هذه الدولة ويطيل عمر جلالة الملكة والدتك الفخيمة ويحفظك عزا لأنجالك هؤلاء المحبوبين ويضاعف فرحك بهم ويجعلهم فخرا لك وللدولة البريطانية • وبعد أن لبث سعادة السيد يخاطب ولى العهد زمانا نهض واسترخص منه بالانصراف • فتوادعا وتصافحا ثم خرج السيد برغش بحشمه وركبوا مركبتهم ورجعوا الى منزلهم فى كنف الرحمن •

الباب الثالث عشر

فى زيارة سعادة السلطان لبستان الحيوانات

بستان الحيوانات بلندن حديقة كبيرة قد جمعوا فيها من كل أقطار الدنيا جميع أجناس الحيوانات البرية والبحرية والطيور والهوام والحشرات والحيات العظيمة وليس فى باريس ولا فى العالم كله بستان يحتوى على كل أجناس الحيوانات مثل هذا البستان .

وليس هذا البستان من مشروعات الدولة البريطانية . بل تشكلت شركة بلندن سنة ١٨٢٦ بمبلغ وافر من رأسمال وباشر أعضاؤها بصرف المال بسخاء جزيل واستأجروا رجالا وجعلوا لهم رواتب وافرة وأرسلوهم الى جميع أقطار الدنيا حتى يجلبوا منها كل نوع من الحيوان والطير والسمك الغير معهود فى أوروبا .

وأنفقوا فى بادىء الأمر نحو ٥٠٠٠٠٠ فرنك حتى جمعوا نحو ١٥٠٠ حيوان من أجناس وأنواع مختلفة من أعظم الأفيال والحيات والسباع والنمور والدببة الى أصغر الحشرات . وقد بنوا لكل حيوان مكانا على معزل عن غيره وأقاموا لها خداما يعتنون فى تقديم القوت لها وتنظيفها والمحافظة عليها .

ولما كان هذا البستان من المباهج المشهورة بلندن صممت الدولة البريطانية على أن تعرض على سعادة السلطان أن يصرف بضع ساعات فى الفرجة على هذه الحيوانات الغريبة الأجناس فحضر رجال الدولة اليه نهار الخميس ١٧ جون (حزيران) أى يونيو والتمسوا منه أن يشرف ذلك البستان بزيارته اياه ، فسر بطلبهم وركب فى معيتهم وذهبوا الى البستان .

فلما دخلوه أخذوا يفرجونه على الحيوانات بأنواعها متنقلين من محل الى آخــر •

فان أصحاب هذا البستان قد بنوا بيوتا من حجر وقرميد وخشب لكل نوع من أنواع الوحوش الضارية كالسباع والنمورة والضباع والخيل والبغال والحمير والغزلان والأفيال وخنازير بحر النيل وســباع البحــر والظرافة والدببة والذئاب والأرانب والثعالب والقنافد والتماسيح ووحيد القرن والقندس (كلب الماء) والثعابين والحيات والأفاعى والنسور والصقور والحمام واليمام والطاووس وطيور الفردوس وكل أنواع طيور السماء وأسماك البحار •

وقد سر السلطان بمشاهدة هذه الحيوانات وحسن ترتيب مساكنها ونظافتها وحسن الاعتناء فى القيام بمعاشها ، وبعد أن فرغ السيد الكريم من الفرجة على هذه الحيوانات شكر أصحاب البستان وأعرب لهم عن سروره بما رآه من حسن اعتنائهم ، ثم خرج فى حشمه ورجال الدولة البريطانية يريد الذهاب الى ادارة البوسطة البريطانية للفرجة على هذه الادارة التى لا نظير لها فى حسن الاتقان بأوروبا كلها •

الباب الرابع عشر

فى زيارة السلطان لإدارة البوسطة

قصد السيد برغش الفرجة على ادارة البوسطة فى ١٨ جون بعد الظهــر • وكان الدكتور كيرك قنصل الدولة البريطانية فى خدمته بمنزلة ترجمــان •

وكان شعب غفير من الانكليز علموا من اشاعات الجرائد بقدوم سعادة السلطان الى ادارة البوسطة فاجتمعوا فى الشوارع التى كان ماررا بهــا

السلطان ليتشرفوا بمشاهدة سعادته • ولكن خابت آمال كثيرين منهم فان عاصفة شديدة هبت على لندن وهطلت أمطار غزيرة أجبرت المتفرجين على الفرار والالتجاء الى منازلهم •

أما السلطان ورجال الدولة فكانوا فى عربة مغطاة سترتهم من صبيب الأمطار حتى وصلوا الى باب ادارة البوسطة •

ولا يخفى أن محـل ادارة البوسطة بلندن هو من الأبنية العظيمة • باشر الانكليز بنـاءه سنة ١٨١٤ وفرغوا من عمـاره سنة ١٨٢٩ • وهو بناء عظيم يبلغ طوله ١٦٠ ذراعا وعرضه نحو ٤٠ ذراعا وعلوه نحو عشرين ذراعا ونيف • وفى واجهة البناء رواق مبنى على ستة عواميد •

وقد شادوا هذا البناء بطريقة غريبة تصونه من الحريق ووضعوا فى خلال البناء أقنية عظيمة يجلبون بها مياها غزيرة بمعدات بخارية الى داخل البناء أذا عرض له خطر الحريق • وفيه مخادع عديدة لاستقبال الرسائل وتوزيعها • فكان يدخل الى هذه الادارة نحو ٦٠٠٠٠ رسالة كل يوم سنة ١٨٣٦ • ثم صار يدخلها ١٦٠٠٠٠ رسالة كل يوم سنة ١٨٤٢ • ثم تضاعف عدد الرسائل حتى صار يدخلها ٢٢٥٠٠٠ رسالة كل يوم سنة ١٨٥٠ • ثم صار يدخلها ٣٧٥٠٠٠ رسالة كل يوم سنة ١٨٦١ • وأما الآن فيدخلها كل يوم نحو ٥٠٠٠٠٠ رسالة ونيف •

ويتضاعف عدد هذه الرسائل كل سنة نهار عيد سان فالنتين فى ١٤ شباط فبروارى (أى فبراير) وهو نهار يتراسل فيه المحبون برسائل جدية وهزلية حتى يبلغ عدد هذه الرسائل ذلك النهار نحـو ١٠٠٠٠٠٠ وجميعها تمر بهذه الادارة وتوزع الى أربابها بلندن وفى الخارج فى ذلك النهار بعينه • هذا ماعدا الجرائد التى لا يسعنا استيفاء عددها فى هذا البـاب •

فلما وصل السيد برغش وحشمه الى باب ادارة البوسطة خرج الى ملاقاته اللورد جون مانرس ومستر اسكودامور وأدخلوهم أولا الى مخدع أوائل الرسائل التلغرافية • فوقف السلطان فى صحن هذه الحجرة الكبيرة وهو ينظر بسرور عظيم الى ١٠٠٠ شاب منصبين على ارسال الرسائل التلغرافية الى جميع بلاد الدنيا بسرعة البرق •

وكان فى رفقة سعادة السيد برغش زعيم الدين حمد بن محمد • وقد تعجب كثيرا لما رأى واحدا من أولئك الشبان قد أرسل رسالة برقية الى عدن واسترجع جوابها فى برهة بضع دقائق يقول فيها مرسلها ما حرفيته « الطقس فى عدن صحو والريح خامدة » •

ثم بعث شاب آخر من أولئك المستخدمين فى الادارة برسالة الى باريس فى حضور سعادة السيد برغش فأتاه الجواب حالا يقول « عاصفة شديدة هبت على باريس والجو معتكر جدا » •

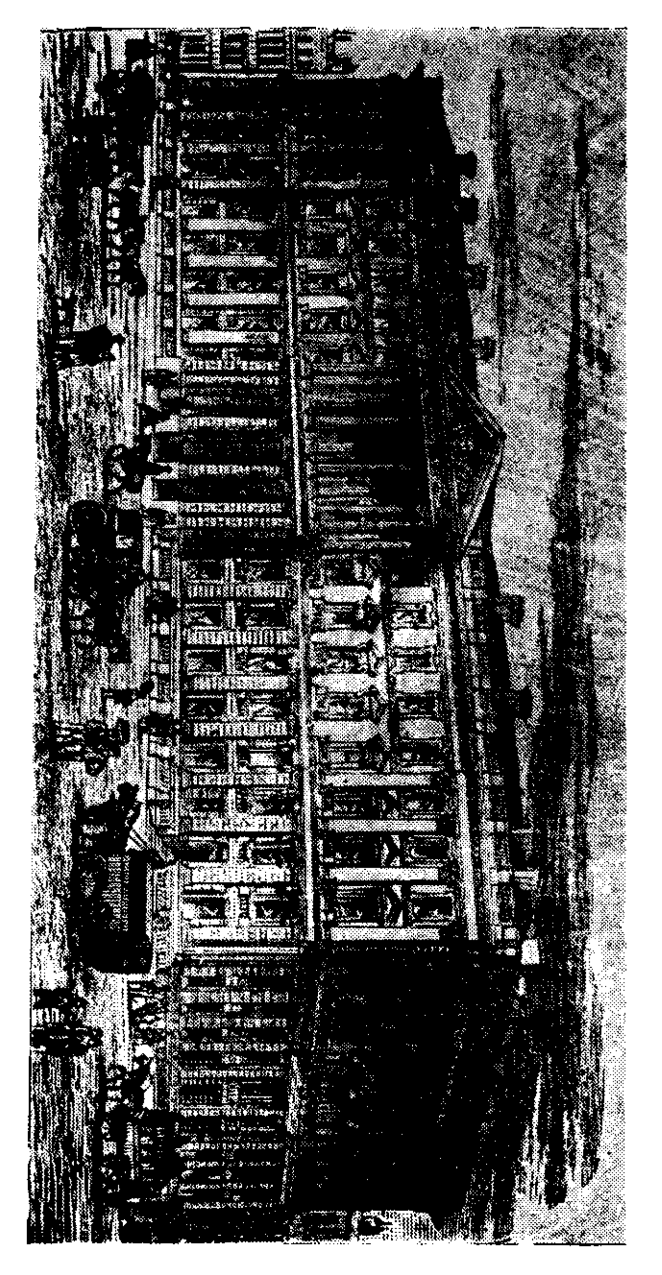
ثم طلب اللورد جون مانرس الى سعادة السلطان أن يخاطب بالتلغراف واحدا من رجال دولته بعدن • فقال استفهموا من وكيلى قواسجى دينشو ليعلمنى ما عنده من الأخبار الواردة من زنجبار أخيرا فامتثل واحد من الشبان المستخدمين بالتلغراف لأمر سعادته وأرسل يستفهم من الوكيل بعدن • فلم تمر دقائق قليلة الا وأتاه الجواب من الوكيل المومأ اليه يقول فيه « ما جد عندنا خبر مهم نرفعه الى سعادتك الا الخير واليوم أرسلنا رسائل سعادتك الى زنجبار صحبة الباخرة كوكوناده » • فسر السيد غاية السرور بذلك وأثنى على مدير التلغراف وشكر له مكارمه •

ثم طلب مستر اسكودامور الى سعادة السلطان أن يشرف محل الآلة

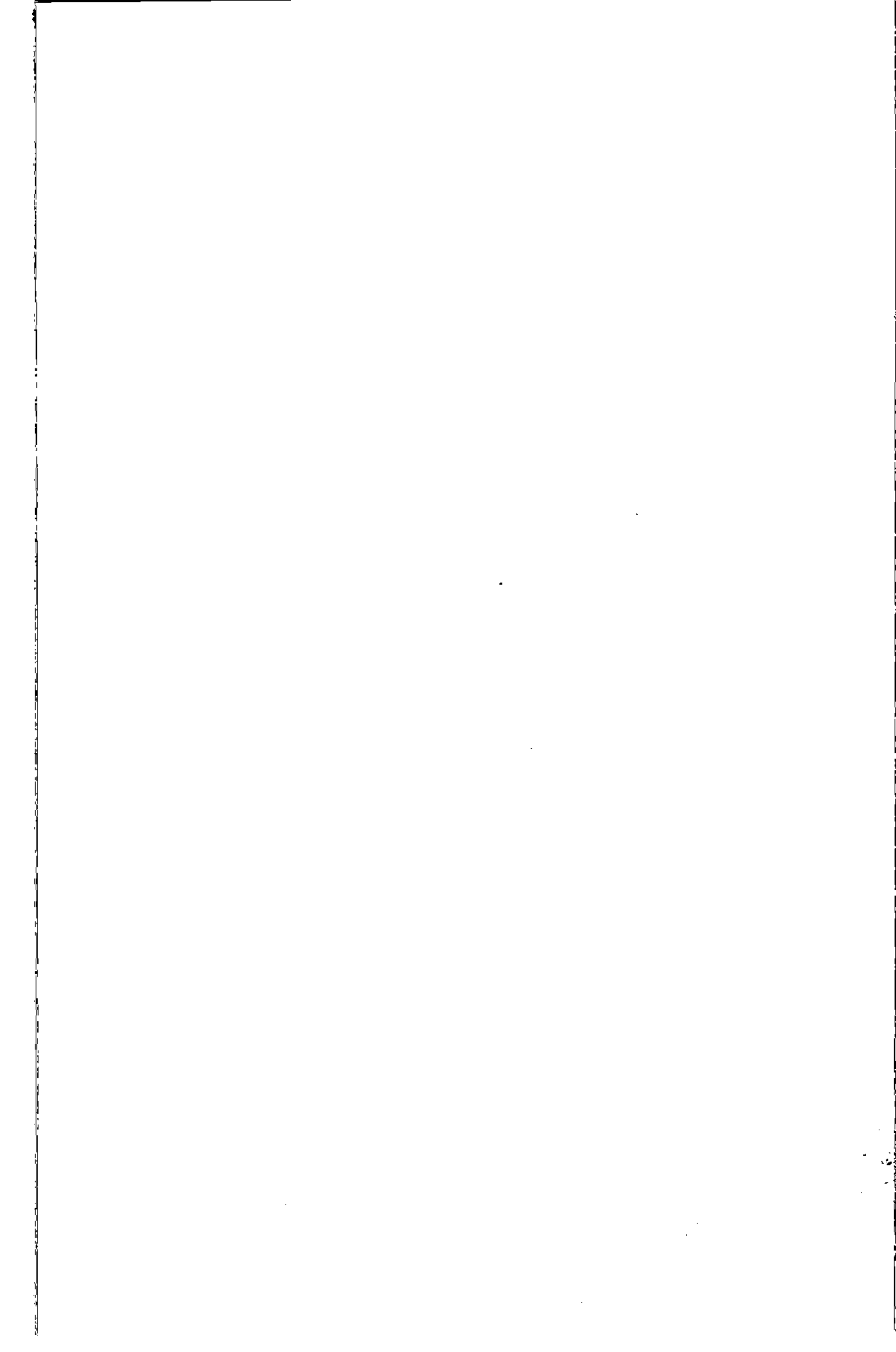
الهوائية • فسار السلطان الى مكان الآلة • وأخذ مستر اسكودامور يشرح لسعادته أحوال هذه الآلة ومنافعها • وهى آلة بخارية تضغط الهواء ضغطاً شديداً ضمن قناة توضع فيها الرسائل التلغرافية فيدفعها الهواء ضمن القناة ويوصلها الى بقية ادارات البوسطة الكائنة فى حصص لندن على مسافة اثنى عشر ميلا ونيف •

ثم بعد ان تفرج السيد برغش على كل ما كان من الغرائب والنفيس فى ادارة البوسطة طلب اليه اللورد جون مانرس ان يحرر اسمه فى سجل الادارة • وهو سجل يدون فيه اسم كل ملك وسلطان يدخل ادارة البوسطة البريطانية للفرجة ، ففتح السيد برغش السجل المذكور ليحرر اسمه فيه فرأى فى وجه الصحيفة اسم شـــاه العجم واســـم امبراطور البرازيل وغيرهما • فتناول قلما وكتب فى السجل ما حرفيته « أنا السيد برغش بن سعيد دخلت دار ادارة البوسطة للفرجة فى ١٨ جون (حزيران) سنة ١٨٧٥ » •

ولمـــا فرغ السيد من كتابة ذلك بخطه الشريف شكره على ذلك اللورد جون مانرس فقال له السلطان فى جوابه « قد سررت غاية السرور بوضع اسمى بخطى فى هذا السجل على سبيل التذكار » • ثم خرجوا من هناك الى حجرة السفرة وتناولوا فيها شيئا من الأطعمة الفاخرة • ثم رجع السلطان وحشمه الى منزلهم فى سرور وحبور •



(منظر ادارة التلغراف والبوستة العمومية بلندن)



الباب الخامس عشر

فى زيارة السلطان لقصر البلور

قصر البلور من المواقع الفريدة المشهورة فى بلاد الانكليز ، وموقعه فى ضواحى لندن على مسافة عشرة أميال من قلب المدينة ،ويسافر كل يوم من لندن الى قصر البلور ٢٥ رتلا من محطة لندن بريدج و ٢١ رتلا[1] من محطة فيكتوريا ومجموع ذلك ٤٦ رتلاً من أرتال سكك الحديد تحمل المتفرجين من لندن الى قصر البلور يوميا ، وفى أيام الأحد والأعياد يتضاعف عدد الأرتال فيبلغ نحو المائة رتل • وأجرة الدخول الى القصر شلين واحد • وأجرة سكة الحديد ذهابا وايابا شلين ونصف •

باشر الانكليز تشييد هذا القصر سنة ١٨٥٢ ودام بناؤه نحو سنتين وهندسته طبق هندسة قصر المعرض الذى جرى بلندن سنة ١٨٥١ • وسمى بقصر البلور لكونه مشيدا على قوائم ودعائم من حديد مغطاة من أسفل الى فوق بألواح من البلور السميك وطوله نحو ١٠٥٩ مترا أى نحو ميل وفيه من الأعمدة ٣٥٠٠ عامود •

وقد جمع الانكليز فيه كل ما عندهم من التحف التى تستأهل الفرجة وحوله بستان واسع وفيه من جميع أصناف الأشجار التى تنبت فى أقاليم الدنيا المختلفة • وفى قلب القصر مرسح لقيام الملاعب يسع نحو ٥٠٠٠ نفس •

ويشغل هذا القصر مع ما حوله من الحدائق نحو ٨٠ فدانا من الأرض • ولا يسعنا أن نستوفى وصف ما فى هذا القصر من التحف الغريبة من جميع

---

(١) يقصد مجموعة من القطارات .

أصناف النبات والحيوان والطيور والأسماك والزهور والتصاوير وغرائب الصنائع وتقليد تحف اليونان القدماء والرومانيين والمصريين والآشوريين والافريقيين والحبشيين وأهالى الجزائر المتوحشة والايطاليين والفرنساويين وغيرهم .

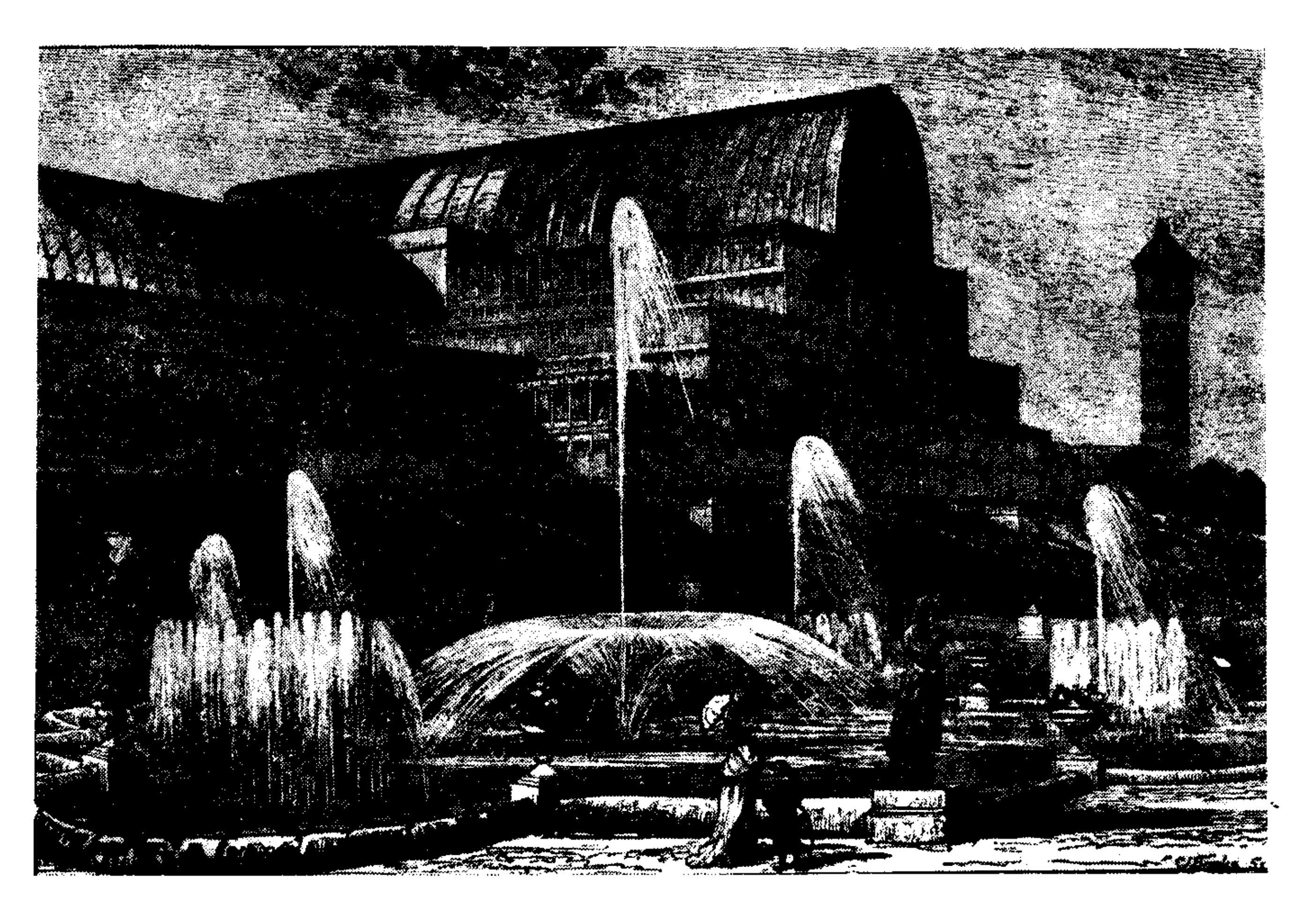
ففى اليوم الثانى عشر من شهر جون (حزيران) حسن بأعين الدولة البريطانية ان تستدعى سعادة السلطان الى الفرجة على قصر البلور فأصدرت الأوامر اللازمة الى المأمورين بأن يزينوا القصر بنفس الزينة التى أجروها يوم زار القصر السلطان عبد العزيز وخديو مصر وشاه العجم . فنصبوا رايات جميع الأمم داخل القصر وخارجه .

وكان علم السلطان برغش يخفق فى أعلى قبة القصر . وكانت طغرة زنجبار منقوشة فى وسط العلم وفى قلبها كتابة بالقلم العربى « يا فتاح » .

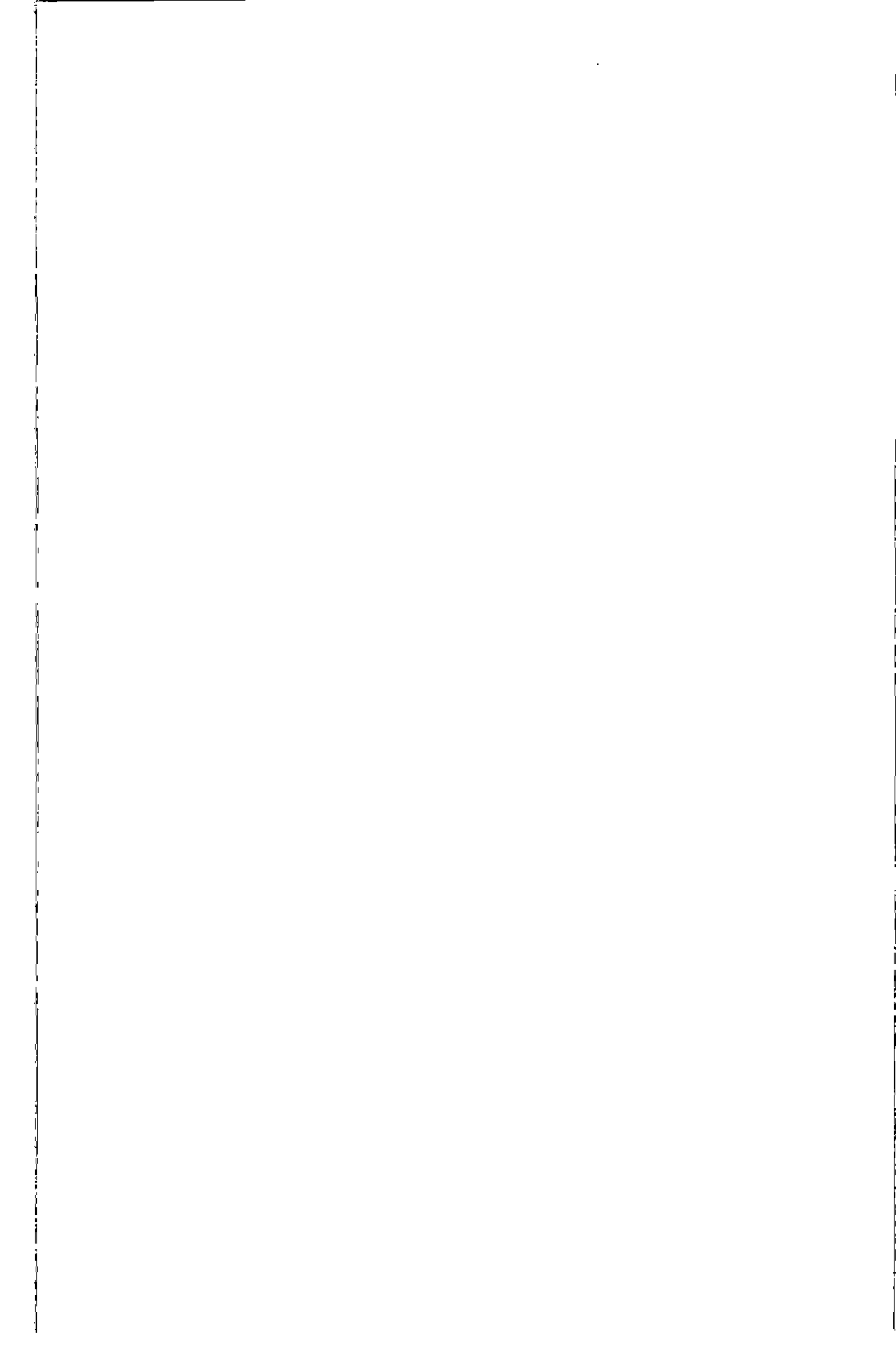
وكان ذلك النهار نهارا صاحيا من نوادر أيام لندن والشمس ساطعة بعز أشعتها . فركب السلطان المركبة ورجال الدولة البريطانية فى خدمته وحشمه الزنجباريون فى معيته وساروا الى القصر .

وكانت جرائد لندن قد سبقت وأذاعت زيارة السلطان لقصر البلور . فدرى الناس بذلك وبادروا من كل فج عميق بأمل مشاهدة أمير عربى قد شرف بلادهم ، فاجتمع الى القصر نحو مائة ألف نفس ونيف من الرجال والنساء والصبيان .

ولما وصل السيد برغش الى القصر استقبله الشعب المتجمع بغاية الترحيب والسرور ، وكشفوا قلانسهم عن رؤوسهم وحيوه بأشرف سلام . وكانت الموسيقى العسكرية تصدح بالأنغام العذبة ، والجنود مصطفين صفوفا فى سلام سعادته . فدخل السيد القصر باحتفال عظيم وأتى مرسح اللعب واستوى الملهى وكان فيه من المغنيين نحو ٣٠٠٠ صوت . فغنوا



(رسم قصر البلور من الخارج مع ما فى حدائقه من ينابيع المياه المتدفقة)



أغانى مطربة عديدة بأشهر الأنغام الأوروبية من جملتها غناء مشهور من أغانى الأوبرا الايتليانية الذى مطلعه « موسى بمصر » •

ولشدة سرور سعادة السلطان بهذا الغناء فضلا عما سواه ، أمر باعادة الغناء ثانية • وهو حقيقة غناء مطرب فى الغاية وقد سمعته مرارا عديدة وأنا أفضله على جميع أغانى الأوبرا •

وبعد نهاية الغناء سار رجال الدولة بسعادة السلطان الى الرواق المعروف « برواق الملكة » وكانوا قد أعدوا فيه سفرة[1] فاخرة متفننة بالأطعمة اللذيذة فجلس السيد ومن معه على السفرة وتناولوا الطعام •

وفى أثناء ذلك قدم مدير القصر الى سعادته كتابا يحتوى على تصاوير القصر منقولة عن الأصل بتصوير الفوتوغراف على قطع كبير بأجمل صناعة •

ثم خرجوا الى صحن القصر وكانت ينابيع المياه تطفح بالعاب مختلفة تفنن بها مديرو القصر •

وفى نحو الساعة التاسعة من ذلك النهار صعد السيد الى مكان عال كانوا قد أعدوه له وزينوه بأفخر الزينات ليشاهد الألعاب النارية التى كانوا استحضروا عليها •

وكان من جملة النقوش التى رسموها بالبارود طغرة سعادة السلطان « يا فتاح » بخط عربى جميل • فلما أشركوا النار بالبارود اشتعلت النقوش وظهرت كلمة « يا فتاح » فى قلب الرسم مشتعلة بنور مختلف الألوان • فضج الشعب سرورا برؤية ذلك واستحسن السلطان غاية الاستحسان مهارة مستر بروك الذى رسم تلك النقوش بلعب نارية وأثنى عليه ثناءً جزيلا • وبعد أن صرف السيد برغش نهاره بالسرور والطرب رجع الى قصره سالماً غانماً •

---

(١) المقصود بالسفرة مائدة الطعام .

الباب السادس عشر

فى زيارة سعادة السلطان برايطن

خرج السيد برغش فى حشمه يريد الفرجة على مدينة برايطن وما فيها من الأحواض الحاوية جميع أنواع الأسماك • وبرايطن مدينة على ساحل البحر تبعد عن لندن نحو واحد وخمسين ميلا تقطعها سكة الحديد فى برهة ساعة و ٢٥ دقيقة • وفى سيرها تمر بقبو تحت الأرض اسمه « اكليتن » طوله ٢٠٢٠ ذراعا • ثم يلحق به قبو آخر تحت الأرض اسمه « ياتجم » طوله ٤٣٢ ذراعا •

وهذه المدينة من منتزهات الانكليز يقصدها الناس أيام الصيف للراحة والاستحمام بمياه البحر • وفيها من السكان نحو ٨٠٠٠٠ نفس ويزداد عددهم أيام الصيف الى نحو ١٠٠٠٠٠ نفس • وقد أضحت هذه المدينة ضاحية من ضواحى لندن • وقد بنوا منازل جميلة على ساحل البحر على مسافة ثلاثة أميال وشادوا سورا واطيا لردع أمواج البحر عنها •

وقد أقاموا فى ساحة استين تمثالا من نحاس للملك جورج الرابع بهذا الاسم • وبقربها عين ماء اسمها فيكتوريا • وقد بنوا جسرا من حديد يمتد من البر الى قلب البحر فوق المياه على مسافة ٣٥٠ ذراعا ويبلغ عرضه نحو ٤ أذرع وهو راكز على أعمدة من حديد مغروسة فى صخر تحت قاع البحر • وهو معد لمنتزهات الشعب •

وفى أيام الصحو تعزف فوقه آلات الموسيقى لتنزيه الناس • وقد أشادوا على ساحل البحر دارا واسعة مسقوفة بزجاج سميك وجعلوا فيها أحواضا واسعة مغطاة بألواح من البلور وملؤوها بماء البحر وجمعوا اليها جميع أنواع الأسماك الصغيرة والكبيرة والأصداف والزلاحف والسرطان

والكركدن البحرى والتماسيح وسمك الحيات الى غير ذلك من سكان البحور • فيتوارد الناس الى هذه الدار ليتفرجوا على هذه الحيوانات الجميلة الألوان •

ولما وصل السيد برغش الى محطة سكة الحديد استقبله بعز واكرام حاكم المدينة مستر بريدجن وسار كورى بروز ومستر استيفن ناظر شركة دار الأسماك واللورد ويليم لينوكس والشريف هومبراون ومستر مكميلان وسار البرت ساسون وأولاد أخوته مستر ارثور وروبين ساسون •

ثم ركب السيد برغش فى عربة مكشوفة وسار الى دار الأسماك وكان الشعب يتقاطر أفواجا ويزاحم عربة سعادته من وراء ومن قدام ويرفعون قلانسهم عن رؤوسهم ويضجون بأصوات الفرح والتهليل ويرحبون بقدومه • ولما وصلوا الى دار الأسماك رأوا أبوابها وأسطحتها مزينة برايات الدول ، وكان علم السلطان الأحمر يخفق فوق جدران تلك الدار من كل جهاتها وكانت العساكر الملوكية مصطفة فى سلام السلطان •

ولما دخل السيد الى دار الأسماك للفرجة رافقه المعلم هنرى لى الطبايعى وصار يشرح له عن طبائع أنواع الأسماك المختلفة فرداً فرداً وكان الفقيه جرجس باجر يترجم الى السلطان كل ما كان يقوله المعلم هنرى لى • وكان ناظر الأسماك اعطى أوامر للخدم أن يطعموا الأسماك قوتها اليومى عند مرور سعادة السلطان بأحواض السمك • فسر السيد برغش غاية السرور وانحظ[1] كثيرا بسماع البحر وسمك كلب البحر الذى هجم على سرطان وعضه •

وفيما كان سائرا من حوض الى آخر سمع بعضا من خدمه يتكلمون بصوت جهير وهم يتفرجون على الأسماك • فالتفت اليهم بوقار ورزانة

---

(١) اى اعجب كثيرا .

ملوكية ووضع أصبعه على شفتيه مشيرا اليهم بذلك أن يلزموا الصمت . فلحظ ذلك على سعادته رجل من الانكليز الواقفين واستحلى ذلك من سعادته وقال لله در هذاه السلطان فانه قد جمع فى شخصه المبجل جميع الأوصاف الملوكية الحميدة . وسر بذلك جميع الحاضرين .

وقد طبعنا صورة مدينة برايطن ومنظر الجسر الحديد الممتد فوق البحر . وكانت دار الأسماك كلها مزينة بالزهور الجميلة وبعد فروغ سعادته من الفرجة على الأسماك استدعاه حاكم المدينة الى مأدبة الطعام .

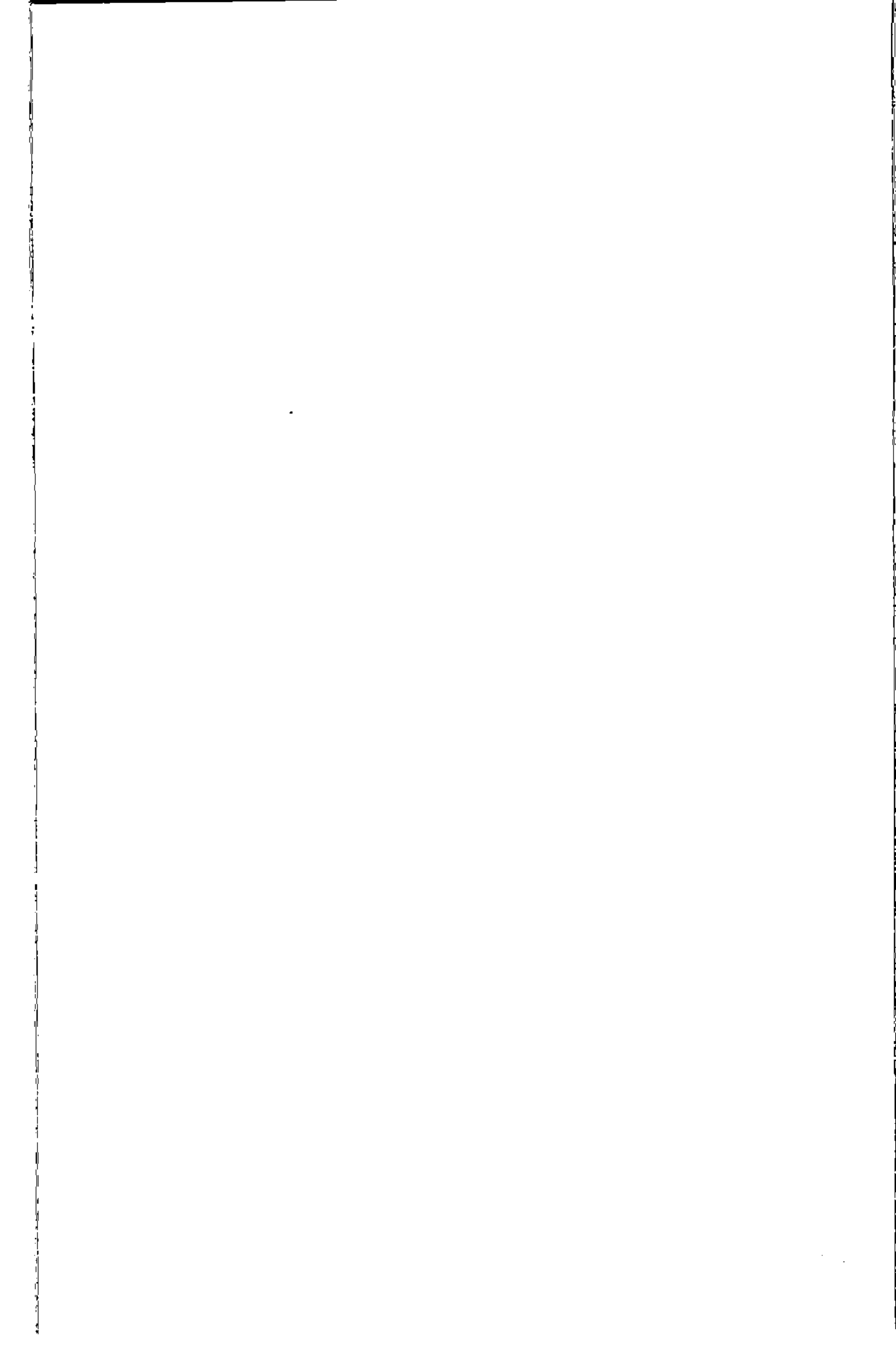
وبعد ذلك حضر المصور مستر لمباردى وصور سعادته بتصوير النور . ثم بعد ذلك استدعاه سار البرت ساسون التاجر المشهور الى داره الفسيحة وأولم له وليمة فاخرة . ثم حضر حاكم المدينة وطلب الى سعادته أن يحضر الى قصر الفرجة لاستماع أنغام الموسيقى العذبة فأجاب السلطان طلب الحاكم وذهب فى رفقته وكانت تلك الموسيقى من أحسن الموسيقات التى تدق فى المرسح الملوكى بلندن .

وفى ختام ذلك أهداه ناظر دار الأسماك كتابا يحتوى على تصاوير فوتوغراف فيها رسم دار الأسماك وما ضمته . وفى أثناء ذلك نهض سار كوردى بروز وألقى خطابا استرحب فيه بتشريف سعادة السلطان . وفى خاتمة الخطاب أوعز الى صديقه جرجس باجر الفقيه أن يترجم شعائر سعادته الى ذلك الشعب الحافل ويشكر سار كوردى بروز على ما أجاد به من الترحيب والاكرام . فنهض القس جرجس باجر المومأ اليه وقال .

أيها السادات الكرام ويا أيتها السيدات المصونات اللواتى زين هذا الحفل بجمالهن البديع ، قد كلفنى سعادة السلطان أن اترجم لكم بالانكليزى شعائر امتنانه من حسن مكارمكم وترحابكم بقدومه الى هذا المحفل النضير . فانه قد سر غاية السرور من رؤياكم ورؤيا هؤلاء الأولاد الذين هم عز



(منظر مدينة برايطن وجسر الحديد الممتد فوق البحر)



بريطانيا ومجدها المستقبل • وقد سره أيضا ترحيب السيدات بقدومه غاية الترحيب ولهذا وجب على سعادته أن يشكر لهن غاية الشكر على ذلك ويثنى على جميع الحاضرين الذين خصوه بالعز والاكرام •

ثم ختم الدكتور باجر خطابه بقوله قد امتنع السيد برغش عن اطالة الكلام فعليه أن يتبع مثال سعادته فى الامتناع عن الأطناب فى القول • فنهض سار كوردى بروز وقال فى جوابه على خطاب الدكتور باجر لا بأس اذا مسك السلطان ومسكت عن اطالة الكلام • أما الدكتور باجر فلا يليق به أن يقتصر فى الكلام فانه من أول علماء الانكليز المتضلعين فى اللغة العربية • ثم تمادى بالكلام وأثنى على مآثر سعادة السلطان وشكر همته السنية لمساعدته تجار الانكليز على توسيع نطاق التجارة والحضارة فى افريقية الشرقية • وبعد أن صرف السلطان نهاره بالسرور والابتهاج عاد فى رجاله وخدمه الى قصره بلندن سالما غانما •

الباب السابع عشر

سعادة السيد برغش وشرفاء لندن

عاد رئيس اساقفة كنتربرى فى محفل من زعماء الدين سعادة السيد برغش فى قصره وتلوا بين يديه خطابا صرحوا به عن شدة رغبتهم فى توسيع نطاق الحضارة بافريقية وطلبوا الى سعادته أن يمد اليهم يد المساعدة فى تحقيق مقاصدهم الحميدة •

وكان القس جرجس باجر الفقيه يترجم منطوق الخطاب لسعادة السيد • وفى ختام ذلك قال السلطان أيده الله قد استوعبت خطابكم أيها السادات وسررت بما عندكم من الغيرة على نجاح بلادى وانى لأفرغن مجهودى فى مساعدتكم ما استطعت واسأل الحق سبحانه وتعالى أن يؤيدنى واياكم على اجراء ما فيه الخير لعباده • فشكروا له هممه السنية ثم استأذنوه بالانصراف •

وبعد ذلك خرج السيد برغش فى حشمه يريد زيارة سعادة الدوق اف ايدنبره وقرينته ابنة ملك الروسية • وبعد أن لبث لدى الدوق برهة من الزمان فى أنس ومسامرة ودعه وخرج الى قصره برفقة كبير وزرائه وحشـــمه •

ثم خرج بعد الظهر ثانية فى رفقة الدكتور باجر والدكتور كيرك قنصل جنرال دولة بريطانية بزنجبار ووزرائه حمد بن سليمان وحمود بن حمد وناصر بن سعيد وحمد بن سليمان ومستر هيل كاتم أسرار وزارة الهند وذهب الى بستان الكساندرا يريد الفرجة على معرض الخيل • وسر غاية السرور بمشاهدته تلك الخيل الأصيلة • وبعد أن صرف بضع ساعات فى الفرجة عاد الى قصره • وفى أثناء ذلك قدم الدوق اف ايدنبره ثانى ولد الملكة فى رفقة القومندار لورد رمزى يريد اعادة الزيارة لســـــعادة الســـــلطان •

وبعد انصراف الدوق المومأ اليه خرج السيد برغش فى حشمه الى دار لادى داربى قرينة اللورد داربى ناظر الخارجية سابقا • وكانت لادى داربى المومأ اليها أولمت لسعادة للسلطان وليمة فاخرة ، وكانت ليلة صفاء وحظ سر بها السيد برغش سرورا عظيما • فكان فى تلك الوليمة عدد وافر من كبراء الانكليز وشرفائهم مع خواتينهم المخدرات وبناتهم الكريمات •

وفى غد ذلك النهار قدم كثيرون من شرفاء المدينة وسلموا على سعادة السلطان منهم دوق اف ريشمند والكونت مونستر سفير دولة جرمانيا وارل اف مالمسبرى وارل اف كارنرفن ولورد هموند وسار شارلس ادرلى من أعضاء مجلس الشورى والكونل تيلر من أعضاء مجلس الشورى والاميرال سار الكسندر ميلن وريل اميرال سار ليوبولد هيث والشريف برسى ويندهام وسار برسى بارل من أعضاء مجلس الشورى والكولونل بورن فى وزارة الهند وغيرهم •

وفى غد ذلك النهار أولم سار بارتل فراير وليمة فاخرة دعا اليها سعادة السلطان وكانت مأدبة حافلة بالمسرات والحبور . وعند رجوع السلطان الى قصره قدم اليه رجال من وجوه الشعب الانكليزى قد شكلوا لجنة ديدنها السعى الى ابطال تجارة الرقيق من افريقية .

وكان من جملتهم سار جون كنوى من أعضاء مجلس الشورى ومستر ريتشارد من أعضاء مجلس الشورى ومستر كوربت من أعضاء مجلس الشورى ومستر دنكان مكلرن من أعضاء مجلس الشورى ومستر شارلس وينكفيلد ومستر صمويل كورنى ومستر ادورد استورج والقس بوزاكوت كاتم أسرار اللجنة . فرحب السيد بقدومهم غاية الترحاب ببشاشته المعهودة ، وفى أثناء ذلك السلام نهض القس بوزاكوت وتلا خطابا بين أيدى سعادة السيد فيما يخص تجارة الرقيق ، وكان ذلك الخطاب مكتوبا فى ورق منقش . وهذا ترجمته .

الى سعادة السيد برغش أيده الله

أما بعـــــــــــــــد ...

فليس بخاف على سعادتك قد انعقدت من سنين عديدة جمعية مؤلفة من رجال انكليز وغير انكليز غرضها ابطال الرق من الدنيا والغاء التجارة ببنى آدم . ونحن الحاضرون هنا من جملة أعضاء هذه الجمعية ، فلما علمنا بقدوم سعادتك الى بلادنا سررنا غاية السرور بوصولك الينا سالما وغانماً ، وقد أتينا الآن نقدم لسعادتك التهانى ونرحب بمجيئك الى بلادنا ونغتنم الفرصة لتقديم الشكر لسعادتك على عقد معاهدة مع الدولة البريطانية سنة ١٨٧٣ لأجل ابطال تجارة الرقيق من سواحل افريقية ومن أملاك زنجبار قاطبة .

ولا يخفى على سعادتك ما فاض به قلبنا من الفرح لما رأينا اهتمامك

الزائد فى اتمام ما وعدت به الدولة البريطانية ولم تحفل بالمتاعب التى تحملتها وخسائر الدراهم التى تكبدتها ولا ريب فى أن لك فى عين الله حسنة كبيرة على ذلك • أما نحن فقد صرفنا الهمة الى النظر فى مصالح تجارة الرقيق زمانا طويلا فوجدنا لا نجاح فيها ولا يصدر عنها غناء ثابت • ولا تفلح أمة ولا تحصل على نجاح تام الا باعتصامها بعقائد الدين ونواميس الطبيعة والتمسك بعروة المساواة البشرية ، وسعادتك قد وطدت أساس هذه المآثر بسعيك فى ابطال تجارة الرقيق الذميمة وترويج تجارة جديدة وتوسيع نطاق الحضارة الحميدة •

ولم يبق على سعادتك سوى أن تصرف همتك الى استئصال الرق وفتح مينا ممالكك البحرية وأنهرها العظيمة لسير السفن الأوروبية ترويجا لمصالح شعبك ومصالح التجار أجمعين فيكثر الغناء فى بلادك السعيدة وتعمر مملكتك المخصبة فانها ذات تربة حسنة لا مثيل لها • فان فعلت هذا سجلت لك اسما شريفا فى صحف التاريخ وخلدت ملكك ونلت من الله سبحانه وتعالى ثوابا عظيما فى الدنيا والآخرة •

أما السياح الذين طافوا فى بلاد افريقية فقد نقلوا الى جمعيتنا أخبارا يعز علينا أن نسرد ذكرها على مسامع سعادتك • فقد قالوا ان أكثر النخاسين يجتمعون الى زنجبار ويجهزون سفنهم فى أسواقها ويسافرون منها بحرا فى طلب الرقيق ومتى نالوا ما تمنوا من صيد أولئك الزنوج المنكودى الحظ رجعوا الى زنجبار ونفقت تجارتهم فى أسواقها • فلا يخامرنا ريب فى أن هذا لا يسر سعادتك ولا تطيب نفسك الكريمة بهذه الأرباح الذميمة وانك لتفرغن جهدك فى ابطال هذه المنكرات القبيحة التى فيها خير للأمة والملك •

ونطلب الى الله سبحانه وتعالى أن يطيل عمرك بالسعد والاقبال ويؤيدك فى عمار تلك البلاد لترى بعينيك نجاحها وفلاحها فى عز وأمان آمين •

فلما انتهى الخطيب من كلامه نهض الدكتور باجر وقرأ رقعة من الرق على لسان سعادة السلطان فى جواب الخطاب السابق ذكره • وهذه ترجمة فحواها •

أيها السادات أعضاء الجمعية البريطانية والخارجية المؤلفة لابطال تجارة الرقيق صانكم الله •

أما بعد •••

فشكراً لكم على ترحيبكم بقدومنا الى بلادكم السعيدة • ونحن قد سررنا كثيرا بمشاهدتكم • أما ابطال تجارة الرقيق من أملاكنا فلابد منها وان شاء الله سنبذل تمام الهمة الى القيام بما وعدنا به الدولة البريطانية • ولكن لا يخفى على فطنتكم الزكية أيها السادات الكرام ان تجارة الرقيق قد تأصلت وتشعبت فى أقطار افريقيا الواسعة من أجيال قديمة ولا يتيسر لنا استئصالها حالاً فى برهة وجيزة من الزمان •

ولنا ثقة تامة فى أن جمعيتكم الغيورة والشعب البريطانى معاً قد أدركتم ما قاسيناه من العناء والمشقات فى هذه المسألة وما خسرناه من الأموال من جراء ذلك • ومازلنا نصرف الهمة الى اقناع شعبنا باستماع نصائحنا والسلوك بحسب مشورتنا ابتغاء ارضاء الأمة البريطانية العظيمة • فانها لاشك قد سعت فى اصلاح بلادنا وتوسيع نطاق الحضارة فى ملكنا بسخاء وهمة علياء • فنكرر الثناء على مآثركم الحميدة ولا ننسى مكارمكم العميمة •

حرر بلندن لأربعة عشر خلت من جمادى الثانية سنة ١٢٩٢ هجرية •••

ثم طوى القس جرجس باجر رقعة الرق وسلمها الى رئيس الجمعية • وفى أثناء ذلك خطب خطبة وجيزة من تلقاء نفسه قال فيها • أيها السادات الكرام قد صدق السيد برغش فيما قال وأصاب غاية الصواب فى سرده على مسامعكم كثرة المصاعب التى ألمت بسعادته والخسائر التى تكبدها ، فانه خسر نحو ١٠٠٠٠ ليرة سنوياً من جراء ابطال تجارة الرقيق من بلاده •

وليس بخافٍ عليكم ما لسعادته من البلاد الواسعة مساحة والشاسعة مسافة وأملاكه فى أصل البر تبعد عن سواحل البحر والبنادر ويصعب على رجاله السعى فى أثر النخاسين وجلابة الرقيق فى تلك القفار العسيرة المفاوز •

ومن يطالع خريطة تلك البلاد لا يدرك ما يدركه من جاب بنفسه تلك القفار التى ليست سهلة ملسة كما يراها الناظر مرسومة على القرطاس •

ثم نهض السار جون كنواى وشكر لسعادة السلطان استقباله لأعضاء تلك الجمعية وقال قد عرفنا حق المعرفة ما قاساه السيد برغش من العناء وتكبده من الخسائر وقد صممت تلك الجمعية على صرف الهمة فى تسهيل كل المصاعب وتعويض كل الخسائر •

فلما عرضت ترجمة هذا الكلام على سعادته قال حبذا ما قلت أيها السار (السير) الجليل وهذا غاية ما نتمناه • قال هذا وودع أعضاء الجمعية المومأ اليها وصرفهم بسلام •

وفى الساعة الرابعة بعد الظهر خرج السلطان يريد بستان أورسيل لوج ويمبلدن وكان السار (السير) بارتل فراير قد أولم لسعادته فى ذلك البستان وليمة فاخرة •

ولما وصل الى البستان استقبله السار بارتل فراير بغاية الترحاب

والبشاشة وسار بسعادته الى السيدة لادى بارتل قرينته فسلمت على سعادته بلطف وأنس لا مزيد عليهما ، وكان فى ذلك البستان كثيرون من الأشراف ووجوه الشعب البريطانى مدعوين الى تلك الوليمة المفعمة سرورا وحبورا • فصرف السيد برغش يومه وعاد الى قصره فى أمان الرحمن •

الباب الثامن عشر

فى زيارة سعادة السلطان لجلالة الملكة فيكتوريا

خرج السـيد برغش فى رجاله من لندن نهـار الخميس ٢١ جـون (حزيران) يريد زيارة جلالة الملكة فيكتوريا فى قصرها المشـيد فى قرية ونزر[1] ، وهى تبعد عن لندن نحو خمسة وعشرين ميلا ويبلغ عدد سكان هذه القرية نحو ١٠٠٠٠ نفس ويسافر كل يوم من لندن الى قرية ونزر ٣٢ رتلا من أرتال سكك الحديد ونهار الأحد يزداد عدد هذه الأرتال حتى يبلغ نحـو ٤٦ رتـلا •

وقد خرج السلطان من لندن بعد الظهر وكان فى رفقته أخص وزرائه أحمد بن سليمان وحمود بن حمد ومحمد بن أحمد وناصر بن سعيد ومحمد بن سليمـان وتاريا طوبان والدكتور كيرك واللورد داربى وزير الخـارجية والشريف سار بارتل فراير والدكتور جرجس باجر ومستر كليمنت هيل كاتم أسرار وزارة الخارجية • ووصلوا الى قرية ونزر بعد الظهر بساعتين ونصـف •

وكان شعب غفير قد اجتمع فى محطة سكة الحديد ليسلموا على سعادة السلطان رغما عن المطر وعواصف الطقس • وكانت جنود الملكة مصطفين فى

---

(١) يقصد وندسور •

سلام سعادته وهم حاملون راياتهم الشرفية والموسيقى تعزف بألحـــان رخيمة • وكانت خمس عربات من عربات الملكة واقفة فى انتظار سعادته على باب المحطة ، وكانت العربة المعينة لركوب السلطان ذاتآربعة رؤوس خيل مطهمة •

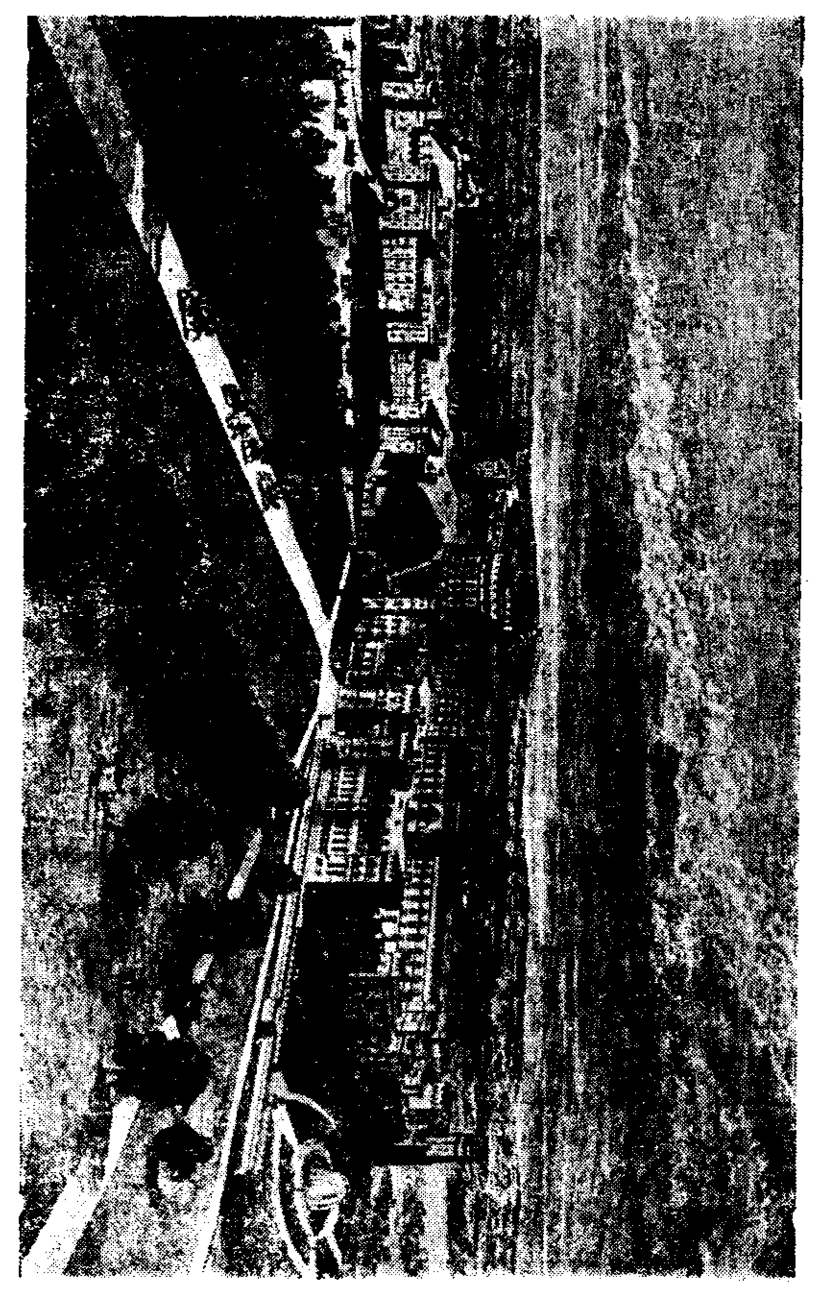
وكان قد قدم الى محطة سكة الحديد الكولونل جاردينر نيابة عن جلالة الملكة ليلاقى سعادة السلطان • فلما وصل السيد برغش الى المحطة استقبله الكولونل المومأ اليه ورحب بقدومه •

وكان الشعب يصرخ بأصوات الفرح أهلا وسهلا ومرحبا بســعادة سلطان زنجبار • فرد السيد برغش السلام عليهم بيده يمينا وشمالا ، ولمــا ركب العربة سلم الجنود عليه برفع السلاح وطفقت الموسيقى تصدح بأنغام عذبة • وفى مرورهم بشوارع القرية شاهدوا بناء مدرسة ايتــون العظيمة وفيها ٧٠٠ شاب من طلبة العلم • ثم وصلوا الى قصر الملكة •

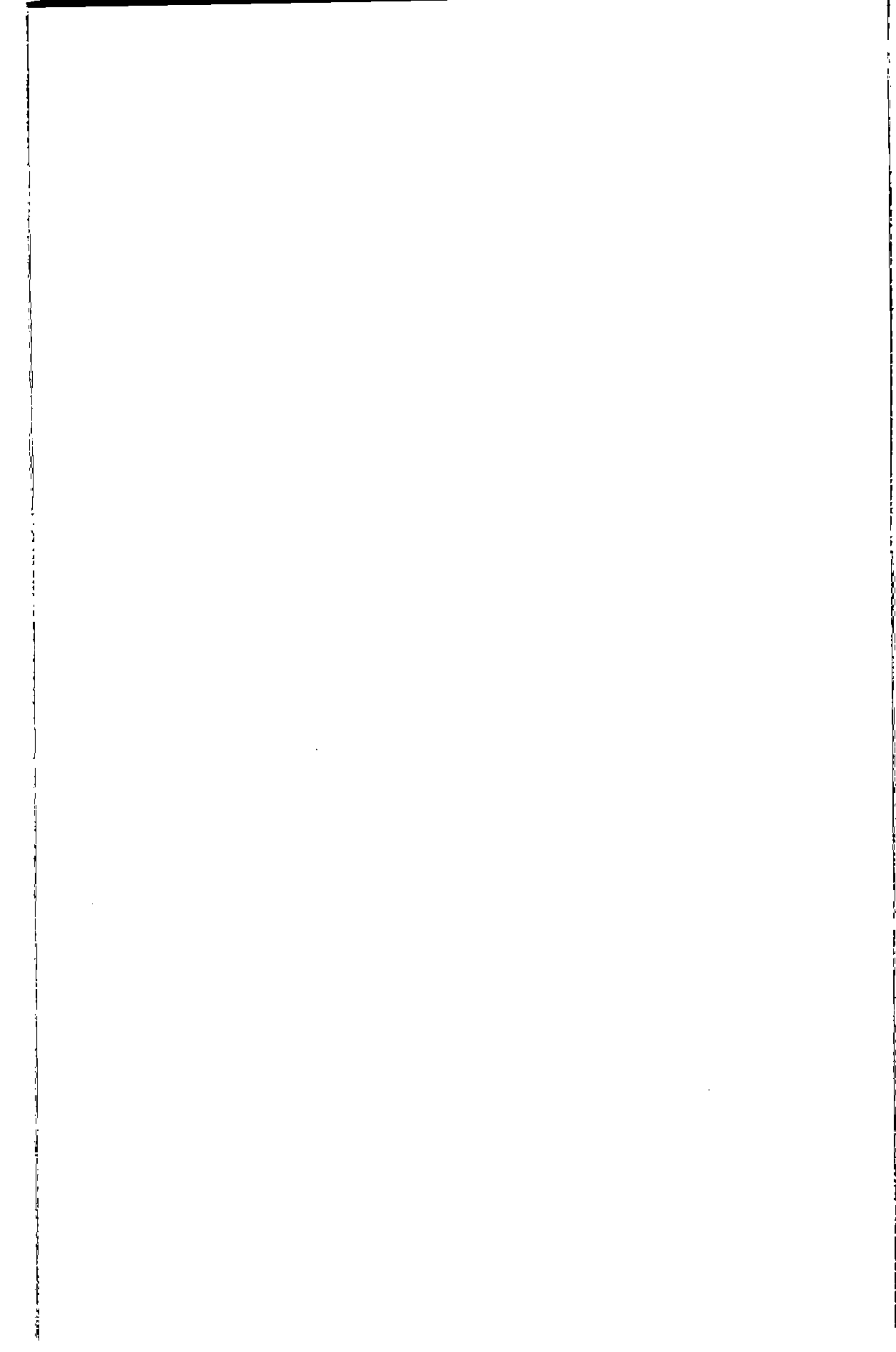
وبناء هذا القصر من غرائب الأبنية وموقعه على تل عال فوق شط نهر التيمس ويشغل من الأرض مساحة ١٣ فدانا ومشهد أسواره وما حوله من البروج والمنائر يدهش العقل ويحير الأبصار • ويبلغ علو أحد بروجه نحو ٤٥ ذراعا • ويكشف الناظر من فوقه نحو ١٢ مقاطعة من الأرض ، ويمتد النظر الى قبة كنيسة بولس الحوارى بلندن •

ويسكن هذا الحصن حاكم قرية ونزر •

وللقصر أربعة أبواب اسم الأول باب الملك هنرى الثامن واسم الثانى باب سان جرجيس واسم الثالث باب الملك جرجيس الرابع واسم الرابع باب الملكة اليصاباث • فمن دخل القصر من باب الملك هنرى الثامن رأى معبدا مشيدا على اسم سان جرجيس أمر بانشائه الملك ادورد الرابع سنة ١٤٧٤ عيسوية (ميلادية) •



(منظر قصر ملكة الانكليز فى قرية ونزر وما حوله من البساتين ومجارى المياه)



وبناء هذا المعبد من أجمل المعابد المشيدة فى بلاد الانكليز وفيه قبور أشهر ملوك الانكليز منها تربة (قبر) الملك ادورد الرابع وعليها تمثاله من الفولاذ وتربة الملك هنرى السادس وتربة الملك هنرى الثامن وغيرهم من أمراء الانكليز القدماء ذوى الصيت الشائع •

وفى القصر نحو ١٠ حجرات رحبة ومزينة بأفخر الأثاث الثمين • منها حجرة حراس الملكة وفيها أشياء ثمينة وتحف قديمة منها درع من الفولاذ الدمشقى وتمثال القبطان نلسن المشهور وتصاوير حروبه وانتصاراته • وتمثال الدوق ويلنكتن[١] الذى قهر نابليون الأول وغيرهم من رجال الانكليز القدماء • ثم حجرة سان جورج وهى من الأبنية الحديثة العهد يولم فيها ملوك الانكليز ولائمهم الفاخرة وقد صوروا فيها احدى عشرة صورة من تصـــاوير ملوك الانكليز القدماء •

ثم حجرة الرقص وهى مزينة بأفخر الأثاث وأثمنها فى القصر ، فان ما فيها من الكراسى والموائد مصنوعة من خشب ثمين مغطى بالذهب الابريز على نمط الكراسى والموائد الموجودة فى قصر فرساپل[٢] بفرنسا وفيهـــا تحف عديدة لا يسعنا ذكرها فى هذا الباب •

ثم حجرة واترلو وهى بجانب حجرة الرقص • وقد صوروا فى جدران هذه الحجرة تصاوير حرب نابوليون الأول وانكسار جيشه فى موقعة واترلو • ثم حجرة العرش الملوكى وهى بجانب حجرة رواق واترلو فيها تصاوير من الطراز الثانى قليلة الاعتبار وداخلها حجرة الملك وفيها أحدى عشرة صورة من الطراز الأول صنع المصور الماهر روبين ، وفى قاعة الشورى الملوكية

---

(١) نطقه الصحيح ولنجتون •
(٢) نطقها الصحيح فرساى •

٣٥ صورة غالية الثمن صنع المصورين البارعين كارلو ماراتى الايتلياني وبرميسان وكويدو وكورشبين وكوارج واندريا ديل سارتو وليونارد دى فينشي وكاروفالور وكارلو دولشي وانيبال كاراشي ودومينيكي ورمبراند وتينيارس وهبلين وكسبار بوسين وكلاود لوران وليلى ونيلر •

ومخدع الملك مزين أيضا بأربعين صورة من الطراز الأول قد صورها أبرع المصورين الايتليانيين منهم برميسان وكويد وكارلو واسفينولت وجرشين وتينتوت وكاميللو بروكاشيني • وبعض تلك التصاوير صنع لمصورين من غير الايتليانيين منهم بروغل ووفرمانس وادريان فان در ويلد وفان در نير الجرمانيين وادورد تنيار وروبين وغيرهم • وفى مخدع الملكة ٤٠ صورة من التصاوير القديمة من الطراز الثانى أقل اعتبارا من تصاوير مخـــدع الملك •

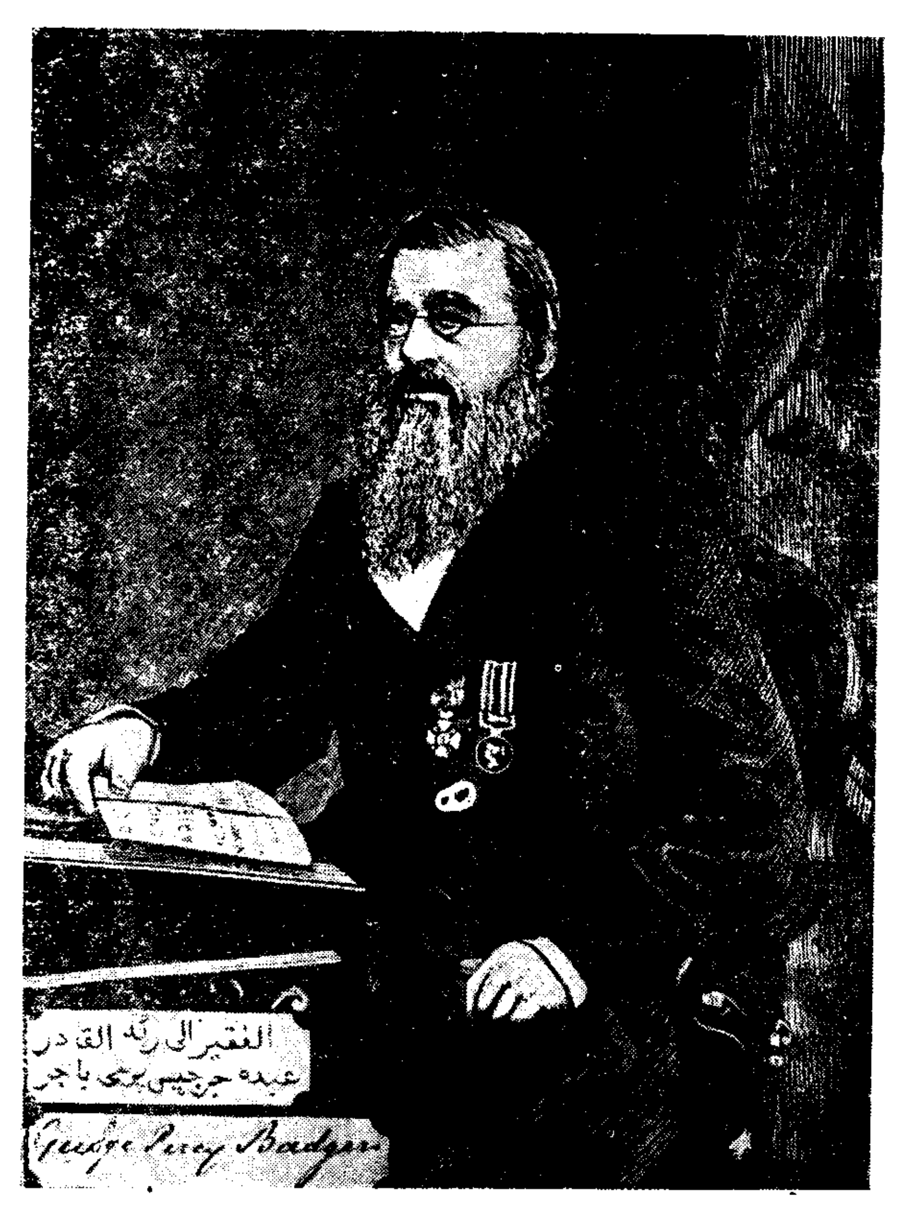
ثم حجرة المصور الماهر فانديك فيها من أجمل تصاوير الدنيا وأحسنها صورة الملك شارلس الأول • وتصاوير عديدة تمثل الملكة هانريتتا وصورة أولاد الملك شارلس وصورة المصور الماهر فاندريك المومأ اليه •

هذه هى المخادع والقاعات التى يباح للزوار أن يدخلوها ؛ أما مخادع الملكة مقر مسكنها الحالى فليس فيها شىء مما يستحق الاعتبار ماعدا خزانة كتب الملكة وحجرة الاستقبال فانهما مزينتان بأفخر الأثاث •

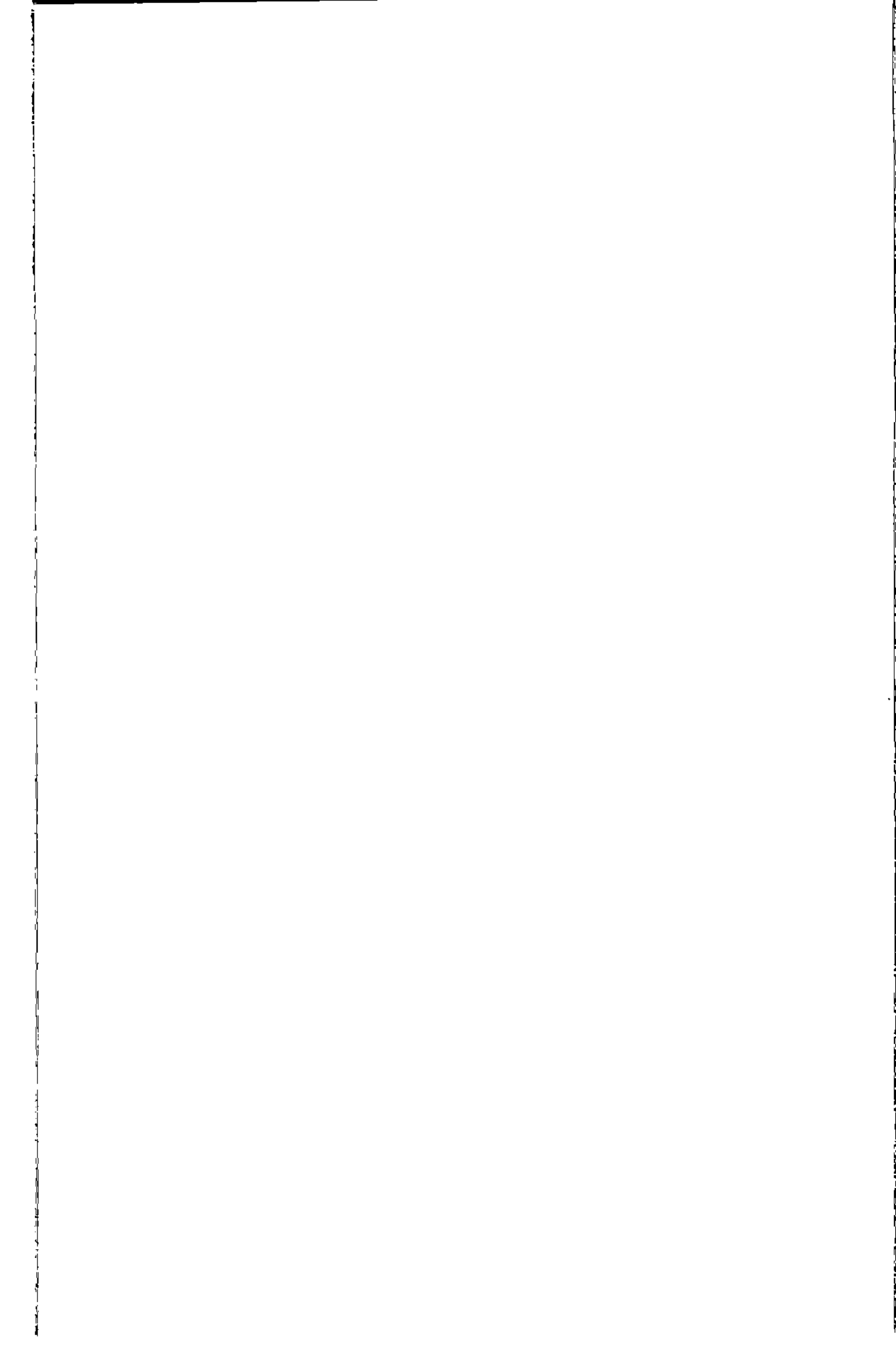
ثم حذاء واجهة القصر الشمالية سطح طوله ٥٧٠ ذراعا مشيد على قواعد عالية من حجر عظيمة البناء يمتد نظر الواقف على السطح الى مسافة بعيدة ويكشف وادى نهر التيمس والتلال المرتفعة فيه نحو جهة الشمال •

---

(١) يقصد الايطالى .



رسم العالم العامل والفقيه الفاضل الدكتور جرجس باجر خليل سعادة
السيد برغش سلطان زنجبار



وبجانبه سطح آخر اسمه « الشرقى » تنزل منه الملكة الى بستانها المزين بالزهور والأشجار وتماثيل عديدة من الرخام والنحاس •

أما اسطبلات قصر ونزر فقد أنفق على بنائها مليون وسبعمائة وخمسون ألفا من الفرنكات • أما الحديقة الصغيرة المختصة بالعائلة الملوكية فهى واقعة على ضفة نهر التيمس ومحيطها نحو أربعة أميال ومساحة أرضها نحـــو ٢٠٠ فدان وفى وسط هذه الحديقة تمثال الأمير البرت المرحوم زوج الملكة فيكتوريا الحاضرة نحته المعلم ماروكتتى الايتليانى •

أما البستان الكبير فطوله نحو ثلاثة أميال وعرضه من ثلاثة الى خمسة أميال وتبلغ مساحة أرضه نحـــو ٣٠٠ فدان • وفيه ألوف من الغزلان ترتع فى رياضه بلا عارض وهو بالأحرى شبيه بغاب وسيع ، وفى وسطه طريق تمر به الخيل والعربات للتفسيح والتنزيه تظلله أشجار من الجانبين على مسافة ثلاثة أميال من باب القلعة الى « تل الثلج » (سنوهيل) المنصوب عليه تمثال عظيم من نحاس للملك جورج الثالث بهذا الاسم •

وبعد تل الثلج تشاهد أبنية على هندسة منازل أهل الصين واليابون[١] لمنتزهات العائلة الملوكية مشيد حول بحيرة ماء صاف واسعة جدا ومظللة بأشجار عالية • وحولها تلال مزهرة ومروج نضرة يرتاح الناظر اليها •

فلما وصل جناب السيد برغش ورجاله الى قاعة الاستقبال قدمت جلالة الملكة فيكتوريا وابنتها الأميرة لويسة زوجة الماركيزاف لورن والأميرة بياتريس أصغر بنات الملكة وسلمن على سعادة السلطان فى حجرة الاستقبال التى كان قد عنى أهل القصر بتزيينها أحسن زينة فكانت جدرانها مغطاة

---

(١) يقصد اليابان .

بتصاوير مطرزة على طنافس ثمينة وأرضها مزينة بتماثيل جميلة كان قد نحتها النحات الماهر غرينلين جيبون الشهير •

ثم حضر رجال الدولة وحريمهم بأفخر الملابس وهن مزينات بمصاغ من الذهب واللؤلؤ والماس وعلى رؤوسهن تيجان مرصعة بحجارة كريمة وفى معاصمهن أسوار من الذهب الابريز منضدة بحجارة كريمة وسلمن على سعادة السلطان بألطف سلام ورحبن بقدومه باحتشام وبشاشة •

وبعد ان لبثوا مدة من الزمان يتسامرون مع سعادة السلطان بأنس وحبور استدعوا سعادته الى قاعة السفرة وكانوا قد أعدوا فيها من الأطعمة الفاخرة والمحالى[1] النفيسة فجلسوا مع سعادة السلطان على تلك السفرة المتفننة بالأطعمة اللذيذة وتناولوا منها ما طابت به نفوسهم •

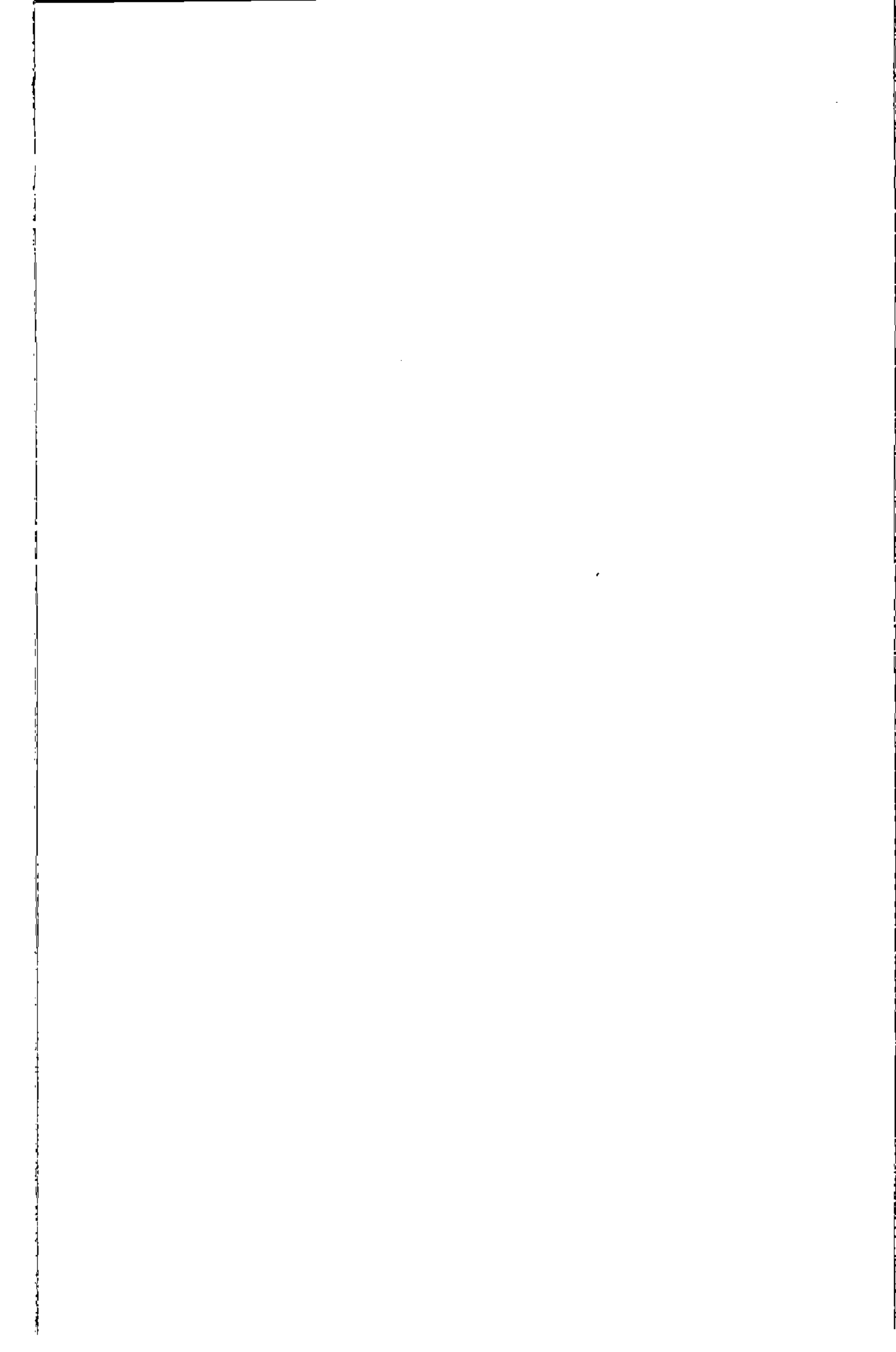
وفى أثناء ذلك نهضوا عن السفرة وأخذ اللورد شامبرلين أمين دار الملكة سعادة السلطان ورجاله ودار بهم فى القصر وفرجهم على جميع القاعات والمخادع التى سبق أن ذكرناها ، وفى الساعة الرابعة بعد الظهر ودع جناب السيد جلالة الملكة والأميرات بناتها وخرج من القصر ورجع الى لندن برتل مخصوص كانت جلالة الملكة أمرت بتجهيزه لسعادته •

---

(١) لعله يقصد الحلوى .

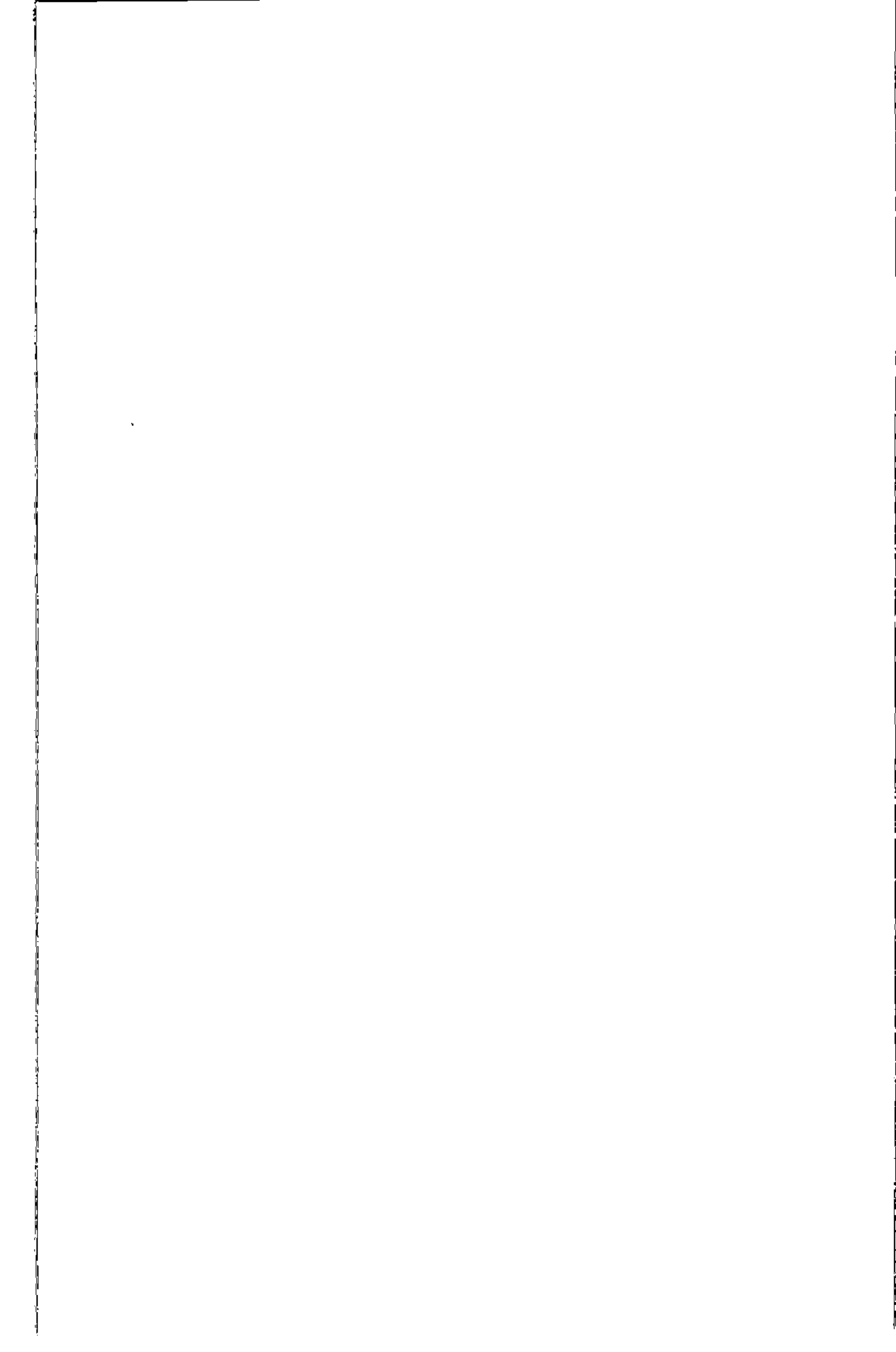


رسم جلالة الملكة فيكتوريا ملكة الانكليز
وسلطانة الهند





(صورة الأميرة لويسة ابنة ملكة الانكليز)



وثانى يوم صباحا خرج جناب السيد برغش فى رجاله برفقة محبه حضرة جرجس باجر الفقيه يريد زيارة دوق اف كامبريج • وفى الساعة الثامنة بعد الظهر خرج جناب السلطان فى رجاله ثانية يريدون الفرجة على تياترو جلالة الملكة ، وبعد أن صرفوا ليلتهم بالسرور والحبور رجعوا الى منزلهم •

وفى صباح ذلك النهار قدم الى قصر سعادة السلطان نجل امبراطور يابون والأمير رهودوكا ناكيس سفير دولة يابون وكاتم أسرار السفارة والشريف كلادستون[١] ودوق اف بدفرد واللورد سدناى واللورد جالوى واللورد سالبرن والشريف سار (سير) شارلس موررى وسار مونتكمرى والجنرال ملكم ومستر برسفرد هوب من أعضاء دار الندوة وسلموا على سعادة السلطان ورحبوا بقدومه وقيدوا أسماءهم فى كتاب الذين زاروا سعادة السلطان برغش ثم انصرفوا شاكرين من لطف سعادته •

وبعد انصراف سعادته من القصر جرى الكلام بينه وبين رجاله على ما أبدته جلالة الملكة من اللطف والاكرام فى حق سعادته • فان جلالة الملكة طلبت الى سعادة السيد برغش بأن يجلس بجانبها على كرسى جميل كانت الخدم أعدته له فجلس عليه بوقار ملوكى وأخذ يتفاوض مع الملكة باللغة العربية وحضرة الدكتور باجر يترجم كلامه الى الملكة بالانكليزى •

فقال السيد برغش أعزه الله قد رأيت بعينى الآن ما كنت أشتهى عليه من نعومة أظفارى وتشرفت بالنظر الى محيا ملكة الانكليز وجها لوجه فكان أبى تغمده الرحمن برحمته يحكى لنا ونحن صغار عن الملكة فيكتوريا ويقول انه يود لو تسمح له المقادير بمشاهدة هذه الملكة الجليلة • ولكن قضى نحبه ولم يقض وطره •

---

(١) مستر جلاد ستون وله فى تاريخ السياسة الانجليزية مكان ملحوظ .

أما الذى زادنى رغبة فى مشاهدة ملكة الانكليز فهو من الأمور المستغربة • فانى رأيت كثيرين من الانكليز سواء كانوا من القواد أو من الجنود أو من التجار يمدحون غاية المديح هذه الملكة المعظمة ويثنون عليها كل الثناء ويودونها ودادا لا حد له • ولم أشاهد باقى الأمم يودون ملوكهم وملكاتهم وداد الانكليز لملكتهم • فهذا جعلنى أزداد رغبة فى مشاهدة الملكة التى أشبه بحجر المغناطيس تجذب اليها قلوب الدانى والقاصى •

وحسبك شاهدا على ذلك ما رأيته بالأمس فى قصر البلور • فان الناس طرا لما سمعوا الموسيقى تصدح بغناء الملكة نهضوا جميعا وكشفوا عن رؤوسهم اجلالا لذكر اسم الملكة • لعمرى لم يحرضهم أحد على القيام وانما قاموا من تلقاء أنفسهم لشدة توددهم الى ملكتهم المعظمة •

ولا جرم أنها عز الأمة البريطانية ومجد المملكة وأصل نجاح الشعب وفلاحه ، فمن لا يوخذ من جانبى الدهشة والتعجب عندما يرى امرأة جالسة على كرسى مملكة عظيمة لا تغرب الشمس على سلطانها وهى تحكم وتسوس ولا يجرى فى الملك شىء بدون أمرها • فسبحان من أعطى هذه المرأة حكما وعلمها الجلوس على العرش وأيدها على سياسة الملك وجعل الأمة تنقاد اليها انقياد البنين لا انقياد العبيد • فهى تسحر الناظر اليها ليس بعظمة سطوتها وتلالء الجواهر التى تسطع عليها وحواليها من كل جهة وانما تجذب القلوب اليها بلطف وأنس لا مزيد عليهما ولا مثيل لهما ، وهذا اللسان قاصر عن وصف جميع محاسنها صانها المولى وأبقاها ذخرا للملك وعزا لأمة الانكليز آمين •

الباب التاسع عشر

فى زيارة سعادة السلطان لدوق اف كمبريج

خرج السيد برغش أيده الله فى حشمه يريد زيارة دوق اف كمبريج فى منزله ، فخرج الدوق الى لقائه ورحب بقدومه ، ثم أتى به الى قاعة الاستقبال وجلسا يتفاوضان برهة من الزمان •

وكان الدوق لابسا الملابس الرسمية فى زى سر عسكر الجنود البريطانية لأنه كبير قواد العساكر وهو ابن عم الملكة فيكتوريا ، ولد سنة ١٨١٩ • وله راتب سنوى من الدولة بمنزلة أمير من أمراء العائلة الملوكية ١٢٠٠٠ ليرة • وله أيضا راتب سنوى ٤٤٣٢ ليرة بمنزلة كونه كبير قواد العساكر البريطانية • وله أيضا رواتب سنوية غير ما ذكرنا ويبلغ ايراده السنوى نحو ٢٠٠٠٠ ليرة ومنذ وفاة أبيه الى الآن نال من الأمة الانكليزية نحو ٤٠٠٠٠٠ ليرة انكليزية •

وبعد أن لبث السيد برغش أعزه الله يتفاوض مع الدوق بواسطة ترجمان استأذن من الدوق بالانصراف وشكر له مكارمه وحسن ترحابه بقدومه • ثم خرج يريد الاياب الى منزله •

وفيما هم كانوا سائرين قال السيد برغش لكبير وزرائه • ما رأيك فى هذا الدوق • عندى هو جندى بطل وكل شعرة من شعره دليل على جبروته • ولكن لهذا الجندى البطل قلب حنون أيضا • فانى رأيته يود أهله مودة قلبية وسار بى من حجرة الاستقبال الى حجرة درسه وأرانى هناك كتبه وتواليفه وصور أولاد أخته وهو يجل الملكة غاية الاجلال • فان كان قائد الجنـــود الانكليزية هو هذا البطل فلا عجب ان تكون جنوده غير مقهورة • عز الجنود قائدهم • بارك الله فيه وفى أمته •

البـــاب العشرون

فى زيارة سعادة السلطان لدار الندوة

فى اليوم ٢٤ من جون (حزيران) خرج السيد برغش أعزه الله فى حشمه يريد الفرجة على دار الندوة بلندن فلما بلغ باب الدار لاقاه الماجيور جوست والكولونل فورستر واقتادا سعادته الى رواق الشرفاء والأعيان .

وكان أعضاء المجلس من اللوردات والشرفاء جالسين على كراسيهم بترتيب وهم يتباحثون فى أمور السياسة ومصالح الأمة ، وكان وقت دخول سعادة السلطان سار هاركورت جونستن يخطب فى المجلس ويطلب من أعضـــاء الديوان أن يتفقوا على ابطال الســــنة المفروضة فى الأمراض الوبائية ، وكان السيد برغش أعزه الله جالسا فى أعلى مكان من دار الشورى ينظر الى الأعيان وأعضاء المجلس ورجال السياسة ، وكان جناب الدكتور باجر والدكتور كيرك يترجمان لسعادة السلطان ما كان يتفاوض به أعضاء مجلس النواب .

وكان فى غرفة من غرف المجلس جماعة منصبين على الكتابة ، فســـأل سعادة السلطان عن حال اولئك الرجال ، وعما كانوا يفعلونه ، فقال له جناب الدكتور باجر ان الرجال الجالسين فى تلك الغرفة هم مكاتبو الغازيطات[1] والنشرات اليومية يحضرون كل يوم دار الندوة ليسمعوا مفاوضات نواب الأمة وينقلوها خطا ثم يسلموها لرجل من رجال التلغراف القائم بالباب وهو

---

(١) الغازيطات اى المجلات ، واصل الكلمة ماخوذ من عملة صغيرة كان الناس يشترون بها المجلات التى كانت تصدر فى القرن السادس عشر فى شكل بدائى متضمنة أخبار الناس الخاصة ورحلات السفن وما جاء به البحارة من اخبار واشياء (المراجع) .

يرسلها حالا الى أرباب الجرائد فيطبعونها وينشرونها فى برهة نصف ساعة وأحيانا تذاع خطب أعضاء المجلس فى المملكة كلها قبل انقضاء الجلسة نفسها وخروج أعضاء المجلس من الديوان وكثيرا ما يرى الخطباء خطبهم التى تلوها فى المجلس منذ بضع دقائق مطبوعة فى الجرائد التى تباع على باب دار النـــــدوة •

ثم لم يلبث السيد زمانا طويلا فى مجلس الشورى ليرى انشقاق آراء الخطباء ونواب الأمة كمألوف العادة ولكنه خرج فى رجاله ودخل مخدعا مظلما وهو الديوان الذى سجل الوزراء فيه قضية الحكم بالموت على كثيرين من رجال انجلترا • وكان الفقيه جرجس باجر يتلو على سعادته أســماء هؤلاء من رجال السياسة الذين حكم عليهم بالموت فى ذلك المجلس فى عصور مختلفة •

وكان ذكر تلك الحوادث المحزنة يؤثر تأثيرا عظيما فى نفس سعادة السلطان ورجاله •

ولـــا كانت دار الندوة بلندن (البارلمنت)[1] من الأبنية الفاخرة المشهورة رأينا أن نطبع رسمها فى هذا الكتاب ونصف ما فيها من المجالس والأماكن المشهورة فى تواريخ الأمة البريطانية •

وتتألف دار الندوة من مجلسين كبيرين أحدهما مجلس الأعيان[2] ويحضره اللوردات والأمراء • وثانيهما مجلس نواب الأمة تحضره رجال

---

(١) يقصد البرلمان •
(٢) ويسمى مجلس اللوردات وهى التسمية الأصح •

تنتخبهم الأمة لينوبوا عنها فى الذب عن مصالحها • ويضم مجلس الأعيان نحو ٤٥٠ عضوا منهم ٣٠ عضوا من زعماء الدين والباقون من اللوردات •

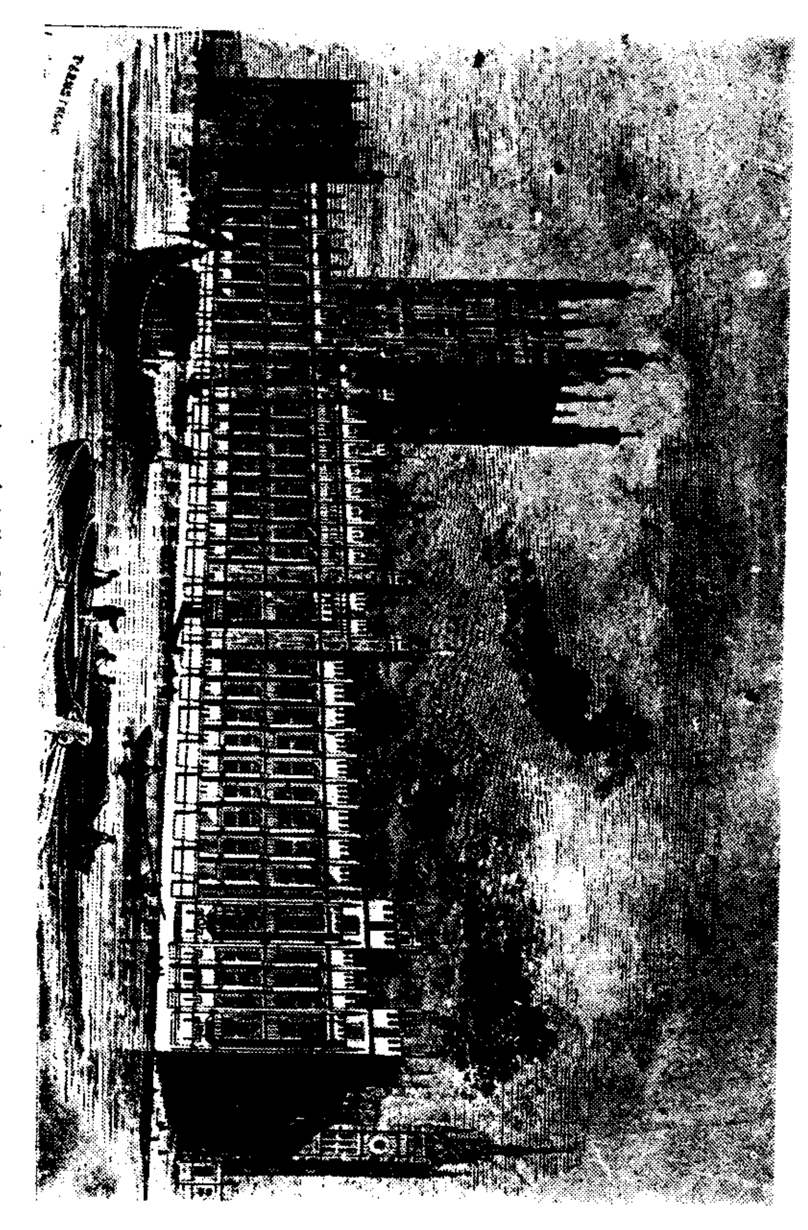
وفى هذا المجلس من الغرائب التى لا يدركها الا القليلون تستحق الذكر منها تشترط الشريعة البريطانية على النساء اللاتى يحضرن مجلس الأعيان بحجة الفرجة ان يجلسن فى غرفات عالية وينظرن الى الأعضاء من وراء مشبك من نحاس •

كذلك تشترط على رئيس المجلس ان يجلس على كيس محشو من الصوف وليس على كرسى كباقى أعضاء المجلس • وذلك ليتذكر هو وقومه أن ثراء بلادهم صادر عن تجارة الصوف ومنسوجاته • وكذلك المكان الذى يجلس عليه رئيس المجلس فوق كيس الصوف لا تحسبه الشريعة البريطانية من ملحقات المجلس وان كان ضمن القاعة نفسها • ولهذا اذا قام الرئيس ليخطب فى المجلس ترتب عليه أن ينزل عن كيس الصوف ويدخل دائرة كراسى الأعضاء ويتلو خطابه عليهم هناك •

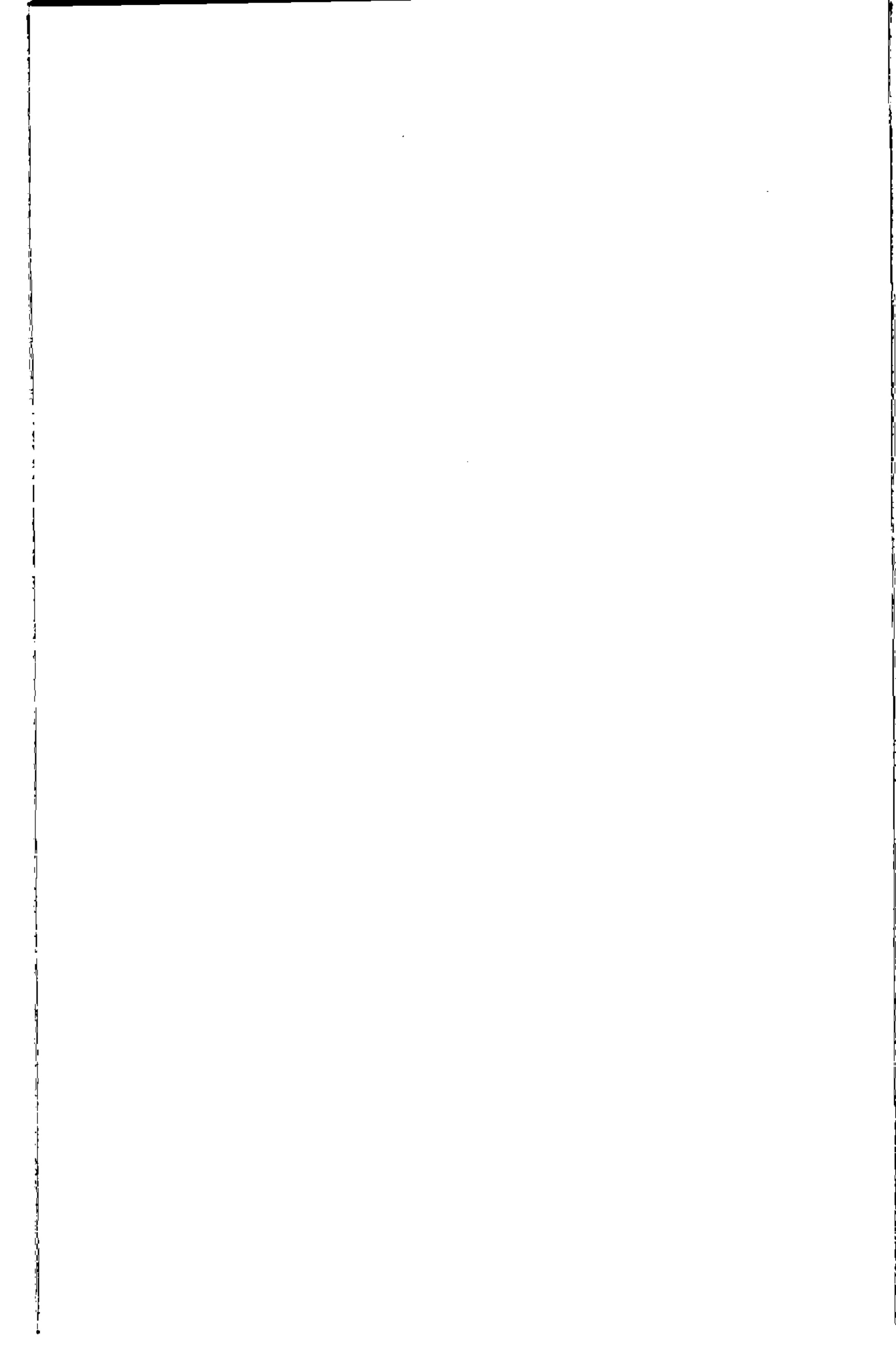
أما البارلمنت فعلى أصول القانون الأساسى يجب أن يتغير وزراؤه وأعضاؤه كل سبعة أعوام مرة • ولكن قد جرت العادة بتغييرهم أحيانا قبل ختام السنين السبع • ومتى مست الحاجة الى تغييرهم قدمت الملكة بموكب حافل الى دار الندوة واللوردات والشرفاء والأعضاء مجتمعون فيها • ثم تستوى على عرش منصوب فى صدر القاعة وعلى يمينها ولى العهد وعلى شمالها ثانى أولادها •

وفى ذيل العرش كراس مخصوصة يجلس عليها زعيم دينهم رئيس أساقفة كنتربرى ورئيس أساقفة يورك ثم يجلس بعدهم باقى الأساقفة •

ويجلس اللوردات الذين لهم صوت فى الانتخاب على كراس فى آخر



(رسم دار الندوة او البارلمنت بلندن)



القاعة أمام العرش واللوردات الذين لم يبلغوا السن المطلوب لصحة اعطاء الصوت بالانتخاب يجلسون وراء العرش •

وأما نواب الأمة فيلبثون واقفين على الساق فى مؤخر القاعة •

ويتألف مجلس النواب من ٦٥٨ نفسا منهم ٤٧١ من الانكليز العريقين و ٢٩ من شعب الغولواء و ٥٣ من أهل سكوتلند و ١٠٥ من أهل ايرلندا •

وهؤلاء الأعضاء ينتخبهم أهل البلاد المذكورة من المدن والقرى الخاضعة للمملكة البريطانية المتحدة ويشترك مع هؤلاء الأعضاء زعماء المدارس الكبار أوكسفرد وكامبرج ودبلين • وكل من ملك عقارا فى المملكة بقيمة أربعين شلينا وصاعدا له حق فى اعطاء صوته بانتخاب نواب الأمة (أو المبعوثان)[1] • وكذلك كل من كان له مدخول سنوى من أملاكه بقيمة عشر ليرات وصاعدا ومن كان له عقارات يدفع عليها رسما للميرى بمبلغ ٥٠ ليرة وصاعدا له حق فى الانتخاب والذين لهم منازل فى المدن والقرى يستأجرونها بقيمة عشر ليرات سنويا لهم كذلك صوت فى انتخاب الأعضاء ، وأضف الى هؤلاء كل من كان حراً متمتعا بامتيازات المدنية البريطانية •

أما فى ايرلندا واسكتلند فالصفات المطلوبة فى المنتخبين تختلف عن الصفات المطلوبة فى الانكليز العريقين • ثم يترأس على مجلس النواب رجل يوصف بالخطيب ويجلس فى أقصى القاعة ولا يحق له أن ينتخب أحدا الا اذا وجد عدد المنتخبين من الطرفين متوازيا فينتخب حينئذ من يشاء حتى يرجح عدد أصوات أحد الطرفين •

---

(١) المؤلف حين يسمى البرلمان الانجليزى (المبعوثان) فهو يتأثر بتركيا فقد كانت تسمى مجالس الشعب مجلس المبعوثان (المراجع) .

ثم ينهض وزراء الملكة ويعرضون على أعضاء البارلمنت المسائل الواجب قيام البحث عنها • ولكل عضو من أعضاء دار الندوة حق فى القاء ما يستحسنه من المسائل والاقتراحات على مجلس النواب • ثم يخطب اثنان من الأعضاء خطبتين فيما نيط بأغراضهما واقتراحاتهما ، وبين خطبة وخطبة برهة من الزمان يتمكن فيها الأعضاء من امعان النظر فى صواب اقتراحات الخطيبين أو عدم صوابها فاذا رفض الأعضاء اقتراحات الخطيب الأول بعد أول مباحثة عنها امتنع على ذلك الخطيب اعادة اقتراحاته بنفسها فى تلك الجلسة • ولكن متى خطب الخطيب الثانى اجتمع الأعضاء الى واحد وأخذوا يتباحثون فى اقتراحاته بنداً بنداً ومتى فرغوا من البحث عنهـا دون الكاتب آراءهم فى رق •

ثم يقوم خطيب ثالث ويعرض على الأعضاء اقتراحاته • فان استصوب الأعضاء اقتراحاته صدروها بعنوان وأرسلوها صحبة معتمد الى مجلس اللوردات الأعلى ومتى دخل المعتمد ذلك المجلس نهض رئيسه ونزل عن كرسيه الى درابزون القاعة واستلم العرض من المعتمد •

ثم يعرض الرئيس تلك الاقتراحات ثانية على اللوردات ويباشرون مناقشـتها • فان رفضوا قبولها أدرجت فى طى النسيان وباد ذكرها مع الدوى • وان استصوبوها أعلموا بقبولها مجلس النواب • واذا اعترض بعض من اللوردات على بند من بنود الاقتراحات أعلنوا بذلك مجلس النواب الأدنى وبعد ذلك ينتخب مجلس اللوردات ومجلس النواب رجالا يتبصرون فى كنه المسألة ويحلون مشاكلها • ومتى زالت الموانع اقتضى التوقيع عليها من جلالة الملكة وليس لجلالتها حق فى رفض التوقيع على تلك الاقتراحات المصادق عليها من مجلسى اللوردات ونواب الأمة ومن ثمه تصدر الملكة براءة مرسوما فى تنفيذ تلك الاقتراحات •

وقد جرت العادة من قديم الزمان الى الآن أن ينادى حاجب مجلس

البرلمنت بتوقيع الملكة على تلك الاقتراحات ليس باللغة الانكليزية بل باللغة الفرنساوية القديمة ، فاذا كانت الشريعة (المشروع) المقترح اجراؤها عائدة على خير الأمة قاطبة نادى الحاجب بصوت جهير فى نادى أعضـــاء المجلس وقال « قد صدر أمر الملكة بهذا » • واذا كانت الشريعة لا تعم الأمة نادى الحاجب وقال « فليكن لكم كما تشتهون » •

ثم من جملة أصول البارلمنت البريطانى لا يحل لخطيب أن يكتب خطابه فى رقعة ثم يتلوه • ولكن متى أراد عضو من الأعضاء أن يخطب فى المجلس نهض عن كرسيه ووجه خطابه شفاها الى رئيس المجلس وحده • هذا ما كان من أمر البارلمنت وأعضائه وأصوله •

ولنرجع الى الكلام على بناء دار الندوة ونقول كان قصر البارلمنت القديم قد احترق برمته سنة ١٨٣٤ فعول رجال الدولة البريطانية على بناء دار عظيمة تليق بأمة غنية بالمال وقوية بالرجال ، وباشر المهندسون ببنائها على هندسة موسيو شارلس بارى سنة ١٨٣٧ •

ويشغل هذا البناء نحو ثلاثة فدادين من الأرض ونيف وفيه أكثر من ٥٠٠ حجرة ماعدا احدى عشر رواقاً يشغلها المأمورون والموظفون وأرباب المناصب العالية •

وقد أنفقت الأمة على بنائه ٦٠ مليونا من الفرنكات ، ويبلغ طول واجهته التى من ناحية نهر التيمس نحو ٣٠٠ ذراعا وفيها نوافذ وطاقات عديدة على شكل هندسة الغوطيين ، وبينها محاريب قد وضعوا فيها تماثيل ملوكهم القديمة من عهد غليوم الغازى الى عهد الملكة فيكتوريا الحاضرة •

وفى زاوية الواجهة الوسطى قد شادوا بناءً مربعاً على شكل منارة يبلغ ارتفاعه نحو ١٠٠ ذراعا ونيف وقد وضعوا فى أعلاه ساعة كبيرة دقاقة مموهة بذهب وجعلوا فوقها مصباحا من نور المغنيسيوم يقارب ضوء النور الكهربائى • وعلى قمة المنارة أشهب مذهبة يبلغ ارتفاعها نحو ٣٠ ذراعا ونيف •

وجرس هذه الساعة أكبر من جميع أجراس بلاد الأنكليز • وكان قد عنى فى تركيب دواليب هذه الساعة وأوائلها مستر ايرى الفلكى البارع ناظر مرصد كرينج فى ضواحى لندن وجعلها تدل على جميع حركات الزمان من ثوان ودقائق وأرباع وأنصاف وساعات وأشهر وأعوام •

وقد شادوا فى واجهة القصر الجنوبية برجا مربعا اسمه برج فيكتوريا وهو أعلى برج على سطح الكرة الأرضية وأمتن بناء يبلغ عرض واجهته نحو ٤٠ ذراعاً ويبلغ علوه نحو ١٢٠ ذراعا ودام بناؤه نحو ١٧ سنة • وقد صمدوا على جانبى القصر الملوكى من الجهة الغربية تمثالى أسدين كبيرين من حجر وفوقهما راية الدولة الانكليزية ورموز الجزيرة البريطانية وهى تماثيل سان جورج ولى الانكليز وسان اندريا ولى أهل اسكوتلندا وسان بتريك ولى أهل ايرلاندا وتحت هذه قد وضعوا تمثـــال الملكة فيكتوريا الحالية • والبرج الوسطانى (الأوسط) هو أوطى من بقية البروج ويبلغ ارتفاعه نحو ١٠٠ ذراع •

وفى جانب هذا القصر قاعة فسيحة شامخة البناء فيها مجلس القضـــاء للفصل فى الدعاوى • وقد صممت الدولة على هدم هذه المجالس وشادت داراً عظيمة البناء فى شارع استراند لقيام الدعاوى فيها وجعلها دار الحكم والقضاء • ويزعم البعض ان دار البارلمنت تفوق سرايات باريس والبلجيك وغيرها وهذا وهم منهم • ولمـــا تريد الملكة الحضور الى دار الندوة تدخل

القصر من الباب الملوكى الذى بجانب برج فيكتوريا السابق ذكره • وفى منتهى دهليز الباب قاعة فسيحة معدة للملكة وللخواتين[١] الشريفات اللاتى يلبسن الملكة ملابسها الملوكية قبل الدخول الى دار الندوة •

وعلى شمال دهليز البرج المربع رواق من حجر اسمه رواق النورمان لأنهم قد وضعوا فيه تماثيل ملوك الانكليز النورمانيين[١] وبجانبه الرواق الملوكى وفيه تماثيل وتصاوير من جملتها صورة الدوق ويلينكتن[٢] الذى قهر نابوليون الأول وهو يقابل بلوخر فى وقعة وترلو • ثم قد أقاموا فوق قنطرة تمثال الملكة فيكتوريا وعلى يمينها وشمالها تمثالا الرحمة والعدل •

وقد صوروا على أعلى جدران القاعة صور الملوك والملكات منها صورة الملك هنرى الثامن بهذا الاسم وصور جميع نسائه وصورة الملكة مارى وصورة الملك فيليب الثانى وصورة الملكة مارى أستوارت وصورة الملكة اليصاباث وصورة الملكة مارى دى جيز وصورة الملك فرنسيس الثانى وغيرهم •

أما القاعة التى يجتمع فيها اللوردات للشورى فهى على هندسة قوطية وسقفها وجدرانها مموهة بالذهب وبألوان مختلفة وطولها نحو ٣٥ ذراعا وعرضها نحو ٢٠ ذراعا وعلوها نحو ١٨ ذراعا وفيها اثنتا عشرة طاقة للنور وعليها ألواح من الزجاج الملون ومصور عليه تصاوير الملوك والملكات بالترتيب التاريخى من عهد الملك غوليوم الغازى الى عهد الملكة فيكتوريا الحالية •

وفى منتصف هذه القاعة موجود الكيس المحشو صوفا الذى يجلس

---

(١) الخاتون كلمة أثرت عن الاتراك فى وصف السيدة الممتازة مقاما وخلقا .
(٢) يقصد النورمانديين كما نكتبها الآن ، والأصح ما ذكره المؤلف (المراجع) .
(٣) يقصد ولنجتون .

عليه رئيس مجلس الأعيان • وأما كراسى باقى اللوردات فهى مصفوفة ثلاثة أدوار على طرفى القاعة دور أوطى من دور •

وأقصى طرف القاعة الشمالى معين لنواب الأمة • ومتى استوت الملكة على العرش نادى المنادى بصوت جهير وقال « قد استوت الملكة على العرش فهلموا أيها النواب الى المثول بناديها » •

وفى أثناء ذلك يبادر نواب الأمة الى قاعة دار الندوة ويلبثون واقفين بين أيدى الملكة أما اللوردات فيجلسون على كراسيهم •

أما القاعة المختصة بنواب الأمة فيبلغ طولها نحو ٣٠ ذراعا وعرضها نحو ٢٠ ذراعا وعلوها نحو ١٧ ذراعا وليست مزينة بنقوش مثل قاعة اللوردات والشرفاء • وكراسى أعضاء المجلس مصطفة دور أوطى من دور على شبه دائرة • وفى هذه القاعة أماكن يجلس عليها مكاتبو صحف الأخبار المنفوجون •

وفى هذه الدار الذائعة الصيت قد جرت حوادث تاريخية مهمة منها ان الملك ادورد الثالث بهذا الاسم قبل الملك • ومنها أن أوليفار كرومويل العاتى أتخذ لنفسه فى هذه القاعة تسمية « السيد المحامى عن الوطن » وبعد أربع سنين قطع الشعب رأسه وعلقوه على خشبة فى هذه القاعة نفسها بين أربعة جماجم من أعوانه وهم برادشو وايريتون وويليام والس وتوماس مور •

ومنها أيضا أن المحامى سمرس والكونت سترافورد حكم عليهما بالموت فى هذه القاعة • ومنها أن القضاة الذين حكموا على كثيرين من المعارضين بقطع رءوسهم كانوا جالسين فى هذه القاعة • ومنها أيضا أن وارن هاستينك حكم عليه بالموت جهارا فى هذه القاعة ومن ثمه كانت دار الندوة هذه شهيرة ببنائها وبتاريخ الحوادث التى جرت فيها •

وفى هذه الدار مخادع وغرف كثيرة غير التى ذكرناها وقد اختصرنا فى وصفها مخافة الاسهاب والملل . وانما نقول ان من ينظر الى دار الندوة من ظاهرها يراها كثيرة النقوش والزخرفة . ولكن رطوبة هواء النهر الذى يجرى على طولها ودخان لندن الأسود قد أثرا فى حجارتها الرخوة وأضرا بها وصارت دار الندوة مع كبرها وعظمتها تبدو فى عين الناظر سوداء يصدم الغريب من النظر اليها .

أما الانكليز وغيرهم من أمم أوروبا فيعتبرون ذلك السواد فيها ضربا من الزينة التى تزيد فى اعتبارها بناءً على أن ذلك يجعلها تبدو قديمة عهد . وكل شىء زاد قدما زاد اعتبارا فى أعين أهل أوروبا .

أما أهل المشرق فلم يعبأوا بهذا وانما يعتبرون الأشـياء بحسب استحقاقها وقدرها الذاتى لا بحسب العوارض الطارئة عليها أما نحن فلا نتعرض لذم أهل أوروبا ولا نلوم أهل المشرق فى هذا الصدد فلكل من الفريقين حجج يستند اليها فى اثبات رأيه وما على الذوق جدال .

الباب الحادى والعشرون

فى زيارة سعادة السلطان لمستشفى سانتوماس

خرج السيد برغش فى جماعة من وزرائه مصحوبا بخليله جرجس باجر الفقيه والدكتور كيرك يريد الفرجة على مستشفى سانتوماس وهو من أكبر مستشفيات لندن وربما هو أعظم مستشفى فى الدنيا . فلما بلغ السيد فى موكبه الحافل باب المستشفى خرج الى لقائه سار فرنسيس هيكس أمين صندوق المستشفى ومستر والكر المدير ومستر جون سيمون وجميع أطبـاء المستشفى واسترحبوا (رحبوا) بقدومه .

ثم أدخلوه أولا قاعة المصابين بالرمد ثم الى القاعة التى أنشأتها السيدة نايننتغال الكريمة من مالها لخدمة المستشفى ثم اصطحبوه الى القاعة التى وضعت أساسها جلالة الملكة سنة ١٨٦٨ ٠

وكان فى القاعة حجر منقوشة عليه وصايا موسى النبى بالقلم الانكليزى فترجمها الفقيه باجر الى سعادة السلطان بالعربى ٠ وفيما كان السلطان يتفقد ما فى القاعة لاحت منه التفاتة الى تمثال الملكة الموجود فى الصـــدر فسر بمشاهدته وأثنى على مهارة مستر نوبل الذى أتقن نحته ٠

ثم صعد سعادته الى الرواق الأعلى وهو أضيق من الرواق التحتى فتعجب السيد من اتقان بنائه المحكم ومن اتساعه الذى يبلغ نحو ٩٠٠ قدم ونيف ومع اتساعه وعلوه لا يستند سقفه الى عمد ٠

ثم سار الى قاعتى فيكتوريا والبرت ٠ فواحدة منهما معدة للمرضى الرجال والثانية معدة للأطفال ٠ ومن هناك خرج الى المنظرة التى تشرف على نهر التيمس ودار البارلمنت وبعد أن تفقد مخادع المرضى ورأى ما هى عليه من السعة والنظافة وحسن الترتيب سر بذلك غاية السرور وقال ما هذه دار مرضى بل منازل تبارى قصور الملوك ٠

ثم التفت واحد من وزرائه الى مدير المستشفى وقال له لابد من نفقة وافرة للقيام بأعباء هذا المستشفى العظيم ، قال المدير فى جوابه يبلغ دخل الدار ٣٠٠٠٠ ليرة فى السنة وكلها تنفق فى سبيل الله ٠

وفيما كان السلطان أعزه الله مارا بمخادع المرضى كان المصابون ينظرون اليه بأعين الارتياح والسرور وروح المحبة تشف عن وجوههم التى قد علاها الصفار وشوهها السقام ٠

وما زاد سعادة السلطان سرورا كان ما نظره من أصناف الملاعب التى يحضرها خدام المستشفى لتسلية الأولاد والأطفال المرضى فالتفت السيد الى سار فرنسيس هيكس وأثنى على هممه الخيرية وحسن سعيه فى تزويد المستشفى بكل ما يخفف على المرضى والمصابين أثقال أسقامهم وقال لا عجب ان هذه حسنة كبرى عند الله •

ومن غريب ما اتفق فى أثناء ذلك من الحوادث هو أنه ريثما كان السلطان صانه الله خارجا من المستشفى ليدخل مركبته واذا بلوح من الزجاج السميك الذى كان يغطى سقف مدخل المستشفى هبط الى الأرض وتحطم على درج الباب قبل وصول سعادته اليه • وكان الباعث على ذلك ان أحد الخدم رغب فى أن يرى سعادة السلطان وهو خارج من الباب فقفز من احدى الطاقات الى السطح المسقوف بألواح الزجاج ليشرف على مركبة السلطان فانكسر اللوح من عزم ثقل الخادم وسقط محطما الى الأرض • وبلطفه تعالى لم يمس سعادته شىء من الخطر فى تلك الحادثة •

الباب الثانى والعشرون

فى حضور سعادة السلطان مأدبة الملكة

أصدرت جلالة الملكة فيكتوريا أمرها السامى باتخاذ مأدبة غناء ملوكية اكراما لسعادة السلطان فى قصرها المسمى بوكينكهام ثم أرسلت كتابا الى سعادة السلطان تعرض عليه تشريف وليمتها بحضوره • فأجاب السيد دعوتها بلطف وشكران وحضر هذه المأدبة الأمير أف ولس ولى العهد وقرينته وكان فى خدمتهما السيدة لادى ايميلى كينكسكت والسيدة الشريفة استونر ولورد كولفيل ولورد سوفيلد والشريف وود وملازم الأميرالاى تيسدال •

ثم حضرت أيضا جلالة ملكة نذرلند وفى خدمتها البارونيسة الشريفة لبرج والبارونيسة ديدم والبارون فان سيمونشاف والبارون ويكورلين •

ثم حضر أيضا الأمير كريستين شلسيك هولستين والأميرة قرينته وكان فى خدمتهما القبطان الشريف ايليوت وليدى سوسان لسلى مليفل الشريفة •

ثم حضرت أيضا الأميرة لويسة ابنة جلالة الملكة فيكتوريا وزوجها الماركيز أف لورن وفى خدمتهما لادى (ليدى) صوفيا مكنمارا والأميرالاى ليندسى الشريف •

ثم حضر كذلك الأمير دوق أف ايدينبرة ثانى أولاد جلالة الملكة وزوجته الدوقسة ابنة قيصر روسيا وكان فى خدمتهما لادى مارى بطلر والقومندان لورد رمزى •

ثم حضر أيضا الأمير دوق أف كننوت ثالث أولاد الملكة وكان فى خدمته القبطان فيزجيرالد •

ثم حضرت أيضا الأميرة غراندوقسة أف مكلمبرج استراليز وفى خدمتها لادى كارولين كست الشريفة •

ثم حضر أيضا الدوق الشريف أف تك وزوجته الأميرة الدوقسة ابنة الملـــكة •

وبعد هؤلاء الأمراء والأميرات وصل السيد برغش سلطان زنجبار أعزه الله وفى حشمه حمود بن حمد وحمد بن سليمان ومحمد بن حمد وناصر بن سعيد والدكتور كيرك والفقيه جرجس باجر ومستر كليمنت هيل •

ثم حضر بعدهم أمير لينجن والأمير سكس ويمر وكونتيسة دونبرج وسعادة ماهرجاه دوليب سنج وزوجته ماهرانى والكونت اكليشن والكونتيسة زوجته •

وكانت الأميرة أف ولس زوجة ولى العهد لابسة ثوبا من الحرير الأبيض بلون العاج على أطرافه سيور من القطيفة السمراء منضدة بالورد • وكان على رأسها تاج من الماس وفى عنقها قلادة من اللؤلؤ والماس • وكانت حاملة على صدرها نيشان فيكتوريا وألبرت ونيشان كاثرينا ملكة الروسية ونيشان عائلة دانيمركا الملوكية •

وكانت الأميرة شلسيك هولستين مرتدية ثوبا من الحرير الأبيض بلون أغبر وعلى أطرافه سيور مزركشة من نسيج بلاد الصين وعلى رأسها تاج منضد بالماس وحجارة لازورد وفى عنقها قلادة من الماس ، وكانت حاملة على صدرها نيشان فيكتوريا والبرت ونيشان سانت كاثرينا الروسية ونيشان دولة البورتوكيز ونيشان سكس كوبرج ونيشان عائلة غوثا الملوكية والنيشان البروسيانى •

وبعد ان اجتمع المدعوون واستوى المحفل باشر المغنيون بالغناء والعزف بآلات الموسيقى وكان عدد المطربين العازفين بالآلات نحو ١٦٠ شخصا ونيفا وكان قد صار انتخابهم من بين أشهر المطربين بلندن ، وكانت موسيقى الملكة فى معيتهم وهذا فهرس الأغانى التى غنوا بها فى تلك المأدبة :

أولا : فاتحة الغناء اسمها « شاف شاس » •

ثانيا : غناء مزدوج مطلعه « هناك نصافح بعضنا » وكلامه باللغة الايطالية • غنى به السيد روتا والسيدة زاره • وهو غناء مقتطف من الأوبرا الايتليانية (الايطالية) المعروفة باسم « دون جوفانى » •

ثالثا : مادريغال مطلعها « نرتع فى وادى الزهور » وكلامها بالانكليزى غنى بها جمع غفير .

رابعا : هوى مطلعه « سعدا لك يا بلاد العرب المحبوبة » غنت به السيدة ترابللى بتينى . وكلام المغنى بالايطالية .

خامسا : مادريغال مطلعها « أيها الملاك اللابس جسما بشريا » غنت به السيدة ادلينا باتى والسيد نيكولينى وكلامها بالايتليانى (بالايطالية) .

سادسا : هوى مطلعه « يا ليلة هادية » غنت به السيدة تيسيان باللغة الايتليانية .

سابعا : هوى مطلعه « نفســـــها الحزينة » وكلامه باللغة اللاطينية (اللاتينية) غنى به السيد نيكولينى .

ثامنا : هوى باللغة الايتليانية مطلعه « الآن أنا وحدى » مقتطف من الأوبرا الايتليانية المعروفة باسم « فراديافولو » غنت به السيدة زارا .

تاسعا : مقالة حماسية غنى بها جم غفير . وكان كلامها باللغة الجرمانية (الألمـــانية) .

عاشرا : غناء ايتليانى اسمه بريندیزى ومطلعه « السر » مقتطف من الأوبرا الايتليانية المسماه « لوكراسيا بورجيا » غنت به السيدة حنه دى بيـــــلوكا .

حادى عشر : غناء اسمه « رومانزا » مقتطف من الأوبرا المسماة

لافافوريتا ومطلعها « لكل هذه المحبة » وكلامها بالايتليانى غنى به السيد روتا •

ثانى عشر : غناء مزدوج مقتطف من الأوبرا الايتليانية المسماة « سيميراميدا » (ملكة بابل) مطلعه « يا له من يوم تعيس فقدت فيه حبيبى » غنت به السيدة تيسان والسيدة تريبلى بنتينى •

ثالث عشر : غناء ايتليانى مطلعه « أيها الطيف اللطيف » غنت به السيدة ادلينا باتى •

رابع عشر : غناء مزدوج مقتطف من الأوبرا الايتليانية المسماة « ايل تروفاتورى » مطلعه « اذا أشقاك التعب يا أماه » وهو غناء رخيم يحن له قلب الجلمود غنت به السيدة حنه دى بيلوكا والسيدة نيكولينى •

خامس عشر : غناء مثلث الأصوات مقتطف من الغناء المعروف باسم « الزيجة السرية » وكلامه بالايتليانى ومطلعه « احنيت له برأسى تحية وسلاما » غنت به السيدة اديلينا باتى والسيدة زاره والسيدة تريبللى •

سادس عشر : خاتمة الغناء كانت مقامة الدول البريطانية وكلامها بالانكليزى ومطلعها « اللهم احفظ الملكة » عزفت به الموسيقى الملوكية بادارة السيد كوزين •

أما رجال السياسة الذين حضروا هذه المأدبة الشائقة مع حريمهم فهذه أسماؤهم •

سفير الدولة العثمانية موسوروس باشا وابنته السيدة موسوروس وباقى رجال السفارة العثمانية • ثم سفير دولة اوستريا والمجر وكاتم سره وباقى رجال السفارة • ثم سفير دولة جرمانيه وزوجته الكونتيسة

ماري مونستر وباقى رجال السفارة • ثم سفير الدولة الروسية ومن لاذ به من رجال سفارته • ثم سفير دولة هوندورا وزوجته السيدة غوتيرس والسيدة بريتشارد والسيدة سيلفا فيررو وباقى رجال السفارة ثم سفير دولة سالفادور وغواتيمالا والسيدة قرينته • ثم سفير دولة الدانيمرك وزوجته السيدة دى بوللو والسيدة غوش وباقى رجال السفارة •

ثم سفير دولتى سويد ونروج والبارونيسة هوكشيلد والكونتيسة استيبوك وباقى رجا لالسفارة • ثم حضر سفير دولة البيرو وزوجته السيدة غالفر والسيدة المونتى وباقى رجال السفارة • ثم سفير دولة البورتكيز وزوجته دوقيسة سالدنها والفيكنتيسة دوبرات والسيدة اكويلينان وباقى رجال السفارة • ثم سفير دولة هولنده وزوجته الكونتيسة دبيلاند والسيدة رويسنور ومعتمد السفارة •

ثم سفير جمهورية البلاد المتحدة وابنتاه السيدتان شنك والسيدة هوفمان وباقى رجال السفارة • ثم سفير البلجيك وزوجته البارونة سولفينس وباقى رجال السفارة • ثم سفير دولة ايران البهية ميرزا ملكم خان وزوجته الأميرة ملكم خان والسيدة داديان وباقى رجال السفارة •

ثم سفير دولة البرازيل وزوجته البارونة دبيانيدو والسيدة دى موتا والسيدة الفيكونتسة دى كاستللو الفو وباقى رجال السفارة • ثم سفير دولة باراكويا (بورما) وأتباعه • ثم سفير دولة اليابون ورجال سفارته • ثم سفير دولة الاسفنيول ورجال سفارته •

ثم سفير دولة فرنسا وزوجته الفيكونتيسة دى لاطور دوبين وباقى رجال السفارة • ثم سفير جمهورية أرجنتين بأميريكا الجنوبية وزوجته السيدة اليفار وباقى رجال سفارته •

ثم وكيل دولة مملكة هيتيان ووكيل مملكة كوستاريكا • ثم وكيل دولة ايتاليا وزوجته السيدة مرتينو وباقى رجال السفارة • ثم كاتم سر سفارة مملكة اليونان ووكيل السفارة •

ثم الماركيز دازيليو والكونتيسة ايليونورا والكونت نيسـلورد والبارونة دى هوجل والبارونة باولين دى هوجل والسيد روبرت شـنك والبارون غرافينيز والسيد انجلى والبارون فان سيمونشاف والبارونة ليمبـورج والبارونة ديدم والبارون ويكورلين والسـيدة سكوبوليف وابنتهـا •

ثم حضر هذه الوليمة الشائقة لورد كارينس وزوجته لادى كارينس ولورد لفتينانت والسيدة دوقيسة ابركرن ولادى جيورجينا هميلتن والجنرال لورد استراثنيرن وكان حاملا عصا من ذهب فى خدمة الملكة وملازم الأميرالاى ايوارت حاملاً عصا من فضة فى خدمة الملكة •

ثم حضر أيضا رئيس أساقفة كنتربرى ويورك وارماغ ودبلين • وحضر أيضا دوق ريشمند ودوق نورفك ودوق ويلينكتن ودُوق روكسبرغ ودوق بكلش ودوق اركيل ودوق بوفورت ودوق بدفرد ودوق منجسـتر ودوق مارلبروه ودوق نورثمبرلند ودوق سانتالبانس ودوق سثرلند ودوق غرافتن •

وحضر من الدوقات الشريفات دوقسة رشـمند ودوقسة ويللنكتن وداوجر اثهول ودوقسة ركسبرغ ودوقسة بكلش ودوقسة ارجيل ودوقسة بوفورت ودوقسة بدفرد ودوقسة منجستر ودوقسة مارلبره وداوجر مارلبروه ودوقسة نورثمبرلند ودوقسة سانتالبانس ودوقسة سثرلند •

ثم حضر الماركيز سالصبرى وزوجته المركيزة • ثم المركيز انكلازى

وزوجته المركيزة ثم المركيز باث وزوجته المركيزة • ثم المركيز كونينهام وزوجته المركيزة •

ثم المركيز دروغيدا وزوجته المركيزة والمركيز هرتينكتن وزوجتـه المركيزة • ثم المركيز لوثيان وزوجته المركيزة • ثم المركيز اورمند وزوجته المركيزة • ثم المركيز سليجو والمركيزة ورشستر • ثم المركيز ايلى والمركيزة وترفرد والمركيزة ايليسبرى والمركيزة لويسة واتفرد والمركيزة داوجر هنتلى •

ثم حضر من جملة الشرفاء ارل ملمسبرى وارل داربى وارل بوشامب وارل برادفرد وارل هردويك وارل برسى وارل شروسبرى وارل ارروِل وارل دنمور وارل جرزى وارل رودن وارل مونت شارلس وارل مكلسفيلد وارل مورتن وارل امهرست وارل بسبوروه وارل شارلمونت وارل اكلارندن وارل كوبر وارل كرافن وارل دلكيث وارل دارتموث وارل دارترى وارل دنبيه وارل ديفن وارل ددلى وارل دفرين وارل درهام وارل افينكهام وارل ايلجن وارل فيترولیام وارل جاللوى وارل جراى وارل هاروبى وارل هوم وارل كنمار وارل ليفن ومرفيل وارل لنجفرد وارل مورلى وارل نورمانتن وارل رافنسورت وارل روسالين وارل شفيلد وارل اسبنسر وارل ستير وارل سترافورد وارل استراثمور وارل سيدنى وارل تنكرفيل وارل فيرولام وارل وستمرلند وارل زنتلند وارل لنسدل •

وحضر المأدبة من جملة السيدات الشريفات الملقبات بالكونتيسات الكونتيسة مالمسبرى والكونتيسة دربى زوجة لورد داربى والكونتيسة بوشامب والكونتيسة برادفرد والكونتيسة هارويك والكونتيسة برسى والكونتيسة شروسبرى والكونتيسة كاليدن والكونتيسة ارروِل والكونتيسة كنسبروه والكونتيسة مونت ادكم والكونتيسة مايو والكونتيسة دنمور والكونتيسة مونت شارلس •

ثم الكونتيسة مكفيلد والكونتيسة مورتن والكونتيسة ابردين والكونتيسة امهرست واشبرنهام وبسبروه وكلارمونت وكوبر وكرافن ودالكيث ودارتموث وافنكهام وفيتزويليان وكاللواى وجراى وهوم وكنمار وليفن وملفيل ولنغفرد والداوجر مورلى ونورمنتن والداوجر روسى وروسلين وكربروه وشفيلد واسبنسر واستير واسترافرد واستراثمور وسيدنى وتنكفيل وفيرولام ووستمرلند وزتلند ولنسلد •

ثم حضر أيضا هذه الوليمة بعض من السادات الشرفاء الملقبين باسم فيكنت منهم الفيكنت برينكتن وزوجته والفيكنت هاوردن والفيكنت بريدبرت وزوجته والفيكنت ايفرسلى والفيكنت كنتربرى وزوجته والفيكنت انفيلد وزوجته والفيكنت هاليفكس وزوجته والفيكنت نيوبورت وزوجته والفيكنت نيورى والفيكنت استراسفرد وزوجته والفيكنت سدلى والفيكنت والدن وزوجته والفيكنتيسة كليفدن وشيوتن وفوربس واسترانغفرد •

ومن جملة الأساقفة حضر أسقف كارايل وأسقف ايلى وأسقف هرفرد وأسقف ليشفيلد وأسقف اكسفرد وأسقف روشستر وأسقف وينشلستر •

ومن جملة البارونات حضرت السيدة البارونة بردة كوتس المشهورة بالكرم والسخاء والثراء •

ومن جملة اللوردات حضر لورد تندردن وهنرى سمرست واسكلمرسديل وابر كمبى وشرشل وسفيلد وكولفيل ولورد ادورد كافانديش ومتشن وابردار وآشلى وبلفيد وشارلس بروس ووالنر كمبل وكاريو وكارينكتن واكلنتن وكتستول وبيلاكوير ودنمان وذيتابلى ودوغلاس وايبورى واجرتن واليوت •

ثم لورد ازلنكتن واوثر فيتز جيرالد وفيتز هودينج وجرافيل وهمند

وهذرلى وهوارد ولرجان وميدلتن ونورثويك واوهاجن وبنرهنن وبنزاز وارجن وريدسدل ورندلشام وشارلس رسل وسلبرن وونلوك وولفرتن وروتسلى ولندسبروه ٠

ومن جملة السيدات الملقبات بلقب لادى حضرت الوليمة لادى مركريت سيسيل ولادى نورثكوت وغوردن لينوكس ولادى جوهر مانرس وادرلى ولوسى هيكس بيش وغيرهن لا حاجة الى ذكر أسمائهن وكان عددهن ١٨٥ سيدة ٠

ومن جملة السادات الشرفاء والوزراء حضر الوليمة لورد بيكنسفيلد وكان اسمه يومئذ مستر ديزرائلى ٠ وغيره كثيرون بلغ عددهم ٨٥ رجلا لا حاجة الى ذكر أسمائهم مفصلا ٠

ومن جملة السيدات الملقبات بلقب « هونورابل » حضر منهم ٥٧ ولا حاجة الى ذكر أسمائهن بالتفصيل ٠

ومن جملة السيدات الملقبات بلقب « سار » حضر سار سلوين ايبنتس وسارماللت ومالنس وهول وهوكر وجنز وجرالد واوين وارمسترونج وهوج وكلند وبنرمن وبشنان وبكستن وجراى اكرتن وغوش وهولند وجمس وكرسلك ونيتلى ولوك ومليس وارمسدن وسار داود ساسون ووين وكريسى ٠

ومن جملة السادات الملقبين بلقب « بارون » حضر البارون ديست والبارونة زوجته ثم البارون دى روشيلد أغنى الناس مالا وزوجته البـــارونة ٠

ومن جملة زعماء الدين الملقبين بلقب « ديان » حضر الوليمة ديان سانتبول وديان وستمنستر وديان ونزر ٠

ومن جملة القسس حضر الوليمة قس برش وقس بروثيرو والقس لورد اونيل والقس لورد جون ثين والقس ليك اونسلو والقس باسيل بوبوف والقس جرجس باجر الفقيه ٠

ومن جملة السادات الحائزين رتبة دكتور حضر الوليمة الدكتور اكلند والدكتور كيرك ٠

ومن جملة الأعيـــان والرجال الممتازين حضر الوليمة نحو ٢٧ مع حريمهم ٠

ومن جملة نساء الأعيان حضر الوليمة نحو ٥٢ سيدة أغفلنا ذكر أسمائهن خشية الملل ٠

ومن جملة بنات الأعيان والأكابر العازبات حضر الوليمة ٥٢ ابنة ولا حاجة لذكر أسمائهن ٠

ومن جملة الحائزين رتبة « قبطان » حضر لورد كليفرد قبطان عمارة الدولة البريطانية الملوكية ٠ والقبطان نلسن والقبطان دويل والقبطان كلين والقبطان هود والقبطان اولد فيلد ٠ ثم حضر أيضا القومندان لورد رامزى ٠

ومن جملة الحائزين رتبة « جنرال » حضر الوليمة ٢٦ جنرالا ضربنا صفحا عن ذكر أسمائهم ٠

ومن جملة الحائزين رتبة « كولونيل » « أميرالاى » حضر ٢٥ منهم مع الماجيور استرلينك وبيكرد وارمسبى والقبطان شين وفييس وكمبل وغوست وغيرهم ٠

ودامت الوليمة نحو ست ساعات وبعد اختتامها انصرف الجميع الى منازلهم بسرور وحبور ٠

الباب الثالث والعشرون

فى زيارة سعادة السلطان للورد ماير حاكم لندن

خرج السيد برغش أعزه الله فى بعض من حشمه يريد زيارة لورد ماير حاكم لندن وكانت هذه أول زيارة رسمية زار بها قلب المدينة مركز الأشغال والتجارة ٠

وكان فى معيته خليله حضرة جرجس باجر الفقيه والدكتور كيرك ومستر كليمنت هيل ٠ وكان وصولهم الى دار الحكم وقت الظهر فى ٢٥ جون ٠

وكان على باب دار الحكم الفرقة ٩٣ من جنود اسكتلنديين مصطفة فى سلام سعادته تحت قيادة الماجور نينتنغال فى درج الدار ٠

ولمـــا دنا السيد من باب القاعة استقبله مستر وين كاتم سر حاكم لندن ومستر وينزر حامل سيف الحكم والماجور كى حامل قضيب الملك والماجور كمبل مشير لندن وادخلوا سعادة السلطان الى قاعة الاستقبال الرســـمية ٠

وفى دخوله نفخت الجنود بالأبواق تسليما على ســـعادته وترحابا

بقدومه • فلما سمع السيد صوت تلك الأبواق التفت الى خليله جرجس باجر الفقيه وقال له وهو يتبسم « قد ذكرتنى هذه الأبواق بما سمعته مرارا فى زنجبار » •

وكان فى قاعة الاستقبال لورد ماير وزوجته والدرمن والشريف ايليس ومستر شريفشو والشريف ايلليوت والشريف سدويك • وبعد ان سلم السيد على حاكم لندن واظهرا سرورهما من مشاهدة بعضهما بعضا عرض حاكم لندن على سعادته ان فى نية عمدة مدينة لندن أن يقدم لسعادته عرضا فى ٢٢ جولاى أى يوليو (تموز) فى قاعة كيلد هول وان لورد ماير نفسه يريد أن يقيم لسعادته مأدبة فى دار الحكم ويطمع فى ان يشرف بحضوره اليها فأجاب السلطان دعوته بلطف وشكران وأثنى على مكارمه العميمة • ثم صافحه وانصرف بسلام •

الباب الرابع والعشرون

فى زيارة سعادة السلطان لبنك أف انكلند[1]

بعد خروج سعادة السلطان من دار الحكم قصد الفرجة على بنك أف انكلند المحاذى دار الحكم • فلما دخل اليه استقبله مديرو البنك وساروا به يفرجونه على ما فى البناء من النقود والخزائن والذهب والفضة والنحاس • فأدخلوا سعادته أولا الى قاعة طبع أوراق البنك فسر السيد غاية السرور بما رأى فيها من الأوائل التى كانت تطبع أوراق بنك بقيمة خمسة ليرات (باون) وأوراق بقيمة عشرين روبية لحكومة الهند •

ولفرط سروره بتلك الأوائل الغريبة التركيب أخذ السيد يستقصى فى

---

(١) يقصد انجلند .

أحوالها ويستفهم من مدير البنك عن تفاصيلها باعتناء شديد ، فأخذ المدير يشرح لسعادته عن أحوال تلك الأوائل بتفصيل • ثم ساروا بسعادته الى قاعة عد النقود وهناك عرضوا على سعادة السلطان أن يوقع اسمه الشريف على ورقة بنك بمبلغ ١٠٠٠ ليرة فتناولها السيد وكتب فيها اسمه الكريم بخطه ثم سلمها الى مدير البنك فتناولها المومأ اليه وشكر لسعادته ذلك •

ثم دخل السيد قاعة وزن الذهب والنقود ورأى فيها آلة صغيرة عجيبة التركيب تزن الليرات من تلقاء ذاتها وتفرق الليرات الناقصة من الكاملة ثم ترمى بالناقصة الى جهة والكاملة الى جهة أخرى •

ومن غرائب هذه الآلة انها تقف بضع ثوان عندما تزن الليرة لاتقان عيارها فالتفت السيد أعزه الله الى خليله جرجس باجر الفقيه وقال له وهو يمزح « أرى هذه الآلة كأنها تفتكر عندما تزن الليرة لتتحقق ثقلها قبل طرحها الى جهة من الجهتين » •

وكان على الجانبين كومة من الليرات مهيأة للوزن • فالتفت واحد من حشم سعادة السلطان وسأل مدير البنك ما قدر هذا الذهب المتكدس على الجانبين قال له المدير فى جوابه يبلغ نحو ٤٠٠٠٠ ليرة • فتبسم السائل وقال « هذا يوازى ما تملكه يدى من المال » •

ثم ساروا بسعادته من هناك الى قاعة أوراق البنك والصكوك الكائنة فى كهف تحت الأرض وفى دخول سعادته الى هذه الخزنة عرض مدير البنك عليه أوراق بنك قدرها مليون ليرة (باون)[1] وفرجه أيضا على كومة أخرى من أوراق البنك بمبلغ ملايين من الليرات مما يدهش العقل •

---

(١) أى باوند ويقصد به الجنيه الانجليزى .

ثم أدخلوا سعادته الى قاعة أخرى من قاعات ذلك الكهف كان فيها صندوق من حديد كبيرُ الحجم ففتحه المدير فرأى السيد فيه صرات عظيمة من الذهب فتناول المدير منها صرة وسلمها لسعادته فتناولها السيد وقال كم فى هذه الصرة من النقود • قال المدير « ألف ليرة » فتبسم السلطان وقال ما حاجتنا بمشاهدة غير هذا الصندوق فليأخذ كلّ منا صرة ويخرج وهو خير فرجة وغنيمة •

وكانت أشغال البنك سائرة على مألوف العادة بدون ان يحصل توقيف فيها حين كان السلطان يتفقد أحوال البنك ومخادعه • وكان الناس قد اجتمعوا من كل فج عميق الى ساحة البنك يريدون مشاهدة سعادته وكان حراس البنك ساهرين على حفظ الهدوء والترتيب ومنع القلاقل والازدحام •

هذا ما كان من سعادة السيد وفرجته على بنك انكلند أما ما كان من أحوال هذا البنك فنقول انه أعظم بنوك الدنيا وأوفرها غناءً ومالا وهو خزنة العالم بأسره • وأعظم أغنياء البشر شرقا وغربا يستودعون رءوس أموالهم وفضلات دراهمهم فى هذا البنك •

أما بناؤه العظيم فهو على طبقة واحدة وتحته أقبية وكهوف صخرية ويشغل من الأرض مسافة ثلاثة فدادين • وطول واجهته الجنوبية تبلغ نحو ١٢٠ ذراعا والغربية ١٤٠ ذراعا ونيف • وفى هذا البناء مخادع شتى للمديرين والمتوظفين والكتبة وغيرهم وثمانية أروقة فسيحة •

وقد شادوا هذا البناء بهندسة محكمة من صخر أصم لا تؤثر فيه النار اذا تعرض للحريق • أما قاعة الصرافة أو دفع النقود فهى فسيحة جدا وموضوع فى صدرها تمثال الملك غليوم الثالث بهذا الاسم ، وفى أعلى هذه القاعة وضعوا سنة ١٨١٢ ساعة كبيرة عجيبة التركيب ولها ست عشرة ميناء

وكل ميناء موضوعة فى مخدع من مخادع البنك على بعد ومعزل عن آلة الساعة • وقد وصلوا بين دواليب الساعة وبين كل مينا بسلك كهربائى يبلغ طوله ٢٢٥ ذراعا ونيفا فتنقل الكهرباء حركات دواليب الساعة الى المخادع الموضوعة فيها المينا ، وتدور العقارب على ساعات الوقت بضبط واحكام لا يعتريه خلل •

أما القبو الصخرى فهو تحت قاعة الدفع وقد جعلوا فيه صندوقا عظيما من الحديد يسمونه (المخدع المنيع) يحفظون فيه الذهب والفضة والدراهم الموضوعة أمانة فى هذا البنك ، وهى فى مكان أمين لا خوف عليها من سارق ينقب ، ولا نار تحرق ، وينزلون الى هذا القبو كما ينزل حفارو المعادن الى قلب الأرض فى جب عميق ، والى جانب هذا القبو أقبية أخرى فيها قضبان وأقراص من فضة وذهب لضرب الدراهم • وقبو آخر فيه أوراق بنك لم تخرج بعد الى أيدى الناس وقبو آخر فيه أوراق بنك قد دفعت قيمتها ولكنها تحفظ هناك عشر سنين قبل أن تحرق •

أما أشغال البنك فهى تحت ادارة رئيس عام ونائبه وتحت أيديهم ٢٤ مأمورا ، ولا يلبثون فى تلك الوظائف أكثر من سنة وفى ختامها ينفصلون وتنتخب الحكومة خلافهم ، ولا يسمح لمن يوظف فى ادارة هذا البنك ان يعمل فى تجارة أو فى مصلحة أخرى لحسابه الخاص أو يتاجر فى أوراق البنك أو الحوالات أو خلافها بل يفرض عليهم ان يقتنعوا بما لهم من الراتب لمعاشهم • أما رأس مال هذا البنك فكان فى بداية أمره ١٢٠٠٠٠٠ ليرة (باون) ولكن من تاريخ سنة ١٨١٦ قد بلغ ١٤٦٠٦٥٠٠ ليرة •

ثم خرجوا بالسيد من البنك وساروا به الى دار السكة التى تضرب فيها الدراهم ، وفى ذهابهم كان الشعب يتقاطر أفواجا ليرى سعادة السلطان ، وكانوا اذا رأوه حيوه بأشرف تحية وسلام ، ولمـا وصل الى دار السكة

خرج الى لقائه مستر فريمنتل مدير السكة ومعاوناه مستر روبرتس ومستر هيل وأدخلوه الى أماكن الشغل ثم طلبوا اليه أن يدون اسمه الشريف فى سجل الزوار حسب العادة ففعل ٠

ثم ساروا به الى اتون النـــار حيث يصهرون الذهب والفضة وباقى المعادن ، وأخرج الفعلة بوتقة كبيرة فيها من النحاس المصهور وأفرغوها فى القوالب المعدة لها أمام سعادته ٠ ثم انتقلوا من هناك الى مكان سكب قضبان الفضة والذهب توطئة لسك الدراهم والدنانير ٠ ثم ساروا الى مكان قطع القضبان أقراصا فى شكل صحائف مستديرة استعدادا لضربها ليرات ٠

وكانت الآلة تضرب ثم تطبع ٦٠٠ ليرة فى برهة دقيقة من الزمان ٠ ثم ذهبوا به الى مكان ضرب الشلينات ودراهم النحاس فرآها وسر بطريقة شغلها وعملها غاية السرور ٠ وبعد ان فرغ السيد من الفرجة على كل ما كان يستحق النظر اليه شكر لمدير السكة وأعوانه حسن مكارمهم وصافحهم وودعهم وخرج بحشمه الى مرسى المراكب حيث صرف بقية نهاره فى الفرجة على حسن الميناء ومرساها وترتيبها ٠ ثم عاد مسرورا غانما الى قصره ٠

الباب الخامس والعشرون

فى قبول سعادة السيد برغش لعمدة المرسلين

اليوم السادس والعشرون من شهر جون (حزيران) كان السيد برغش فى منزله فقدمت عليه عمدة جماعة المرسلين وفى مقدمتهم لورد شيشستر ٠

وكانت العمدة مؤلفة من الشريف ارثور كينرد من أعضاء مجلس النواب ومستر هابيل سميث من أعضاء مجلس النواب ومستر هولت من أعضاء

مجلس النواب وسار فاول بكستن والقبطان الشريف ماود والقس المحترم ريط ومستر ادورد هتشنسن كاتم سر الجمعية وغيرهم •

وكان فى معية سعادة السلطان الدكتور كيرك وجرجس باجر الفقيه ومستر كليمنت هيل •

فنهض لورد شيشستر وتلا خطابا باللغة الانكليزية ترجمه الى العربية الفقيه جرجس باجر الى سعادة السلطان • وهذا ملخص ذلك الخطـــاب •

قال : قد انشأت جماعة المرسلين مدارس ومنازل لتهذيب الزنوج فى سواحل أفريقية الشرقية منذ أربعين سنة وأكبر مراكزها فى جزيرة ممباسا على مسافة مائة ميل من جزيرة زنجبار ولها مركز آخر فى أصل البر على مسافة نحو ٣٠ ميلا من الساحل •

وقد اقتصر هؤلاء المرسلون على تعليم الزنوج وتهذيبهم ولم يتعرضوا الى العرب والمسلمين • وواحد من هؤلاء المرسلين اسمه ربمان قد برع فى اتقان لغة الزنوج حتى صار كواحد منهم فى لهجة اللسان وأوسعهم علما فى جوامع الكلام •

والثانى منهم الدكتور اكراب قد نبغ فى سياحته فى قارة افريقية واكتشف فيها أمورا مهمة فى فن الجغرافية • وقد ذكر سار بارتل فرير فى مخابراته مع الدولة البريطانية المحفوظة فى كتاب الدولة الأزرق عن سعى هؤلاء المرسلين فى تهذيب الرقيق المعتوقين وتعليمهم واجبات الانسانية فى ظل ظليل سعادة السيد برغش سلطان زنجبار وما يليها •

وقد ذهب المرسل ابرايس من ناصيق الى ممباسا لينشىء محلا يأوى

اليه الرقيق المعتوقون وقد أخذ معه سبعة رجال ليساعدوه فى هذا العمل المبرور • وقد عولوا على تعليم أولئك الرقيق المعتوقين صناعة الحراثة والزراعة وباقى الصنائع اللازمة لقيام المعيشة ونجاح التمدن •

وقد وعدت هذه الجمعية جلالة الملكة أن يعتنى أولئك المرسلون فى تهذيب جميع الرقيق الذين يسلمون لعنايتها ، وأن يعلموهم جميع الصنائع اللازمة • ثم كان حاكم ممباسا أن تعرض للمرسلين وأنكر عليهم قطعة من الأرض طولها نحو مسافة ميل كان يحتاج اليها المرسلون لانشاء مدرسة[1] • ولكن لمـــا عرض الدكتور كيرك هذه المسألة على سعادة السيد برغش أمر السيد بأن يرسل خبر الى حاكم ممباسا أن لا ينغص على المرسلين ولا ينكر عليهم شيئا مما يحتاجون اليه • وبحسن مساعى السيد زالت جميـــع المصـــاعب •

ولم يقتصر سعادة السلطان على هذه المكارم بل أمر أن تعفى من المكوس والضرائب جميع الأمتعة والبضائع التى يستجلبها المرسلون من أوروبا الى بلاده لحاجة المدارس ولوازم المرسلين • ولهذا حق على هذه الجمعية أن تشكر لسعادة السلطان هذه المكارم العميمة ، وتطلب الى الحق سبحانه وتعالى أن يطيل عمر سعادته بالاقبال والعز •

ثم لا يخفى على ذوى الألباب ان نطـــاق التجارة قد اتســـع غاية الاتساع منذ عنى السيد أعزه الله فى تحرير الرقيق وابطال تجارتهم من بلاده • والدليل على ذلك واضح • فان بلد لاغوس لم يكن فيها تجارة أصلا لمـــا كان النخاسون يترددون اليها بالرقيق • ومن بعد ابطال تجارة الرقيق

---

(١) اى رفض حاكم ممباسا اعطاءهم الأرض التى يريدون بناء مدرسة عليهـــا .

صار يدخل اليها ويخرج منها أموال بقيمة مليون ليرة كل سنة • انتهى ملخصـــــا •

فلما اطلع السيد برغش على فحوى هذا الخطاب كتب فى جوابه رقعة بالعربى ثم ترجمها جرجس باجر الفقيه الى اللغة الانكليزية وعرض على العمدة المذكور أمر سعادته • ولمـــا كان جواب سعادة السلطان غير حاضر لدينا فى أصله العربى اقتصرنا على ترجمته من الانكليزى الى العربى وأثبتناه فى هذا الباب وهذا ملخصه •

أيها السادات العمدة الكرام قد سررنا غاية السرور بالعرض الذى قدمتموه لنا وبترحابكم بوصولنا الى بلادكم السعيدة فنسأل الحق سبحانه وتعالى ان يسبغ عليكم وعلى جميع المحسنين انعامه ويجزل ثوابكم •

وأما نحن فلا يخفى علينا سعيكم الحسن وغيرتكم فى اصلاح شأن الرقيق الذين قد سعينا فى تحريرهم ومازلنا نسعى جهدنا بعونه تعالى • أما تقديمكم الشكران لنا على مساعدتنا المرسلين فى بلادنا فهو من حسناتكم الجميلة فان ما فعلناه الى الآن وما سوف نفعله فى المستقبل بعونه تعالى فهو لوجه الله الكريم وعسى يكون ذلك حسنة عند الله جل جلاله وعم نواله وهو حسبنا ونعم الوكيل •

حرر فى محروسة لندن فى ٢٦ جون ١٨٧٥ •••

الامضاء

السيد برغش بن سعيد

وفى أثناء ذلك نهض لورد شيشستر وقدم الى سعادة السلطان كتابا مموهة حواشيه بمحلول الذهب يحتوى على خرائط رسم الأرض ، فتناولها السيد منه بشكر جميل ولطف أثيل • ثم قدم له عمدة المرسلين كتابا نفيسا يحتوى على أخص لغات الزنوج الخاضعين لملك سعادته فحاز أيضا حسن القبول فى أعين السيد أعزه الله وأبقاه وبعد ذلك نهض رجال العمـدة وتصافحوا مع سعادته وانصرفوا •

الباب السادس والعشرون

فى فرجة السلطان على معبد « وستمنستر اباى »

بعد انصراف عمدة المرسلين خرج السيد وقت الظهر يريد الفرجة على معبد اسمه « وستمنستر اباى » • فلما وصل اليه خرج الى استقباله زعيم الدين ديان استانلى وهو لابس ثوبه الرسمى فى زى تلامذة مدرسة اكسفرد ، وكان فى رفقة سعادته اخصاء السيد حمود بن حمد والسيد محمد بن حمد والسيد ناصر بن سعيد والشيخ محمد بن سليمان والدكتور كيرك ومستر كليمنت هيل •

أما الفقيه جرجس باجر فلم يكن هذه المرة فى رفقة سعادته وكان الدكتور كيرك يترجم للسلطان ما مست اليه الحاجة ، فساروا بسعادته فى أروقة المعبد وصحنه وصاروا يتفرجون على ما فيه من النقوش وحجارة القبور وتماثيل ملوك الانكليز القدماء والرجال الأدباء والعلماء والأفاضل ، وشاهدوا فيما بين هذه التماثيل تمثال الفاضل فوكس وويلبرفرس وقبر داود ليفينكستون الذين ضحوا بحياتهم لابطال تجارة الرقيق فى افريقية •

وفيما كان السيد يجول فى صحن المعبد لاحت منه التفاتة الى مجموع صور كانت معلقة على جدران المعبد فنظر الى واحدة منها وتعرف عليها فهى

فوتوغراف جبل موسى (طور سينا) ثم فى ختام الفرجة غنى المغنون مقامة الدولة البريطانية على دقات موسيقى الارغن ، وخرج السيد من المعبد بعد ان لبث برهة من الزمان أمام تمثال شكسبير الشاعر الانكليزى • هذا ما كان من فرجة سعادة السلطان •

أما ما كان من أمر هذا المعبد وأصل تاريخ بنائه وما طرأ عليه من الحوادث والتقلبات فقصته غريبة تستحق الذكر فى هذا المقام • فنقول أنشى هذا المعبد فى القرن السابع للميلاد أى فى صدر الاسلام • ثم أردم ثم جدد بناءه الملك ادورد الكنفسر الملقب « بالمعترف » فى أواسط القرن الثانى عشر للميلاد • ثم عنى بتوسيعه وزينته باقى الملوك الذين خلفوه منهم هنرى الثالث بهذا الاسم وادورد الثانى بهذا الاسم وادورد الثالث بهذا الاسم وريشرد الثانى بهذا الاسم وريشارد الثالث بهذا الاسم وهنرى السابع بهذا الاسم وهنرى الثامن بهذا الاسم •

وهندسة بناء المعبد غوثية[1] على شكل صليب محرابه نحو الشرق وبابه نحو الغرب ، وقد شادوا فوق باب المعبد برجين عاليين بهندسة غوثية غير صادقة وهى أقرب الى هندسة يونانية وهذا خلل جعل هندسة البرجين لا تطابق هندسة بناء المعبد بتمامه • وأجمل جهة من بناء هذا المعبد جهته الشمالية المسماة « باب سليمان » •

أما داخل هذا المعبد فلا اعتبار له عند العلماء والعقلاء وأرباب الفنون لأنه ذو تعاريج لم تتقن صناعة الهندسة فى بنائها فمنها ضيقة ومنها واسعة على غير نظام ومنها واطية السقف والحيطان مغطاة بتماثيل وحجارة

---

(١) يقصد العمارة « القوطية » .

منقوشة منها بالقلم اللاطينى[1] ومنهـــا الانكليزى وجميعها بلا ترتيب ولا ذوق فى فن الهندسة والزينة ، وليس فيها نوافذ وطاقات كافية لتجديد الهواء وتغييره وهذا يجعل مناخ المعبد سقيما رطبا ذا عفونة تسبب صداعا فى الرأس لمن يبقى فى ذلك المعبد مدة قصيرة من الزمان • ويبلغ طول هذا المعبد من الشرق الى الغرب نحو ١٤٠ ذراعا وعرض رواقه من ٢٥ الى ٦١ ذراعا وعلو سقفه عن الأرض ٣١ ذراعا •

الباب السابع والعشرون

فى حضور سعادة السيد مأدبة لجنة فيشمنجر

لا يخفى على من له المام فى أحوال بلاد الانكليز أنهم قوم" يحافظون على عوائد جدودهم ويتمسكون بها غاية التمسك • فكان قدماء الانكليز قد قسموا أهل الحرف والصنائع على أصناف ، وكان لكل صنف لجنة ورئيس بمنزلة شيخ يتولى أمرها •

وكان السماكون صنفا من هذه الأصناف ، وكان شيخ هذا الصنف مفوض من الحكم أن ينزل كل يوم الى سوق السمك ويتفقد أحوال السمك قبل أن يعرض على البيع ، وكان من واجباته أن يختار أحسن السمك ويرخص ببيعه ، وما لا يستحسنه كان يأمر بحرقه واتلافه ، وكان أعضاء صنف السماكين يقيمون مأدبة شائقة كل سنة يحضرها جميع باعة الســــمك وأصحابهم • وكان رئيس اللجنة أو شيخها يعطى لكل من حضر المأدبة علبة مملوءة من الحلوى ليأخذها معه الى امرأته دلالة على أنه قد صرف ليلته فى تلك المأدبة وليس فى شىء آخر يسوء امرأته •

---

(١) يقصد اللاتينى •

أما الآن فرؤساء لجنة بياعى السمك قد جمعوا أموالا وافرة وصاروا من أغنياء بلاد الانكليز وأكبر تجارها واتخذوا لهم أعوانا يرسلونهم الى السوق ليتفقدوا أحوال السمك المعروض للبيع ويسبروا صالحه من فاسده ، ومازال هؤلاء السماكين على عوائد جدودهم يتخذون مأدبة فاخرة كل سنة يحضرها أكابر المملكة وشرفاؤها وأمراؤها وتارة أولاد الملوك وبناتهم أيضا •

ولما كان السيد برغش أعزه الله بلندن اتخذ هؤلاء السماكون المأدبة المألوفة وكلفوا الى سعادة السلطان أن يشرف تلك الوليمة بحضوره اليها فأجاب السيد دعوتهم وفيما هم على السفرة نهض شيخ الأصناف ورفع كأسه وكلف المدعوين أن يشربوا كأس الهناء بسر سعادة السلطان فنهض الجميع وحبذوا السيد ثانيا وثالثا وشربوا أقداح الصفاء وهم يدعون لسعادته بطول العمر والاقبال •

وفى أثناء ذلك أوعز السيد الى خليله جرجس باجر الفقيه أن يشكر لرئيس اللجنة وللحاضرين على مكارمهم • فنهض الفقيه المومأ اليه وخطب خطبة وجيزة قال فيها ما ملخصه • أيها السادات الأماجد قد أوعز الى السيد أن اشكر لكم عن لسان سعادته وأقول ان تذكار هذه الوليمة لن يبرح من باله عمره بطوله • وقد أحيط علما بأن لجنتكم هذه قديمة عهد قد ذكرها أكبر شعرائكم شكسبير ، وأنكم قد عانيتم كل العناء فى توسيع نطاق التجارة البريطانية شرقا وغربا •

ولكن يأسف السلطان كل الأسف على أن مساعيكم الحميدة لم تصل بعد الى بلاده السعيدة • ولهذا يطلب الى عمدة هذه اللجنة القابضين على زمام تجارة واسعة فى الممالك البريطانية أن يصرفوا عنان العناية الى ادخال أسباب التجارة الى بلاده أيضا وهو لا يقصر عن مديد المساعدة لهم فى كل ما تمس اليه الحاجة لتوسيع نطاق الحضارة فى افريقية • فلما قال الفقيه المومأ اليه هذا حبذه جميع السامعين •

ثم استطرد وقال لا يخفى على سعادة السيد أن تجار الانكليز أصحاب همة عالية يقتحمون جميع المصاعب ويخوضون البحار ويطوفون القفار ويحملون أسباب الحضارة والتجارة الى أقاصي الأرض بأسرها • ولهذا له ثقة تامة بهمتكم أيها السادات العمدة الكرام ان تسعوا فى نجاح تلك البلاد التى جعلها الحق سبحانه وتعالى تحت ولاية سعادته وتبذلوا الهمة فى اصلاح شأن أولئك الناس الخاضعين لصولجان حكمه •

ولما نطق الفقيه بهذا الكلام قاطعه الحاضرون وقالوا حبذا حبذا • ثم بعد ذلك ببرهة نهض سار بارتل فرير وخطب خطبة وجيزة فى مدح سعادة السلطان وفيما أجراه من الاصلاح فى مملكته فأعتق الرقيق وجاهد فى ترقى أحوالهم وتهذيبهم ، وقال من جملة ما قال هذا السار الشريف ، اذا قابلنا حالة زنجبار مع حالة بلاد الانكليز رأينا أن سعادة السيد برغش أيده الله قد فاق الانكليز فى مساعيه الحسنة من جهة عتق الرقيق • فان الدولة البريطانية صرفت سنين عديدة ودراهم وافرة قبل ان تمكنت من عتق الرقيق الذين كانوا فى مستعمراتها ولم تنجح مساعيها وتفوز بوطرها إلا منذ بضع سنين فقط •

والشيوخ الذين مازالوا أحياء منذ ذلك العهد الى يومنا هذا يشهدون لنا بما عانته الدولة البريطانية من التعب والمصاعب فى تحرير الرقيق فى البلاد التابعة لها • أما السيد برغش أيده الله فقد نجح فى الغاء تجارة الرقيق وعتقهم فى بلاده فى برهة قصيرة من الزمان وان قاسى مشقات عظيمة • ومع هذا كله لم يكن تحت أمر سعادته أموال وافرة وذهب وضاح مثلما كان تحت أمر الدولة البريطانية • فلا عجب اذا كان لسعادة السيد برغش فضل عظيم فى هذا الأمر أكثر من الدولة البريطانية القوية بالمال والرجال •

وزد على هذا كله ان سعادة السيد صانه المولى عرف حق المعرفة بحذق عقله الراجح ان ما تطلبه منه الدولة البريطانية فيما يختص بابطال تجارة الرقيق كان من أصعب الأمور وأشدها خطرا على ملكه ، وكان جميع رجال دولته يرون فى اقتراحات الدولة البريطانية خراب بلادهم • أما السيد صانه الله فصمم على الانقياد الى اقتراحات الحكم الانكليزى عليه وفضل خسارة المال واحتمال المشقات على خسارة صداقة الدولة البريطانية التى كان هو وجدوده الكرام قد عنوا غاية العناية فى اكتسابها • وبعد كل هذه المصاعب والمشقات مازال هذا البطل الهمام والسيد الجليل محافظا على عهوده ومكملا وعوده ومنصرفا الى العناية باصلاح شؤون رعاياه وتوسيع نطاق الحضارة فى بلاده •

واذا اردتم أيها السادات الحاضرون فى هذا المحفل ان تتأكدوا صدق مقالى اسألوا الدكتور كيرك قنصل جنرال دولة بريطانيا الحاضر بيننا وهو يسرد على أسماعكم كل ما أجراه السيد برغش من الاصلاح فى ملكه فرفع الحاضرون أصواتهم جميعا وقالوا حبذا حبذا فليحى سعيداً سلطان زنجبار المعظـم •

ثم استأنف سار بارتل فرير كلامه وقال ان السيد برغش لم يقتصر فقط على اجراء شروط المعاهدة التى عقدها مع الدولة البريطانية بل قد بذل وسعه تلبيا فى ابطال تجارة الرقيق فى بلاده • فمن كان متصفا بصفات السيد برغش الحميدة وأتى مدينة لندن أكبر مدن الدنيا لابد من أن يرحب بقدومه كل انكليزى يحب العمران ويعرف مقام هذا السلطان ويثنى على مساعيه الخيرية ما تلالاء الفرقدان وتعاقب الملوان •

ثم اردف سار بارتل فرير فى كلامه وقال أيها السادات الكرام انظروا الى هذا الشيخ المهيب الجالس عن يمين سعادة السلطان وهو الشيخ حمد ابن سليمان كبير وزراء السيد برغش وأعظم مشيريه واسألوه ماذا كان

رأيه فى بادىء الأمر لمــا اقترحت الدولة البريطانية على سعادة السلطان ابطال تجــارة الرقيق • فان هذا الشيخ الجليل لمــا أحيط علمــا بهذه الاقتراحات استصعبها وحســبها علة خراب المملكة وسبب خســارة عظمى له ولجميع أغنياء بلاده لأنه صاحب أراض واسعة وعقارات وافرة وكان مستوليا على عدد غفير من الرقيق يحرثون أراضيه ويزرعونها ويجمعون غلالهــــا •

فلما علم بأن الدولة البريطانية تريد ابطال الرقيق وتحريرهم زعم ان ذلك سيترتب عليه خراب دياره لاسمح الله • ولكن لمــا رأى ما آلت اليه بلاد زنجبار من الصلاح والنجاح عقب ابطال تجارة الرقيق قال ما كنت أظن ان تضحى عاقبة هذا التغيير حميدة ومفيدة كل هذه الافادة •

وما بقى لنا سوى أن نطمع فى همة وعناية تجار الانكليز من أصحاب الثروة والغنا ان يقصدوا بلاد زنجبار بأموالهم الوافرة وينشئوا فيها بيوت تجارة واسعة فانها أحسن بلاد افريقية موقعا وأغناها محاصيل وأخصبها تربة وفيها مرافىء عديدة أمينة للسفن والمراكب ويقصدها أكبر تجار بلاد الهند وغيرها • ولها والٍ حكيم ذو همة عالية ورأى سديد يسهر ليلا ونهارا على نجاح بلاده وخير رعاياه ولا خير فى حاكم لا يشابه سعادة السيد برغش فى الحزم والعزم • فلله دره من حاكم عادل ووالٍ كاملٍ خلد الله ملكه على دعائم المجد والاقبال ما تعاقبت الأيام وتوالت الأجيال •

وفى ختام هذا الخطاب هتف جميع الحاضرين بصوت الحبور وقالوا حبذا حبذا السيد برغش سلطان زنجبار فليحى منصورا بالعز والفخر آمين •

وفى أثناء ذلك ختمت الوليمة فى سرور وحبور وخرج السلطان بحشمه

يريد منزله بعد أن ودع عمدة لجنة السماكين وزعماءها • وفى الغد ارسل العمدة الى سعادة السلطان والى كل من كان معه فى الوليمة صناديق مملوءة من الحلوى حسب عادة لجنة السماكين القديمة التى أسلفنا ذكرها •

الباب الثامن والعشرون

فى حضـــور سعادة السلطان وليمة لورد داربى

أقام لورد داربى الذى كان وقتئذ وزير الخارجية مأدبة شائقة اكراما لسعادة السيد برغش ثم طلب الى سعادته أن يشرف تلك الوليمة بحضوره ، فأجاب السلطان أعزه الله طلب لورد داربى بلطفه المعهود وشرف المأدبة بحضوره ومعه ثلاثة من رجاله الأخصاء والفقيه جرجس باجر ومســـتر كليمنت هيل •

ولمـا بلغ دار الوليمة خرج الى لقائه لورد داربى ورحب بقدومه ثم أدخله الدار فنهضت زوجته لادى داربى وسلمت على سعادة السلطان ورحبت بتشريفه منزلها العامر ، وبعد نهاية العشاء قدم كثيرون من الشرفاء وأصحاب المناصب الى دار لورد داربى ليحظوا بمشاهدة سعادة السلطان ويستأنسوا بلطفه •

وكان من جملة من حضر تلك الليلة جلالة ملكة نذرلند (هولنده) وحشمها وموسوروس باشا سفير الدولة العثمانية وسفير دولة اوستريا (النمسا) وسفير دولة جرمانيا (ألمانيا) وسفير دولة هندوراس وزوجته السيدة غوتيارز والصبية بريدشارد وسفير دولة دانيمرك وزوجته والسيد دى بوللو وسفير مملكة البلجيك وزوجته البارونة دى سولفينس وسفير دولة الاسفنيول والسيد جافرد سفير دولة فرنسا وسفير جمهورية سان سلفادور وزوجته الدوقة أف سلدنها •

ووكيل دولة ايطاليا وزوجته السيدة مرتينو وسفير دولة يابون والسيد كالفيس الفيكنت وزوجته الفيكنتيسة دى كاستللو الفو والبارونة دى هوجل والبارونة باولينا دى هوجل ثم قدم أيضا الى الوليمة دوق أف نونورذ مبرلند والدوقة أف بيدفرد ثم السيدة لادى روسل الدوقة زوجة دوق أف ويلنكتن والمركيز تافيستوك والمركيز أف لنسدون والسيدة لادى ايملى فيتزموريس وارل كمبردن وارل ستار والسيدتان دالريمبل وغيرهم كثيرون من أعيان الانكليز وشرفائهم •

ويبلغ عددهم نحو ٢٠٠ نفس ونيف وكان من جملتهم أيضا لورد بيكنسفيلد ومستر جلادستون والمركيز صالسبرى وغيرهم وكانت ليلة حافلة شـــائقة •

وفى ختام الوليمة انصرفت جلالة ملكة نذرلند ثم خرج بعدها السيد برغش بحشمه وعاد الى منزله سالما غانما ، وخرج فى أثره لورد داربى الى المركبة وشيعه بلطف ووداد لا مزيد عليهما •

الباب التاسع والعشرون

فى حضور سعادة السلطان للجمعية الجغرافية الملوكية

عقدت الجمعية الجغرافية الملوكية محفلا حافلا فى ٢٩ حزيران (جون) اكراما لسعادة السيد برغش أعزه الله ، وكان الماجيور جنرال سار هنرى رولنسن يرأس هذا الاحتفال العظيم ، وحضره عدد غفير من الأعيـــان والعلماء والأدباء والسيدات المخدرات •

وفى الساعة التاسعة والنصف قدم السلطان وفى معيته الفقيه جرجس باجر والدكتور كيرك ، وعند دخوله قاعة الاجتماع رحب به جميع الحاضرين

فى ذلك المحفل وحيوه بأصوات الحبور والسرور ، واستقبله رئيس الجمعية ومعاونه باكرام لائق بسعادته وأجلسوه فى أرفع منزلة .

ثم حضر أيضا هذا المحفل سفراء سلطان مراكش السيد عبد الله فنيش والحج عبد الرحمن قومندار طنجير والسيد عبد السلام العريشى من أركان حرب سلطان مراكش ثم حضر أيضا سفير دولة يابون وفى معيته باقى رجال السفارة . ثم حضر لورد هوطن وسار رثفرد الكوك والأميرال كولينسن والجنرال ريكبى وســـار جيورج بوين حاكم فيكتوريا والدكتور كاربنتر وغيرهم كثيرون لم نذكر أسماءهم جميعا خشية الاطالة والملل .

وبعد ان جرت مفاوضات علمية فى الاكتشافات الجغرافية فى قطب الأرض الشمالى وفى أواسط أوستريا الغربية نهض الماجور جنرال سار هنرى رولنسن وخطب خطبة وجيزة قال فيها ما ترجمته ملخصا .

أيها السادات الكرام نرحب بقدوم سعادة السيد برغش الى هذه البلاد جمعية سكان لندن العظمى ولكن يحق على أعضـــاء هذه الجمعية الجغرافية الملوكية أن ترحب بقدومه أفضل ترحاب حال كون سعادته عضوا من أعضاء هذه الجمعية وقد شرفها هذه الليلة بحضوره السعيد وقد أبدى غاية العناية بمساعدة جميع السياح الذين أرسلتهم هذه الجمعية للسياحة فى أفريقية واكتشاف خبايا تلك القارة الواسعة .

فلما سمع هذا الكلام جميع الحاضرين رفعوا أصواتهم بسرور وقالوا حبذا حبذا فليحى سلطان زنجبار . ثم استأنف سار روليـنسن خطابه وقال لولا عناية السيد برغش ومساعدته لمـــا تمكنت هذه الجمعية الجغرافية من ارســـال مدد ونجدة ومؤونة الى رجالها السائحين فى داخل قارة افريقية .

فهتف الحاضرون ثانى مرة بأعلى أصواتهم وقالوا حبذا حبذا فليحى السيد برغش الكريم عمرا مديدا • ثم مضى الخطيب فى كلامه وقال لا يخفى عليكم أيها السادات أن صلات الحب والوداد بين زنجبار وبريطانيا كانت من عهد أجداد السيد الكرام •

ففى بدء القرن التاسع عشر عقدت الدولة البريطانية معاهدة ودية مع حكام تلك البلاد ، ومن ذلك العصر الى الآن مازال أولادهم وأولاد أولادهم الى عهد هذا السيد الشريف الحاضر بيننا يحافظون على صداقة الدولة البريطـــانية •

فأعاد الحاضرون أصوات التحبيذ ثالثا ورابعا • ثم استكمل الخطيب كلامه وقال ان السيد برغش أعزه الله لم يقتصر على تمهيد السبيل الى مصـــالح الانكليز السياسية فى بلاده فقط بل قد عنى غاية العناية فى توسيع نطاق الحضارة والتجارة فى مملكته السعيدة ، وراعى ذمام الانكليز وقبل بتمام القبول اقتراحات الدولة البريطانية فيما نيط بابطال تجارة الرقيق من بـــلاده •

ولهذه البواعث كلها حق علينا نحن معشر الانكليز ان نثنى على همم هذا السلطان الجليل ، وانه لفرض واجب على هذه الجمعية الجغرافية التى قد تشرفت بحضور سعادته ان تشكره على هذه المنة العظيمة •

وما زاد هذه الجمعية امتنانا هو لا جمعية سواها قد حصلت على شرف يوازى شرفها الحالى ، فان سعادة السلطان برغش أعزه الله قد اقتصر على ان يكون عضوا من أعضاء الجمعية الجغرافية وحدها فقط • وقد حصر هذا الشرف كله فى جمعيتنا الملوكية • فضج السامعون بأصوات الحبور وقالوا حبذا حبذا لله در هذا العضو الشريف وسعدا لهذه الجمعية فقد حازت ملء العز والشرف •

ثم طلب سار رولنسن الى الجنرال ركبى الذى كان سـفير الدولة البريطانية سابقا فى زنجبار أن يتلو على أسماع الحاضرين ما شاهده فى زنجبار من مساعى السيد برغش الحميدة وما فى بلاده من الخيرات والخصب والفلاح • فنهض الجنرال ركبى وأخذ يشير الى سعة مملكة زنجبار وحدودها كما كانت مرسومة فى خريطة رسم الأرض المعلقة على جدار القاعة •

وقال ان لزنجبار أهمية عظمى فى الحال والاستقبال لنجاح افريقية كلها ، فان هذا كله منوط بارادة السيد برغش وقاه الله • ومن دون حسن ارادته لا يتيسر لأحد أن يبادر لاصلاح تلك القارة وتهذيب قومها • وزد على ذلك أن أراضى زنجبار لا مثيل لها فى خصب التربة على سطح البسيطة بأسرها • وأول من عنى فى ادخال الاصلاح والتمدن فى زنجبار كان والد السيد برغش المغفور له • ولما كان الولد سر أبيه حذا السيد برغش حذو والده وأفرغ همته فى اكمال ما كان قد باشره والده المغفور له •

ومما لا قدرة لنا على انكاره هو ان بلاد الانكليز فى احتياج عظيم الى بعض محاصيل زنجبار ، فانها أعظم بندر فى الدنيا لتجارة العاج (سن الفيل) ولتجارة القرنفل والصمغ والسكر والقطن الى غير ذلك ولنا ان نقول قولا لا يخشى عليه من منكر ان غلال زنجبار وتجارتها لا حد لها ولا نهاية •

والأنهر التى تسقى أراضيها قد عنى بتعميقها وصارت تصلح لسير السفن وقد صرف السلطان أيده الله همته الى فتح الطرقات فى داخل الجزيرة لتسهيل الأسفار ونقل الأموال •ولنا ثقة تامة فى همم سعادته العلية ألا يألوا جهدا من اتمام ما باشر من أجل خير المملكة ونفع العالم اجمعين • فهتف حينئذ جميع الحاضرين وقالوا أيد الله سعادة السيد سلطان زنجبار وحفظه فى عين الدنيا طويلا ليرى بعينيه نجاح بلاده ورسوخ ملكه على دعائم العز والاقبال آمين •

ثم أوعز سعادة السلطان الى حضرة باجر الفقيه أن يشكر لأولئك السادات لطفهم ومكارمهم • فنهض الفقيه المومأ اليه وقال قد أوعز الى السلطان أن أعرب لكم أيها السادات الكرام عما فى نفسه من الشكر الجميل لافضالكم ولكن قلت له ان من عادتنا نحن معشر الانكليز اذا أراد خطيب أن يخطب فى قوم وكان بينهم من السيدات الكريمات وجب عليه أن يوجه خطــابه أولا الى الســيدات قبل الرجال فما رأيك أيهــا السلطان فى هذا الأمــر ؟ •

هل استتسن بسنة أهل المشرق الذين يفضلون ذكر الرجال على النساء أم أحذو حذو الانكليز فى ذكر السيدات قبل الرجال ؟ • فقال لى الســيد بحذقه وذكائه المعهودين أنحن فى الشرق أم فى بلاد الانكليز • أما يجب علينا ان نستتسن بسنة القوم الذين نحن مقيمون فى بلادهم ؟ • فوجه خطابك اذا أيها الفقيه أولا الى السيدات ثم اردفهن بذكر الرجال فنكون مثل باقى الناس ولا بأس •

فلما سمعت ذلك السيدات الحاضرات فى المحفل رفعن أصواتهن بسرور وقلن حبذا حبذا سيد اللطفاء وسلطان الظرفاء •

ثم طفق الفقيه المومأ اليه يخطب واستهل خطابه بذكر السيدات وقال أيتها السيدات الكريمات وأيها السادات الكرام : قد أثر مديحكم غاية التأثير فى نفس سعادته ولم ينس عمره بطوله ما اسديتموه اليه من الثناء والترحاب بالتحبيذ والتبجيل وقال لو كانت كل جوارحه لسانا لقصر فى حق القيــام بتقديم الشكران على أفضالكم الأثيلة ، ولولا ضيق الوقت لكان أوعز الى أن أطيل الخطاب فى الرد على ما ابديتموه نحــو سعادته من التعظيم والتفخيم ، قال هذا وطأطأ برأسه اكراما للحاضرين ثم جلس •

ثم نهض رجل من أعضاء الجمعية الجغرافية وقال قد بلغ مســامع

أعضاء هذه الجمعية ان أهالى زنجبار يقتلون الأفيال عند قنصها ليخرجوا أسنانها وباقى عظامها ويتاجروا بها • وكان حقهم أن يستأنسوا الأفيال عند قنصها ويستخدموها فى مهمات العيشة بعد قلع أسنانها •

فترجم الفقيه باجر كلام ذلك الخطيب لسعادة السلطان • فقال السيد فى جوابه بحذق وذكاء قل أيها الفقيه لحضرة الخطيب ان الله سبحانه وتعالى لا يسأل مخلوقا عن شىء لا يعرفه ولا يطالبه يوم الدين بأمر لم يدر طريقة عمله بصواب • ونحن معشر الافريقيين لا نعرف طريقة قنص الأفيال دون قتلها فليأت هذا الخطيب البارع الى أفريقية ويعلمنا طريقة قنص الفيل وقلع أسنانه واخراج عظمه للتجارة ولعمل الأوانى العاجية من دون قتله •

وان اعترض علينا وقال ان الابقاء على الأفيال خير من التجارة بأسنانها وعظامها قلنا له حرم أولا على امتك اتخاذ العاج سبيلاً للتجارة فتكسد سوقه ويكف الأفارقة عن قنص الأفيال وقتلها • فلما ترجم الفقيه باجر كلام سعادة السلطان وأملاه على رؤوس الحاضرين أفرطوا من الضحك والسرور وهتفوا بأعلى أصواتهم وقالوا نعم الجواب ، لله در من أتى به وانتقم من خصمه أى انتقام •

ثم نهض سار رولنسن زعيم المحفل وقال نعم الجواب ما أجاد به السيد برغش الهمام • فان وجد الناس طريقة سهلة جديدة لقنص الأفيال واستخراج عظامها دون قتلها تمكنوا من استخدام الأفيال بمنزلة عجلات ومركبات لنقل الأموال عليها ، ولكن هيهات فان اخراج عظم حيوان والابقاء على حياته ضربٌ من المحال • فقهقه الحاضرون ضحكا من ذلك •

ولما فرغوا من الضحك استأنف سار رولنسن كلامه وقال أيتها السيدات المصونات ويا أيها السادات الكرام قد حق على أن أطلب اليكم أن ترفعوا أصواتكم وتدعوا لسعادة السلطان بطول البقاء والاقبال وتشكروا

لسعادته تشريفه هذا المحفل الشائق بحضوره الجليل • وبما أنه عازم على الاياب الى أوطانه السعيدة عن قريب بالسلامة يجب على كل من حضر هذا المحفل وعلى كل من افتخر بكونه انكليزيا أن يشيع سعادته بسلام ويصحبه بقلبه وعواطفه وحبه الى زنجبار ويتمنى له وللكه تمام النجاح والاقبال آمــين •

وفى أثناء ذلك نهض السيد برغش فى حشمه وصافح زعيم المحفل سار رولنسن وباقى رجال عمدة الجمعية وانصرف الى منزله سالما غانما وذكر ذلك المحفل العلمى مطبوع فى صحائف فؤاده اللبيب •

البـــاب الثـــلاثون

فى زيارة ســعادة الســلطان لمعمل الأسلحة

فى ويليج

من دخل معمل الأسلحة فى ويليج كأنه دخل معامع الحروب بعينها • فانه يشاهد فى عرصة المعمل مدافع ضخمة منها مشققة ومنها مكسورة ومنها معطلة من كثرة الاستعمال •

وهذا المشــهد المكرب يذكره بانكســار الجيوش وهزيمة عددهم وتحطيم أدوات دفاعهم ودمار ديارهم • ولكن متى توغل المرء فى مخادع المعمل رأى هناك آلات ضخمة تعجز عن تحريكها جبابرة نمرود فتحركها قوة البخار العظيمة وتصهر المعادن فى بوتقة ضخمة تحاكى حوضاً من نار ثم ترفعها من الأتون بكلاليب عظيمة ثم تسبكها فى قوالب معدة آلياً فى قلب الأرض ثم تخرج من بطونها مدافع عظيمة الحجم لا تتفرقع ودواليب متينة لا تتكسر وأسلحة جهنمية لا تقهر وكل هذا الشغل العظيم يتولى أمر ادارته الكولونل كمبل والكولونل فبلد والماجور متلند وأعوانهم •

وكلما ازدادت الأمة البريطانية اقتداراً ازداد معمل أسلحتها كبرا واتساعا ، وكان هذا كله غير خاف على ادراك سعادة السيد برغش ، وكان يود أن يرى بعينيه ما قد أدركه بعقله الراجح • فأظهر رغبته فى الذهاب الى ويليج لمشاهدة عجائب معمل الأسلحة المقدم ذكره •

ولما علم قوم من الأعيان أن سعادة السلطان عازم على الذهاب الى ويليج سبقوه الى هناك طمعا فى ان يشاهدوا سعادته • وانتخبوا لأنفسهم محلات تمكنهم من مشاهدة سعادة السلطان بسهولة • ولما كانت الساعة الثانية بعد الظهر وصل السلطان فى حشمه الى معمل الأسلحة وكانت فرقة من الجنود مصطفة على باب مسبك المدافع فى سلام سعادته • ثم خرج لورد يوستاس سيسيل والماجيور جنرال سار ادى مدير المعمل والكولونيل كمبل والماجيور متلند ومستر كينك ولاقوا سعادة السلطان بالترحاب والسرور وكان فى معيته وزراؤه وحضرة باجر الفقيه والدكتور كيرك ومستر كليمنت هيل وادخلوهم الى قاعة الاستقبال •

وبعد أن استراح السيد وحشمه برهة من الزمان ساروا به الى أماكن الشغل فدخلوا أولا مخدعا واسعا كان فيه حديد مخروط معد لعمل المدافع ، وأخذ المدير يشرح لسعادة السيد عن طريقة استحضاره • ولما كان السيد أعزه الله ممن يحب الصنائع والفنون سر غاية السرور بكل ما كان يسمعه من المدير • ثم خرجوا من هناك ودخلوا الحجرة التى فيها المطرقة العظيمة التى يحركها البخار بقوة خمسين طن (طولوناطة) •

وكانت هذه المطرقة المهولة ترتفع وتنحط بقوة ترتج من تحتها الأرض وتطرق أنبوبا محميا بالنار معدا لعمل مدفع ثقله واحد وثمانون طنا ، وكان ذلك أعظم مدفع عمل فى الدنيا • وكانت المطرقة تنقض عن علو ١٢ قدما بخفة وسرعة على ذلك الجبل المعدنى الخارج من أتون النار المتأججة

انقضاض الصاعقة على جبل من مغناطيس مع أن ثقلها كان نحو أربعين طنا • وكانت كماشة (كلبتان) من حديد معلقة فى الهواء بآلات تديرها قوة البخار يبلغ كبرها ٥٠ ضعف كماشات القدماء وكانت هذه الكماشة تقبض على أنبوب المدفع من تلقاء ذاتها وتقلبه تحت ضربات المطرقة لاتقـــان هندامـــه •

ثم صعدوا بسعادة السيد ورجاله الى مكان عالٍ كانوا قد أشادوه من الخشب المدهون بألوان ونقوش شرقية لما زار ذلك المعمل قيصر الروسية • ومن علو هذا المكان كان السيد ورجاله يتفرجون على طريقة صهر المعادن وسبكها وتطريقها وهندامها ، وفيما كان الناس واقفين ينتظرون بدء الشغل ولم يشاهدوا شيئا سوى مطرقة مهولة وكماشة عظيمة وسندان ضخم واذا بباب الأتون فتح وانبعث منه لهيب جهر العيون كأنه برق أومض من كبد السـحاب •

واندفعت حرارة شديدة من قلب الأتون خالها المتفرجون جبلا من نار قد انفجر وهاج فى وجوههم حتى اضطروا الى ستر أعينهم ووجوههم من شدة سعيرها مع انهم كانوا على بعد مسافة ثلاثين ياردة من الأتون ولكن ما الحاجة بالحضور الى هذا المعمل الجهنمى اذا كان الناظر يغمض عينيه ويستر وجهه ولا يرى ما قد أتى لمشاهدته ؟ • فلابد اذا من كشف الوجوه وفتح العيون وان تلظت بالحرارة وشاطت أهداب العيون بتشعع اللهيب المنبثق وتجعد شعر الرأس واللحاء من أجيج النار •

وبعد هنيهة رأوا الكماشة المعلقة فى الهواء قد دفعتها قوة البخـــار الى قلب الأتون ثم قبضت على جبل من الحديد المحمر احمرار الجمر المتقد وأخرجته من الأتون ووضعته على السندان الضخم وكان الهواء المحيط بهذه الكتلة العظيمة من الحديد يتأجج ملتهبا واذا بالمطرقة العظيمة هبطت

على ذلك الجبل النارى من علو ١٢ قدما (فوت) وصارت تطرقه طرقا متواترا بقوة تتزعزع لها الجبال • ومضى الطرق مستديما عليه حتى تندمج مسام ذلك الحديد ويتهندم شكله ويستحيل مدفعا متقونا ومعدا لهلاك الأبرياء من عبـــاد الله •

فلما رأى السيد أجاره الله ذلك المشهد المهول قال لحشمه هلموا بنا الى الصلاة فقد انفتحت فى وجوهنا أبواب جهنم ونارها والعياذ بالله منهـــــــــا •

ثم ساروا بسعادة السيد من هناك الى مكان خرط الحديد فأخرج العمال قضيبا من حديد محمياً طوله نحو ثلاثة أقدام وسمكه نحو أربع أقدام مربعة وركبوه على المخرطة حالا وصارت الآلة تدور بقوة البخار وتخرط القضيب بسرعة تكاد تخطف البصر وبسهولة غريبة كأنها تخرط قضيبا من الحطب ، وكانت الشرارات تتطاير منها تطاير البرق من قلب الغمام ، وتملأ الهواء المحيط بها كأنجم تتناثر فى ليلة دهماء •

ثم ساروا بسعادة السلطان الى مخزن المدافع فشاهد فيها أصنافا كثيرة كبيرة منها عيار تسعة طولونات مركب على دواليب عالية ومنها ما كان عياره ٢٥ طنا ومنها ما كان عياره ستة عشر طنا فتعجب السيد ومن كان معه من تلك الأسلحة المهلكة لبنى آدم التى قد أفرغت فيها العقول الذكية ما عندها من البراعة بحجة التمدن وما ذاك لعمرى الا أقصى درجة من التوحش قد جمله الطمع البشرى برداء التمدن والتقدم ، وكان خيرا لو يفرغ المرء قوى عقله فى اختراع آلات للعمران ، ويزهد فيما يهلك الانسان والحيوان ، ولكن طبع المرء أقرب الى الشر من الخير •

فلما نظر السيد أعزه الله الى تلك المدافع والكلل والقنابر والتوربيد

وغيرها من الأسلحة المهلكة قال متبرءا العياذ بالله من شرها وشر الشيطان الرجيم • ولى ثقة بكم يا معشر الانكليز أن لا تستخدموا هذه الآلات المهلكة بحجة الغزو والطمع فى اهلاك الأبرياء وانما تتخذونها لصيانة الملك وحماية الضعيف ونجاة المظلوم • فلما ترجم الفقيه باجر كلام سعادة السلطان الى الحاضرين بالانكليزى صفقوا بأيديهم علامة السرور وقالوا حبذا حبذا نعم المقـــــال •

ثم خرجوا من هناك ودخلوا بسعادته الى معمل البواريد والمكاحل وكانت رايات جميع الدول منصوبة على سطحه وراية الدولة الزنجبارية تخفق بينها وكانت درج المدخل مفروشة برايات الدولة البريطانية فسار السيد وحشمه ومشوا فوقها •

ولمـــا دخلوا المخدع رأوه مزينا بالأسلحة والمكاحل فقال واحد من حشم السيد انى أرى هذا المكان كأنه بارجة حربية • فقال السيد وقـــد طرقنى هذا الفكر بعينه • ثم خرجوا من هناك وساروا الى مخزن عدد الخيل وسروجها وما نيط بها وكانت كلها موضوعة بترتيب حسن ونظام جميـــل يرتاح اليه الناظر • وفيما كان السيد سائرا فى صحن ذلك المخدع كان نحو مائة نفس من الرجال والنساء والأولاد مصطفين عن يمينه ويســـــاره فلاحت منه التفاتة الى بعض من البنات الصغار وكن لابسات ملابس بيضاء زادتهن حسنا وجمالا فوقف السيد أعزه الله والتفت الى من كان الى جانبه وأشـــار بيده الى الفتيات وقال يا للعجب كل العجب انى أرى ملائكة السلام تجول فى عرصات الحرب وهى آمنة لا خوف عليها •

ثم طلب السيد بلطفه المعهود ان يحضروا اليه أولئك الفتيـــــات فاحضروهن اليه • وكن على جانب عظيم من الحشمة والأدب والتهذيب وأخذت كل منهن تصافح يد سعادته وتسلم عليه بلغتها الانكليزية فتبسم

السيد فى وجههن بأنس وسرور ودعا لهن بطول العمر والاقبال • فشكرن لسعادته لطفه وعلى ما حزن من الشرف العظيم من لدن مكارمه ثم انصرفن الى آبائهن وهن طربات فرحات •

ثم خرجوا بالسيد من هناك وأدخلوه مخدعا كانت فيه مدافع الميتراليوز وهى مدافع مركبة من أنابيب عديدة فأحضروا الى سعادته واحدا من هذه المدافع ليراه فلما نظر اليه تعجب وقال لحضرة باجر الفقيه من كم أنبوب مؤلف هذا المدفع ؟ •

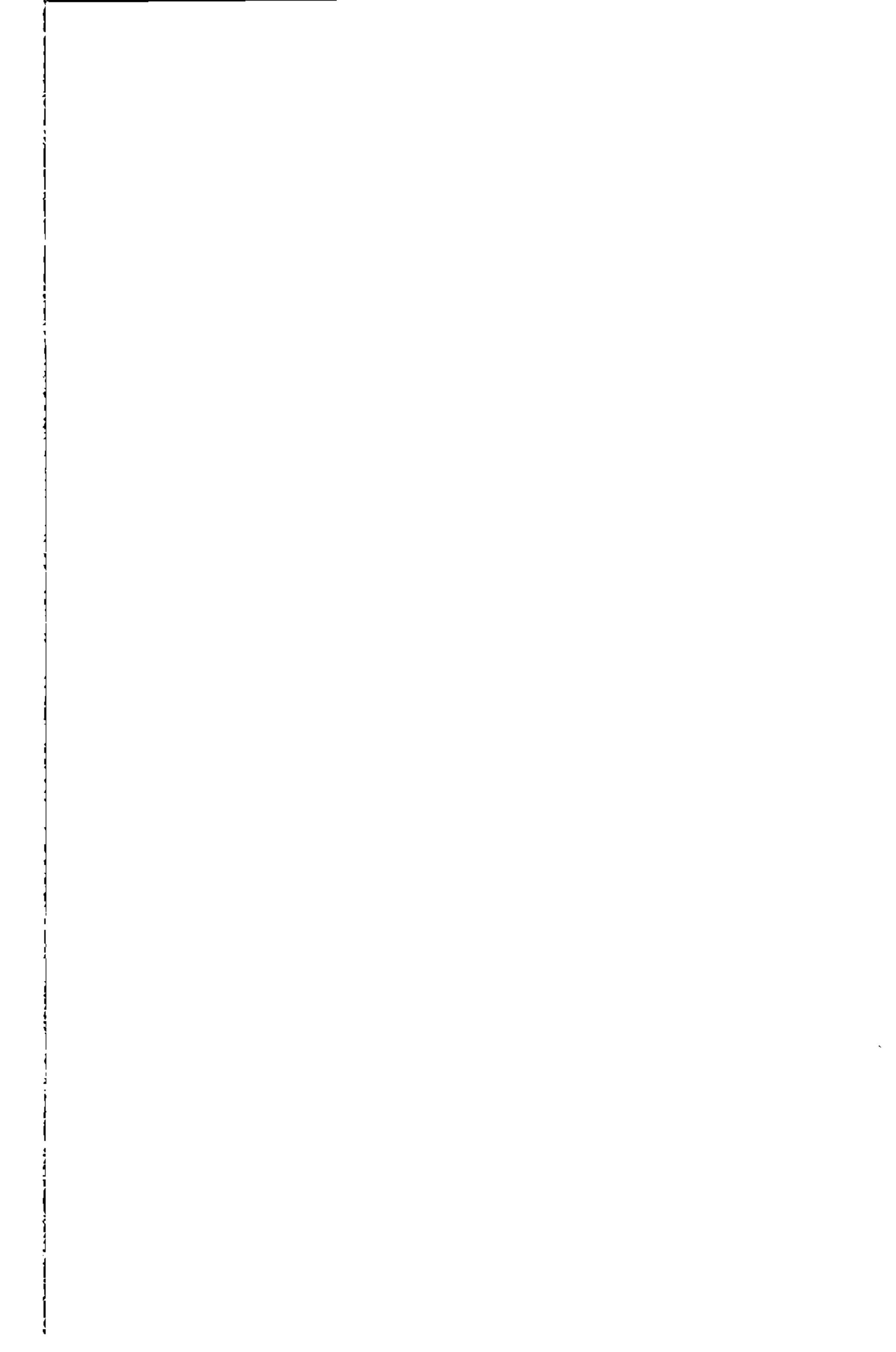
قال الفقيه فى جوابه مؤلف من أثنى عشر أنبوبا • ومن الغرائب ان واحدا من أهالى اشانتى لمـــا رأى هذا المدفع وقت حرب الانكليز مع الاشانتيين يئس من القتال وذبح نفســـه مخافة أن يقع قتيلا باطلاق ذلك المدفع • قال السيد لا عجب فى ذلك فان الموت البارد خير من المـــوت المحـــرق •

ثم ساروا بالسيد من هناك وأخذوا يفرجونه على بقية حوانيت الصنائع والنجارة والحدادين والسراجين والخراطين وبقية الأدوات اللازمة لعمل العدد والمهمات الحربية • فسر السلطان من مشاهدتها لشدة حبه الصنائع وعمل الآلات ، وقد انشأ لنفسه معملا لها فى زنجبار • ثم بينما كانوا مارين بحانوت خراطة سلك الحديد عرض واحد من الحاضرين جانبا من خراطة الشريط المبروم على سعادة السلطان فنظر اليه وقال وهو يتبسم هذا يصلح أن يكون ضربا من الأسوار • ثم أوعز الى واحد من حشمه ان يحافظ على تلك الخراطة تذكارا لزيارته معمل الأسلحة •

ودامت تلك الزيارة نحو ساعتين من الزمان ولمـــا فرغوا من الفرجة شكر السيد برغش زاده المولى لطفا لمدير معمل الأسلحة مكارمه واعتذر له عما عاناه من المشقة فى تلك المدة ثم صافحه وركب مركبته وسار فى حشمه



(رسم صورة المركيز صالسبرى)



يريد منزله العامر فخرجت الموسيقى العسكرية فى أثره وهى تعزف بمقامة الدولة البريطانية وأطلقت له الجنود ٢١ مدفعا علامة الوداع ، ثم رافقته كتيبة من الجنود الشرفية الى ظاهر مدينة ويليج ثم رجعت وعاد السيد أيده الله مسرورا الى منزله وتذكار ما شاهده فى نهاره مطبوعا فى عقله .

الباب الحادى والثلاثون

فى حضور سعادة السلطان وليمة المركيز صالسبرى

أولم المركيز صالسبرى وليمة شائقة لسعادة السيد برغش فى ٣٠ حزيران (جون) ودعا السيد ورجال سعادته أن يحضروها فأجاب السيد دعوته بلطفه المعهود . وكان من جملة الذين حضروا الوليمة برفقة سعادته السيد حمود بن أحمد والسيد حمد بن سليمان والسيد ناصر بن سعيد وحضرة باجر الفقيه وحضرة الدكتور كيرك ومستر كليمنت هيل .

وكان المركيز صالسبرى دعا أيضا الى تلك الوليمة صاحب الدولة موسوروس باشا سفير الدولة العثمانية ولورد شانسلر وزوجته لادى كرنس ودوق أف بوكينكهام والسيدة المركيزة ريبون ولورد داربى والكونتيسة زوجته ولورد سلبرن وزوجته لادى سلبرن والسيدة لادى مرغريت بومنت والشريف جلادستون وزوجته ومستر ديزرايلى وسار بارتل فرير وزوجته وسار سيمور فيتزجرلد وديان وسمنستر ومستر برسفرد هوب ومستر الدرسن وكان على سفرة الطعام ٢٨ نفسا .

وكانت المركيزة صالسبرى تفرغ جهدها فى اكرام سعادة السلطان ورضاه وكانت ليلة حظ وصفاء سر بها سعادته غاية السرور . وفى أثناء العشاء شكر السلطان أعزه الله المركيز صالسبرى على مكارمه العميمة وانصرف بسلام .

البـــاب الثانى والثلاثون

فى شعائر سعادة السلطان بلندن

قد أضحت زيارات سعادة السيد برغش بلندن مما تتداوله الرواة وتسجله صحف التاريخ لنفع الخلفاء . اما سعادته فقد اطلع حق الاطلاع مدة اقامته بلندن على أحوال هذه العاصمة التى لا مثيل لها فى الكبر على وجه الأرض ، وعرف عوائد الانكليز واصطلاحات هيئاتهم الاجتماعية وما هم عليه من التمدن والاستقامة ، وقد انطبع فى ذهنه جميع ما رآه وسمعه مدة اقامته فى بلاد الانكليز لانه كان يراقب باهتمام عظيم كل ما كان يقع تحت نظره ويسأل عنه ويستقصى فى أصوله .

وكان من عادته أن يقول قد أتيت بلاد الانكليز رغبة فى الاطلاع على ما فيها من أسباب الحضارة والعمران حتى أتقنها وأجعلها دستورا لى فى سياسة ملكى وعمرانه ولا غرو فانه قد أصاب عين الصواب ونال الأجـــر والثواب ، وصار مصداقا لمـــا قاله الحسن البصرى رضى الله عنه « من خرج من بيته فى طلب باب من العلم حفته الملائكة بأجنحتها وصلت عليه الملائكة فى جو السماء والسباع فى البر والحيتان فى البحر وأتاه الله أجر اثنين وسبعين صديقاً » .

ولا غرو أن سعادة السيد يود نجاح بلاده وخير رعاياه ويحب نشر العلوم والمعارف فيهم لأنه قد أدرك ما قاله محمد (عم) « أن الله عز وجل وملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير » .

وعلم كذلك بأن العلوم والمعارف ركن الحضارة ودعائم العمران ، ولهذا صرف همته العلية الى نشر المعارف فى ملكه ورفع مقام العلماء والأدباء

وأحب مجالستهم كما قال عمر رضى الله عنه « لا تفارقوا مجالس العلماء فان الله لم يخلق على وجه الأرض أكرم من مجالسهم » .

وقد سند هذا القول محمد (عم) فقال « من زار عالما فكانما زارنى ومن جالس عالما فكانما جالسنى ومن جالسنى فى الدنيا أجلسه الله تعالى معى يوم القيامة فى الجنة » وروى الحسن قال « مثل العلماء كمثل النجوم اذا بدت أهتدوا بها واذا أظلمت تحيروا . وموت العالم غصة فى الانام لايسدها شيء ما اختلفت الليالى والأيام » .

وقد ولع السيد برغش أعزه الله بالعلم والدرس والمطالعة وجمع الى خزانة كتبه جميع المؤلفات العربية المطبوعة فى مصر وغيرها من البلاد ، وقد باشر بدرس اللغة الانكليزية وأنجد أصحاب النشرات العربية وهو يطالع الجوائب[١] والنحلة[٢] ونشرة مصر والرائد التونسى[٣] وغيرها ويحب الاطلاع على ما فى النشرات الانكليزية من المواد المهمة . ويجل الغنى والفقير على حدٍ سوى فان الجميع خلقه الله ولا فرق عند الله عز وجل بين الفقير والغنى سوى بحسن الأعمال .

وللسيد أيضا رغبة شديدة فى ايجاد الوسائط التى تساعده على تقديم

---

(١) كانت الحوادث تصدر فى القسطنطينية باللغة العربية وكان صاحبها ومحررها أحمد فارس الشدياق الذى تعلم فنون الصحافة فى شبابه فى جريدة الوقائع المصرية التى كان رفاعة الطهطاوى يرأس تحريرها سنة ١٨٤٠ . وكان الشدياق ألمع صحفيى عصره ، وكان أديبا مرموقا وله مؤلفات عدة أهمها كتابان ، « الساق على الساق فيما هو الترياق » وكتابه الثانى « كشف المخبأ عن فنون أوروبا » .

(٢) النحلة مجلة عربية اصدرها صاحبها القس لويس صابونجى فى لندن ، وكانت أهم الصحف العربية فى أوروبا .

(٣) كانت صحيفة الرائد التونسى تصدر فى تونس ويقوم على تحريرها ابن احمد فارس الشدياق .

بلاده وتعميم الفلاحة والزراعة فى ملكه واستخراج ما فيها من المعــادن والكنوز ولما كان بلندن رأى يوما كومة من الفحم المعدنى فى معمل الأسلحة فالتفت الى من كان معه وأشار بيده الى كومة الفحم وقال « هذا ألماسكم الحقيقى يا معشر الانكليز وهذا أصل غناكم ومصدر ثروة بلادكم وقد أدركتم ذلك حق الادراك وتخللتم احشاء الأرض وقاع البحار وأخرجتم كنوزها فاغتنيتم بها وأغنيتم شعوب الأرض ، وصرتم أغنى أمة على وجه البسيطة ٠

ثم قال : فكم وكم من معادن الفحم فى بلادى ولكن يا للأسف لم تزل هذه الكنوز مغلقة فى وجوه شعبى ومطمورة فى قلب الأرض الى الآن ، فلو ساقتكم المقادير الى بلادى وعنيتم باخراج ما فيها من المعادن لازددتم ثراء وأغنيتم أمتى وعمرتم مملكتى » ٠

ثم أكد هذا السيد الجليل أنه يحب الحرية والمســاواة بين البشر ٠ وقد حمله حب الحرية على عتق الرقيق وابطال تجارتهم من بلاده ٠ وما يدلنا على حبه للحرية والعدالة هو ما قاله يوم كان بلندن وهو يتمشى فى احــدى جنائنها فانه رأى الانكليز يترددون على الحدائق والجنائن وهم فى حبور وسرور فالتفت الى وزرائه الذين كانوا فى معيته وقال انظروا الى هذا الشعب السعيد والى ما هم عليه من الحرية والغبطة ٠ انظروا الى أولادهم وبناتهم كيف يمرحون طربا وهم آمنون لا خوف عليهم ولا هم يجزعون وما هذا الا نتيجة العمران واجراء العدالة والانصاف فيهم فقد سبقونا الى هذه الغبطة فعلينا أن نقتفى آثارهم ونجد فى تحصيل ما أدركوه منذ أجيال عديدة عسانا ندرك ما أدركوه ونكون نعم المفلحين ٠

الباب الثالث والثلاثون

فى زيارة سعادة السلطان لمدينة بيرمنتهام[1]

عرف أهل بيرمنكهام من صحائف الأخبار ان من نية سعادة سلطان زنجبار القدوم الى مدينتهم بقصد الفرجة على ما فيها من المعامل والصنائع فاستعدوا لملاقاته خير استعداد وخرج منهم جمع غفير الى محطة سكة الحديد ينتظرون قدومه بالسلامة •

فلما كانت الساعة الواحدة بعد الظهر وصل السلطان الى محطة بيرمنكهام • وكانوا قد فرشوا أرض المحطة بالجوخ الأحمر وفرشوا الدرج بطنافس جميلة ، وقبل أن ينزل السيد من قطار السكة الحديد تقدم والى البلد الدرمن بيكس ودخل الى السيد وسلم عليه ورحب بقدومه ، ثم استأذنه أن ينزل ويشرف المدينة فأجاب السيد طلبه •

ونزل مع من كان فى معيته وكان حضرة باجر الفقيه يترجم بين سعادة السلطان وبين والى البلد • ثم نزل بعده وزراؤه السيد حمود بن حمد والسيد حمد بن سليمان وحضرة طاريا توبان وحضرة الدكتور كيرك ومستر كليمنت هيل ثم صعدوا درج المحطة المفروش بالطنافس •

وكان الشعب قد تقاطر بازدحام ليرى سعادة السيد ويسلم عليه فلما رأوه مارا كشفوا عن رؤوسهم حسب عوائد الانكليز وسلموا عليه ورحبوا بقدومه الى بلدتهم بالسلامة • وكان السلطان زاده الله لطفا يرد السلام عليهم بأنس وبشاشة ويشكر لهم على مكارمهم •

---

(١) يقصد مدينة برمنجهام •

ولما دخل السيد دار المحطة كان الخدم قد هيأوا سفرة متفننة بالمآكل فجلس السلطان ورجاله وتناولوا الطعام . وكان الشعب لازال واقفا خارج الدار يريد مشاهدة سعادته ثانية . وكانوا أيضا قد هيأوا مركبة ملوكية تجرها أربعة رؤوس خيل فخرج السيد بعد الطعام وركب فيها مع السيد حمود بن حمد والدكتور كيرك ووالى بيرمنكهام .

وركب باقى رجال سعادته فى ثلاث مركبات مفتوحة وكان الشعب مصطفا فى الشوارع التى مر بها السلطان رغبة فى مشاهدته ، وكان اذا مرت مركبته كشف الناس قلانسهم عن رؤوسهم وحيوه بألطف سلام وهتفوا له بأعلى أصواتهم ، وكان السلطان يرد السلام عليهم بأنس وبشاشة ، وكان حراس المدينة يحافظون على الترتيب والهدوء ومنع القلاقل من جراء ازدحام الشعب .

ولما وصل السيد الى محل مستر هنرى اوسلر خرج مدير المحل وأتباعه الى ملاقاته وسلموا عليه وأدخلوه قاعة فسيحة حوت من كل فنٍ خبراً واحتوت على أصناف البلور المنقوش والملون بأشكال مختلفة ، فرآها السيد وتفرج عليها وسر من مشاهدة أوانى من البلور الأحمر وثريات جميلة الصنعة كانت معلقة فى سقف المحل برسم البيع ، وكان بينها ثريتان تفوقان البقية حسنا وجمالا وكانت الواحدة منهما مصنوعة فى زى الثريات الشرقية فيها ٣٢ مصباحا من الزيت أو الشمع وكان لثانيتها ٢٤ مصباحا من الغاز الهيدروجينى .

ثم ساروا بالسيد إلى محل شغل البلور وعمل الثريات فرأى هناك ثريات بيضا وحمرا وخضراء وتفرج على طريقة عمل الثريات من بدء خشونة البلور الى آخر درجة من صقله وهندامه ونقشه وحفره وتركيبه وعمله ثريات .

وبعد ان أدخلوه الى جميع محلات شغل البلور وعمل الثريات والأوانى

والأقداح وغيرها التفت الى رجاله مسرورا وقال وهو يمزح « الآن صرت أعرف كل أسرار البلور وطريقة عمله » •

وفيما كان خارجا من محل الشغل كانت صبية من اللاتى يشتغلن فى المحل تشتهى أن ترى سعادته وتتملىء بمشاهدته فخطر لبالها ان تخفى نفسها وراء مصراع باب القاعة التى كان السيد سيخرج منها فلما دنا من الباب لاحت منه التفاتة الى مصراع الباب فرأى وراءه شخصا ينظر بعينيه ويسترق النظر اليه ، فعلم بأن الصبية تطمع فى مشاهدة سعادته وانما الحياء الجأها الى التخفى ، فدنا من مصراع الباب ورده قليلا حتى جعل الصبية تنظر الى سعادته مليأ وتشفى غليلها وتفتخر على رفيقاتها بأنها شاهدت سلطان زنجبار أحسن من جميعهن •

ثم خرجوا بالسيد من هناك وساروا الى معمل البواريد والمكاحل شغل مرتينى هنرى ، وبعد أن تفرج على طريقة عملها بآلات البخـــار طلب مدير المعمل الى سعادة السلطان أن يشرفه بكتابة اسم سعادته فى كتاب الزوار ففعل •

ثم سافروا من هناك الى محل آخر اسمه استن للفرجة على معرض يضم بضائع مختلفة الأصناف ، وكانت الموسيقى تعزف بالألحان الرخيمة ، ولمـــا مر السلطان بقربها عزفت بمقامة الدولة البريطانية •

وبعد أن تملى السيد من الفرجة على ما كان فى ذلك المعرض وأراد الخروج هطل مطر غزير كاد يبل ملابسه الرقيقة • فانه كان وقتئذ لابسا رداء فى زى جبة من الشال الأسود وعلى زيقها وأكمامها نقش بالقصب والحرير الملون وعليه ثوب أبيض من الكتان الخالص وفى يده خاتم ثمين من الذهب الابريز منضد بحجر زمرد كريم جدا ، وكان حاملا سيفاً نفيساً وخنجرا قبضته من الفضة النقية • وكان غطاء رأسه عمامة مزركشة ومتمنطقا

بشال كشمير عال مزركش بالذهب ومعلقة فيه ساعة من ذهب فى سلسلة من الذهب الابريز الخالص • فلما اشتد المطر استعجل السيد الى مركبته فركبها وعاد برجاله الى منزله بالسلامة •

الباب الرابع والثلاثون

فى زيارة سعادة السلطان لمعمل الأوانى الفضية والذهبية

فى بيرمنــكهام

خرج السيد برغش أعزه الله نهار السبت ٥ تموز (جولاى) يريد الفرجة على معمل الأوانى الذهبية والفضية • وخرج فى معيته وزراؤه ووالى بيرمنكهام والفقيه جرجس باجر والدكتور كيرك وباقى أتباعه •

وكان شعب المدينة قد عرف ساعة خروج السيد من منزله فاجتمع الناس أفواجا الى باب الدار وشحنوا الأزقة والشــوارع يريدون النظر الى ســعادته •

فلما خرج السيد وركب مركبته رفعوا أصواتهم وهتفوا طويلا وما انقطعت أصواتهم كل تلك المدة حتى وصلت المركبة الى معمــل الأوانى الذهبيــة •

ولــا نزل السيد ورجاله من مركباتهم استقبله مستر ايلينكتن ومستر رولاسن مدير المعمل وسلم على سعادة السلطان بألطف ســلام ، ورحب بقدومه ، ثم دخلوا به الى أماكن الشغل ليفرجوه على ما فى ذلك المعمل العظيم من الأوانى الذهبية والفضية وغيرها •

وفى مرورهم بدهليز المحل رأوا تماثيل ملوك الانكليز القدماء معروضة عن يمين الدرج وشماله بترتيب حسن • فلما وصلوا الى قاعة الفرجة رأوا فيها ما يدهش العقل ويشد البصر • فان طول هذه القاعة يبلغ ماية قدم (فوت) • وعرضها مناسب لطولها • وفى وسطها وعلى مدار أطرافها موائد عليها صناديق من بلور ضمنها أوانى ذهبية وفضية ذات نقوش جميلة شغل أساتذة ماهرين • فصار مدير المعمل يسير بسعادة السلطان بين صناديق تلك الأوانى ويفرجه على أجمل ما كان بينها • وكان من جملة ذلك اناء جميل الصنعة كان مستر بيتردنى قد أوصى بعمله ليقدمه هدية لمن يحوز قصب السبق من الجنود المتطوعة فى بلدته دمبرتن •

ثم فرجوه على أغصان من الصنوبر الطبيعى مموهة بالذهب والفضة بصنعة غريبة مثل التى كان أهداها صاحب ذلك المعمل الى الأميرة زوجة ولى عهد بريطانيا •

ثم فرجوه على كأس من فضة ناصعة كان قد أوصى بعمله أصحاب سباق الخيل ليهدوه من يحوز قصب السبق فى بلدة برايطن ، ويبلغ ثمنه نحو ٤٠٠ ليرة (بوند) ونيف • وكان منقوشا على ظاهره رسم نقوش وتصاوير جميلة وبينها صورة الملك جورج الرابع بهذا الاسم ورسم سباق الخيل • وكان على حرف الكأس تمثال امرأة جميلة المنظر جالسة فى اناء من فضة فى شكل صدف البحر •

ثم فرجوه على أوانى سفرة مذهبة جميلة الصنعة كانوا عملوها ليهدوها ملك بورما بالهند •

ثم ساروا به الى مخدع المصاغ والحلى الذهبية • فشاهد هناك من أصناف الزينة النسائية ما يحير العقول بجمال صنعته • ثم فرجوه على

أوانى مموهة بالفضة مصنوعة على نمط أوانى المصريين القدماء واليونانيين والرومانيين والايتليانيين واليابونيين وغيرها مما يرتاح اليه الناظر .

وكان بين هذه الأوانى ترس مموه بالفضة مصنوع على زى ترس ميلتن الشاعر الانكليزى الذايع الصيت . وكانوا قد عنوا بعمله ليرسلوه الى معرض باريس سنة ١٨٦٧ فسر السيد بجماله وحسن اتقان صنعته .

ثم فرجوه على اناء ثمين بديع الشغل كان قد عرض فى معرض فيانا[1] سنة ١٨٧٣ . وهو اناء لم يصنع مثله الى الآن فى الحسن والجمال واتقان الصنعة ، ولبثوا يشتغلون فى صياغته ست سنين وأنفقوا عليه ٦٠٠٠ ليرة (بونـد) .

ثم فرجوه على أوانى أخرى من ذهب كانت قد عرضت كذلك فى معرض فيانا . ومما يميز هذه الأوانى الذهبية عن غيرها من جنسها هو أن الأوانى الذهبية التى يصنعها الصياغ فى الدنيا كلها اذا تعرضت لرطوبة الهواء مدة من الزمان تغير لونها ، أما هذه الأوانى التى صاغها مستر ايلينكتن فلا يضعف رونقها ولا يتغير لونها ولو تعرضت لرطوبة الهواء زمانا طويلا . فانه قد اخترع طريقة جديدة يطلى بها الذهب تجعله لا يتأثر من رطوبة الهواء .

ثم ساروا به الى محل طلى الأوانى وتمويهها بواسطة الكهربائية وفرجوه على طلى أوان عديدة فسر السيد غاية السرور بذلك لأن سعادته عنده فى زنجبار آلة كهربائية يتسلى فيها فى امتحانات كهربائية .

ثم كان والى بيرمنكهام قد استحضر على بعض نقود فسلمها الى

---

(١) يقصد مدينة فينا .

سعادة السلطان فأخذها وطلاها فى نفس الاناء الكهربائى الذى كان ولى عهد بريطانيا طلى فيه بعض النقود لمـا زار هذا المحل ثم تناولها السيد مطلية بالذهب ودفعها لرجاله ليحافظوا عليها على سبيل التذكار •

ثم فرجوه على قوة الكهرباء وشدتها بامتحان بسيط وذلك أنهم تناولوا قطعة من سلك الحديد وأدنوها من الآلة الكهربائية فاحترق السلك الحديدى فى طرفة عين من شدة حرارة الكهرباء كما يحترق خيط كتان من لهيب النار • فلما رأى السيد كل ما كان فى ذلك المحل من الأوانى والذهب والفضة وغيرها قال « حقيق بان تسمى هذه المدينة (بيرمنهام) لأنها بير — من — هام بالمعنى أى هى ينبوع ثروة الانكليز الذين يهيمون بالذهب فضلا عن غيرهم » •

وفى أثناء ذلك طلب مستر ايلينكتن الى سعادة السلطان ان يتكرم بتدوين اسمه الشريف فى سجل المتفرجين فأجاب السيد طلبه ، وتناول قلما وكتب اسمه بالعربى « برغش بن سعيد » • ثم شكر لمدير المحل ما تكلفه من العناء وخرج برجاله وركب مركبته ورجع الى منزله •

الباب الخامس والثلاثون

فى سفر سعادة السيد الى مدينة ليفربول

سافر السلطان حفظه الله من بيرمنكهام نهار الاثنين ٥ جولاى (تموز) يريد الفرجة على مدينة ليفربول ، وكان فى رفقة سعادته السيد حمود بن حمد والسيد حمد بن سـليمان والسـيد ناصر بن سعيد والشـيخ محمد بن سليمان الفاصـل للدعاوى الشرعية وتاريا توبن التـاجر الهـندى والدكتور كيرك جنرال الدولة الانكليزية والفقيه جرجس باجـر ومسـتر هيل • فركبوا فى قطار سكة الحديد وساروا على بركات الله •

وكان الناس قد بلغهم من صحف الأخبار وقت سفر السلطان فاجتمعوا الى محطات سكة الحديد ليشاهدوا سعادته ويرحبوا بقدومه • فلما وصل السيد بالسلامة الى محطة سكة الحديد بلفربول كان المأمورون قد بسطوا أرض المحطة بطنافس الى باب الدار التى كانوا قد هيأوها لسكنى سعادته • وكانوا قد وضعوا كراسى على الجانبين لجلوس الأعيان والأكابر الذين كانوا قد حضروا الى المحطة لاستقبال سعادته ، وكان قد اجتمع فى المحطة اناس كثيرون لا يحصى عددهم ، ولضيق المكان صعد كثيرون الى ظهر قطار السكة ليغتنموا مشاهدة سعادة السيد •

وفى غضون ذلك أتى والى البلد لفتنت كرنل ستابل لملاقاة الساطان ، وكان صحبته الوالى ناظر المدينة مستر جون بيرسن ومستر جون والكر والى ليفربول سابقا وغيرهم كثيرون من أعيان البلد •

ولما وقفت عربات السكة الحديد فى المحطة خرج منها مستر هيل أولا وكلف والى البلد أن يرافقه ليدخل به الى سعادة السلطان ففعل ودخل ورحب بقدومه واستأذن اليه أن يخرج ويشرف البلد بحضوره •

فلما خرج السلطان طفقت الموسيقى تعزف بمقامة جديدة كان قد نظمها مستر بيرد هول معلم الموسيقى وسماها المقامة الزنجبارية اجلالا لسعادته • فسار السيد مصحوبا بوالى المدينة ورجاله الى الدار المعدة له ولحشمه ، ولبثوا فيها نحو ساعتين من الزمان ليرتاحوا من تعب الطريق •

وفى غضون ذلك كان قد اجتمع أهل المدينة من الرجال والنساء والأولاد ما لا يحصى عددهم وملأوا الأزقة والشوارع وهم ينتظرون خروج سعادته من الدار ليشاهدوا وجهه الأنور • وفى أثناء ذلك كان بعض من رجال سعادته واقفين فى شرفة عالية من الدار يتفرجون على الناس المجتمعين فرأتهن بعض من السيدات ورفعن مناديلهن البيضاء وصرن يخفقن اياها فى الهواء علامة

السلام على رجال السلطان وهن يتبسمن فى وجوههن بلطف وبشاشة . فرد رجال سعادته السلام عليهن بأيديهم بأنس وحشمة •

ثم حضرت فرقة من الشرطة واصطفوا فى الطريق لمنع الناس من الازدحام • ثم فرشوا طنفسة حمراء من باب دار السلطان الى آخر الدرج حتى رصيف الزقاق • وفى أثناء ذلك أتت مركبة والى المدينة تجرها أربعة رؤوس خيل مطهمة ليركب فيها السيد ، ومركبتان أخريان لرجاله وساروا وهم قاصدون دار الولاية والشعب بازدحام يحبذهم ويرحب بقدومهم •

فلما وصل السلطان الى دار الولاية خرج الى لقائه والى البلد وأعوانه وأدخلوا سعادته قاعة الاستقبال وكان فيها شعب غفير من الرجال والنساء لابسات ملابس بيضاء فاخرة ، ولمـــا مر سعادة السلطان بين صفوفهن نهضن فى سلام سعادته وسلمن عليه بألطف تحية وسلام ، فرد السيد السلام عليهن بأنس وبشــاشة •

ثم اجلسوا سعادة السيد فى صدر القاعة على كرسى مجلل بالحرير الأحمر المنقوش بالذهب كما كان يفعل قدماء الانكليز لملكتهم اليصــابات الشائعة الصيت • فلما استوى السيد على ذلك العرش تقدم والى البلد اليه واستأذنه بتلاوة خطاب عن لسان الأمة • فأجاب السلطان طلبته بسرور وبشاشة فنهض حينئذ واحد من العمدة وتلا خطابا فصيحا باللغة الانكليزية وهذا ملخص ترجمته •

أيها السيد الجليل والامام النبيل • قد حق علينا نحن والى مدينة ليفربول ووجوه شعبها أن نهنى سعادتك بوصولكم الينا بالسلامة ونرحب بك وبتشريفك مدينتنا فى هذا النهار السعيد • فقد سررنا غاية السرور بمجيئك الى بلاد الانكليز لعلمنا علم اليقين أن حبك الخالص لهذه الأمـــة

جعلك تتجشم متاعب الأسفار وتحضر الينا لكى توطد علاقات هذا الحب بين دولتك وبين دولتنا البريطانية وتجعل مصالح الأمتين شيئا واحدا ٠

ثم قال : أما نحن معشر الانكليز جملة مع جلالة ملكتنا الفخيمة فقد أضحينا ممنونين لمكارم سعادتك لأجل ما صرفته من حسن العناية الى ابطال تجارة الرقيق وعتقهم والاهتمام فى تهذيبهم ، ولنا ثقة تامة فى شهامة سعادتك بأن تبطل هذه التجارة الذميمة فى سواحل أفريقية الشرقية كلها ٠ ثم نؤمل أن تسر سعادتك بالفرجة على ما فى هذه المدينة من المنزهات والجنائن والتحف والمعامل ، وتدخر ذكرها فى خزنة عقلك الراجح وتذكر محبيك المخلصين الذين تشرفوا فى هذا النهار بمشاهدة سعادتك ٠

حرر بحاضرة ليفربول فى ٥ جولاى (تموز) سنة ١٨٧٥

الامضاء

ريشرد فيل ستابل

وفيما كان الخطيب يتلو الخطبة كان الفقيه جرجس باجر يترجم جملة بجملة الى سعادة السلطان عربيا ٠

وكان هذاالخطاب مكتوبا على قرطاس أبيض كبير وزيرى محفوف بمخمل حرير وردى اللون ومزركش بالذهب وكانت حواشى القرطاس مصنوعة بصياغة من الذهب بصنعة جميلة ٠ وكانت طغرة مدينة ليفربول منقوشة فى صفحة من ذهب فى صدر القرطاس وعلى دائره برواز من ذهب مجمل بنقوش جميلة ومعقودة فى أطرافه ضمات من خيوط ذهبية (شراريب) ٠ وكان الخط جميلا جدا قد عنوا فى كتابته بالقلم الانكليزى القديم الذى كان يستعمله قدماء الانكليز فى الحجج والمكاتبات الملوكية فى عهد الملك هنرى

الثامن • وكانوا قد رسموا على هوامش القرطاس زهورا جميلة ملونة بألوان ناصعة وبمحلول الذهب •

وفى ختام تلاوة الخطاب عرض الخطيب ذلك القرطاس على سعادة السلطان فتناوله السيد بلطف وشكران وسرح نظره فى حسن خطه وفى ما كان فيه من النقوش الزهية ثم سلمه الى واحد من وزرائه للمحافظة عليه •

ثم أوعز الى الفقيه باجر ان يترجم شعائر الشكران والامتنان لوالى المدينة الأفخم ولشعبها ذى اللطف والاكرام • فنهض الفقيه المومأ اليه وقال قد أملى على السيد خطابا بالعربية شكرا لكم على ما أسديتموه اليه من التكريم والتعظيم والتبجيل فى مدينتكم المحروسة مما لم يسبق أن فعلتم مثله للملوك والسلاطين الذين حطوا ركابهم فى هذا البلد من قبله • وها أنذا اتلو على مسامعكم ترجمة خطاب سعادته بالانكليزية •

الى صاحب السعادة والشرف والى ليفربول وأعوانه وشعب هذه المدينة قاطبة أدامهم الله بالعز والاقبال •

أما بعد فقد حق علينا أن نشكر لكم غاية الشكران على ترحـــابكم بقدومنا الى مدينتكم المحروسة • وقد امتلأ قلبنا سرورا لمشاهدتكم والتمتع بأنسكم • (اجاب الشعب حبذا حبذا)[1] •

ثم استأنف الفقيه خطابه وقال قد هاجرت الحضارة والمعـارف من بلادنا الشرقية الى بلادكم الغربية منذ عهد قديم • ولمـا طال اشتياقنا اليها

---

(١) هذه العبارة تكررت كثيرا فى هذا الكتاب ومعناها ان كلام الخطيب قد راق للشعب حتى أن هذا الشعب أمن على كلامه بطريقة ما . (المراجع) .

وأبت ان تعود الى أوطاننا أتينا قاصدين حماها وطالبين عودها الينا . وقد صممنا على نقل شيء منها وان تعذر لدينا الحصول عليها برمتها .

ثم قال ونؤمل بأن يكون هذا الشيء القليل بمنزلة خميرة نضيفها الى عجين النجاح فى بلادنا فتخمر العجينة بأسرها وتترقى زنجبار مع تمـــادى الزمان الى درجة التمدن والعمزان الذى نراه اليوم يزين بلاد الانكليز السعيدة ويرفع مقامها بين الأمم (أجاب الشعب ثانية حبذا حبذا) ثم أردف الفقيه يقول .

ولا يخفاكم أيهـــــا السادات أن دولتنا قد حافظت على مودة الدولة البريطانية منذ مائة عام . وليس فى قلبنا رغبة أشد من رغبتنا فى المحافظة على هذه المودة نحن وأولادنا وخلفاؤنا من بعدنا الى ما شاء الله . (أجاب الشعب ثالثة حبذا حبذا حبذا) .

ثم مضى الخطيب يقول أما ما أشرتم اليه من جرى ابطال تجارة الرقيق فى بلادنا فقد تجشمنا أتعابا عظيمة وخسائر باهظة وصرنا عرضة لأخطار مبرحة طمعا فى حب البشرية وخـــــير الناس ورضى الله ومؤاخاة الدولة البريطانية التى اقترحت علينا هذه الاقتراحات المهمة (أجاب الشعب رابعا حبذا حبذا) .

ثم أردف الخطيب مقاله وقال وقد ألقينا همنا على الله سبحانه وتعالى فى كل ما فاجأنا من المصاعب وتوكلنا على قدرته العظيمة ولنا ثقة تامة فى عنايته تعالى أن يديم لنا التأييد والقدرة على تكميل ارادته وعمل ما فيه الصلاح لعبـــــاده .

ولـــا كان من دأب الله جل جلاله أن لا يرسل الامداد من السماء كما

ينزل المطر على الأرض بل يوعز الى القوى بمساعدة الضعيف فلنا ثقة به تعالى أن يوعز الى دولة بريطانية القوية أن تمد يد المساعدة الى دولة زنجبار الضعيفة وتأييدها على تعميم أسباب الحضارة والعمران (أجاب الشعب خامسة حبذا حبذا) •

ثم استكمل الخطيب كلامه وقال قد شــاع صيت مدينتكم ليفربول المحروسة فى جميع الأقطار واشتهر ذكرها فى الأمصار وذاع اسمها حتى فى زنجبار • واليوم نشاهد بأعيننا عظمة هذه المدينة وجمالها وحسن مينائها وكثرة بوارجها وسفنها واتساع تجارتها ومجد سكانها ولطف أهلها فحق علينا أن نفتخــر بهم ونقتفى آثارهم اذا كنــا نود أن نكون من المفلحين • ثم استطرد •

ولكن لا يكفى زنجبار أن تتشرف باستماع ذكر ليفربول فقط بل تحتاج الى رجال ليفربول أن يشرفوها بما عندهم من الوسائط وأسباب العمران ويرسلوا اليها عمدة تجارهم ومهندسيهم وأرباب صنائعهم النفيسة فيسعون فى فلاحة أراضيها الواسعة واخراج ما فيها من المعادن وتعميم الصنائع الى غير ذلك فيعــود ذلك خيرا عليهم وعلى زنجبار وعلى ما حولها من الأراضى فى أصل البر • (أجاب الشعب سادسة حبذا حبذا) •

ثم ختم الخطيب كلامه وقال فليكن يقينا عندكم أيها السادات الشرفاء أن تذكار هذا النهار وما حزناه منكم من الاكرام لن يمحى من عقلنا ما حيينا ونطلب الى الحق سبحانه وتعــــالى أن يحرس مدينتكم هذه من الآفات ويصون أهلها بالعز والأمجاد آمين •

الامضــاء

السيد برغش بن سعيد

وفى أثناء ذلك نهض الجميع وسلموا على سعادته وصافحوه وتوادعوا[١] معه ثم خرج السيد برجاله وركبوا مركباتهم ورجعوا الى منزلهم مسرورين غانمين والشعب يهتف بأصوات الحبور حبذا حبذا سلطان زنجبار •

الباب السادس والثلاثون

فى فرجة سعادة السلطان على مينا ليفربول

أرسل والى مدينة ليفربول غداة نهار الثلاثاء يطلب الى سعادة السيد أن يشرف دار الولاية حتى يسير فى صحبته الى مرفأ السفن ويفرجه على مينا المدينة وعلى ما فيها من البواخر والسفن المصطفة فيها على مسافة ستة أميال • وهى لاشك أعظم ميناء وأكبرها فى الدنيا • فأجاب السيد طلبته بسرور وركب مركبته وخرج فى رجاله الى دار الولاية •

وعند وصوله اليها خرج الى لقائه والى البلد وأعوانه وسلموا على السلطان وأدخلوه بعز واكرام • وبعد ان لبث برهة من الزمان للراحة نهض ونهض الوالى ورجاله وركبوا مركباتهم وساروا الى ساحل البحر ، وكان الشعب قد تقاطر الى هناك لمشاهدة سعادته واكرامه •

وكان الوالى قد أمر أن يهيئوا باخرة جميلة لركوب سعادته ليسير فيها بحرا ويتفرج على الميناء فركبها مع رجاله • وفيما هم سائرون جرى حادث مكرب فى البحر كدر صفاء كأس سعادته ومن كان معه • وذلك ان باخرة عظيمة كانت خارجة من الميناء تريد الذهاب الى نيويورك بأميريكا الشمالية وكانت سفينة صغيرة مشحونة بالسكر فيها خمسة رجال وامرأتان • فصدمت الباخرة تلك السفينة صدمة مهولة أغرقتها فى قعر الماء فى طرفة عين • فبادر

---

(١) اى حيوه مودعين .

الناس الى نجاة أولئك السبعة أنفار واخرجوهم أحياء وغرقت السفينة برمتها مع ما كان فيها من الســكر •

ثم تعطلت الباخرة الكبيرة من شدة الصدمة ورجعت الى الميناء لاصلاح ما ترك عليها من الكسر • ثم سار السيد الى معمل السفن ومعه السادات ليردس وبودلر وشاهد هناك تعويم مراكب جديدة ثم تفرج على بقية الميناء ورجع بالسلامة الى منزله •

وفى مساء ذلك النهار اتخذ والى المدينة مأدبة شائقة لسعادة السلطان حضرها كثيرون من أعيان البلد وأكابرها وفيما هم على سفرة الطعام نهض والى البلد وطلب الى المدعوين أن يشربوا كأس الهناء فى صحة سعادة ضيفهم الجليل سلطان زنجبار •

وقال قد حق على أهل العالم المتمدن أن يرفعوا مقام هذا السلطان النبيل ويشكروه على ما خول البشرية من الحرية والفلاح وعلى اتفاقه مع دولة بريطانيا على ابطال تجارة الرقيق فى افريقية • وأنتم تعرفون حق المعرفة أيها السادات الخسائر المالية التى حاقت بدولته من جراء ذلك والمشقات التى عاناها فى الانتصار على المصاعب التى نشأت فى ملكه بسبب ذلك • وهذا الفعل الحميد خلد ذكر سعادته فى تاريخ الأمم المتمدنة (أجاب المدعوون حبذا حبذا) •

ثم استتلى[٢] الوالى خطابه وقال لا يخفاكم أيها السادات كم وكم من الملايين من الليرات الذهبية أنفقت دولتنا البريطانية على تحرير الرقيق وابطال تجارتهم من العالم وكم وكم من السنين والأعوام صرفنا فى ذلك حتى بلغنا المراد •

---

(٢) أى استأنف .

أما سعادة السيد برغش فتحمل مثل هذه الخسائر هو وحده ، ونجح فى نوال المرغوب فى وقت قصير ، وصار له علينا فى هذا الأمر فضل عظيم ، وقد صمم بعونه تعالى على صرف الهمة الى استئصال هذه التجارة الذميمة تماما من بلاده .

وقد أحطتم علما أيها السادات بما فى مملكة ضيفنا الجليل من الغنى والمحاصيل والمعادن والخضار الدائم وبساتين النارنج (برتقال)[1] وغيرها من الكنوز المدفونة فى تربة تلك البلاد السعيدة .

وأنتم تعلمون علم اليقين أن اخراج هذه الكنوز الثمينة من قلب الأرض يحتاج الى مبالغ وافرة من النقود . وقد سمعتم مرارا عديدة من فم سعادته أنه يرغب من صميم قلبه فى أن يرى شعب هذه المملكة البريطانية مشمرا عن ساعد الهمة والجد ومقبلا على بلاده وساعيا فى توسيع نطاق الفلاحة والزراعة والتجارة والمعارف الى غير ذلك . وانا لى ثقة أكيدة فى أهل ليفربول المشهورين بعلو الهمة والاقدام وفتح أبواب التجارة فى الدنيا بأسرها ان يغتنموا هذه الفرصة النادرة ويفتحوا أبوابا واسعة للتجارة فى زنجبـــار .

قال هذا والى ليفربول ورفع كأس المدام وطلب الى المدعوين أن يحذو حذوه ويشربوا أقداح الهناء فى صحة سلطان زنجبار المعظم فنهض الجميع اجلالا لسعادته وقالوا حبذا حبذا ضيفنا الجليل سلطان زنجبار .

وفى أثناء ذلك نهض السيد برغش وتلا خطبة فصيحة بالعربية شكر

---

(١) اعتقد ان مترجم الخطبة قد اخطأ حين زعم ان النارنج هو البرتقال ، فالنارنج ثمرة أخرى معروفة فى مصر وبعض البلاد العربية ويسميها العامة فى مصر (اللارنج) وهى فاكهة حمضية ويصنعون منها المربى أو تقدم على الموائد كالمتبلات . (المراجع) .

بها لوالى ليفربول مكارمه العميمة وعلى ضيافته المنيفة ثم أوعز الى الفقيه باجر أن يترجم خطابه الى الانكليزى ويتلوه على أسماع الحاضرين • فامتثل الفقيه المومأ لأمر سعادته ونهض وقال :

أيها الوالى الأفخم كرنل ستابل وأنتم أيها السادات والسـيدات المصونات قد أوعز الى السيد أن أترجم لـكم خطابه وذلك فرض على فاصغوا سمعا الى ما أفصح به وأجاد •

فقال قد رأيت فى مدينتكم المحروسة أمورا ملأت قلبى حبورا وأيقنت منها شدة سروركم القلبى بزيارتى بلادكم السعيدة • ولكن لو تمكنتم من فتح قلبى لرأيتموه يفيض سرورا بمشاهدتكم مما يعجز عن وصفه اللسان • فما لى سوى أن أشكر لكم هذا الاكرام العظيم الذى أسديتموه الى بلطف لا مزيد عليه • ولا غرو فأنتم حقيقون بأن تفتخروا ببلادكم السـعيدة وتتباهوا بعوائدكم الحميدة • فيا ليتنى كنت فى منزلة تحاكى منزلتكم الرفيعة حتى كنت أباريكم فى الافتخار بمملكتى •

ان مجد بلادكم خلقه التمدن ، وقد نشأ فى حضن المعارف وبلغ أشده فى تقاريع الدهور والاعصار وأما زنجبار فقد ولدت فى حضن الخشونة ومازالت فى مهد الطفولة وكم من الأيام والأعوام يقتضى لها أن تشب وتكبر ولكن كيف تشب وتكبر وليس لها من لبان المعارف قطرة وكيف تتقوى وتعتز وليس لها من قوت التمدن شذرة • ولكن ان بذلت بريطانيا الصديقة جهدها وأرضعتها لبان المعارف والتمدن والفلاح شبت على طبع صديقتها وحذت حذوها وبلغت أوج المعالى وجلست عن يمينها واستوت على عرش العـز والأمجـــاد •

وقد سررت بما رأيت فى مدينتكم هذه من العمران وتمام الحرية •

ولكن ما بلغتم هذه الدرجة الرفيعة من الفلاح حتى تجشمتم عرق العمل وتجرعتم غصص المصاعب شربة بعد شربة •

أما أنا فقد خضت بحر الأخطار وحدى وعاركت الدهر بساعدى وزندى ، وأنا أضعف منكم بالمال والرجال ، وانما اعتصمت بالقدرة العلياء وقلت اذا عزمت فتوكل على الله •

وبعونه تعالى تجرأت على الغاء تجارة انشأتها الأجيال ، ومن له المام فى كنه ذلك أدرك حق الادراك ما دون استئصالها من المصاعب والأخطار والخسائر ، ولكن قد زالت الآن بحوله تعالى أكبر هذه المصاعب وما عدت أشتهى على الله شيئا سوى أن يديم لى وداد الدولة البريطانية ما حييت ، وأن يوطد دعائم هذه الصلات الحبيبة على أس الخلوص والاستقامة •

وأما ما أسديتموه الى هذه الليلة من العز والاكرام فقد انطبع فى عقلى وقلبى طبعا ، لا يمحيه كرور الزمان ولا تدرس آثاره من نفسى آفة النسيان ، فاقبلى أيتها الأمة البريطانية العزيزة عربون ودادى وشكرى

فلأشكرنك ما حييتُ وان امت
فلتشكرنك أعظمى من قبرها

فلما ختم السيد خطابه هذا الفصيح هتف الحاضرون بأعلى أصواتهم وقالوا حبذا حبذا سيد الفصحاء سلطان زنجبار ثم رفعوا أقداحهم وأرشفوا عقارها بسر سعادته • أما السيد أعزه الله **فلم يلمس الخمر ولكن مراعاة لمسايرة الحاضرين صب ماء زلالا فى كاس ورفعها الى فمه ، وقال انى أشرب بشرفكم أيها السادات كأسا من الماء القراح الخالص عنوانا** لخلوص ودادى لكم • فقال الجميع حبذا حبذا • ثم ختمت الوليمة ونهض السيد وتوادع مع الحاضرين وتصافح مع والى البلد وركب مركبته ورجع فى رجاله الى منزله بالسلامة •

الباب السابع والثلاثون

فى سفر سعادة السلطان الى منشستر

لبث السيد برغش بليفربول ثلاثة أيام ثم خرج منها الى منشستر يريد الفرجة على ما فيها من معامل القطن والغزل والخام والجوخ الى غير ذلك • وكان وصوله اليها بسكة الحديد نهار الجمعة ٩ (جولاى) تموز صباحا •

وخرج أهل المدينة الى لقائه وقابلوه بمزيد الترحاب كما قابلوا شاه العجم يوم زار مدينتهم • فان الشعب كان قد عرف من صحف الأخبار أن وصول سعادة السلطان الى مدينتهم يكون نهار الجمعة قبل الظهر بساعة •

فتقاطرت الناس أفواجا أفواجا الى محطة سكة الحديد وقدم والى المدينة وأعوانه لملاقاة سعادته ورحبوا بتشريفه مدينتهم ، وكان فى صحبة السلطان السيد ناصر بن سعيد كبير وزرائه وأربعة من مستشاريه السيد حمد بن سليمان والسيد حمود بن محمد والسيد محمد بن حمد والشيخ محمد ابن سليمان وحضرة تاريا توبن والدكتور كيرك والفقيه جرجس باجر ومستر كليمنت هيل وباقى خدم سعادته •

وكانت عمدة مدينة منشستر قد هيأت مركبة ملوكية تجرها أربعة رؤوس خيل مطهمة لركوب سعادته فركبها فى صحبة والى المدينة ، وسار جوزف هيرون وكاتم سره مستر بيرش قاصدين الدار المعدة لسكنى سعادته • وكان الناس قد اجتمعوا أفواجا الى ساحة الدار ليسلموا على سعادته •

ولما وصل السيد صرخ الشعب بأصوات الحبور والترحيب أهلا وسهلا بسعادة سلطان زنجبار • فدخل السيد الدار واستراح فيها نحو ٢٠ دقيقة من الزمان ثم احضروا له المركبة ثانية وطلبوا اليه أن يخرج الى

المدينة ليتفرج عليها • فأجاب طلبتهم وساروا به أولا الى معمل القطن كما فعلوا بشاه العجم يوم زار مدينتهم •

وكانت الأزقة مملوءة بالناس وهم مسرورون بمشـــــاهدة سعادته ويكشفون قلانسهم عن رؤوسهم ويسلمون عليه بألطف سلام أينما سار • وكان السلطان أعزه الله يرد عليهم السلام تارة باحناء رأسه وأخــرى بحركة يده •

ولمـــا وصلوا الى معمل القطن خرج الى ملاقاة سعادته مستر ريشرد هورث صاحب المعمل وسلم عليه ورحب بتشريفه معمله •

ثم دخلوا بالسلطان وأتباعه الى أماكن الشغل وفرجوه على طريقة حلج القطن وغسله وغزله ونسجه وكل ما نيط به حتى يصير خاما ، وكان الفقيه باجر يترجم لسعادة السلطان كل ما كان يشرحه صاحب المعمل لسعادته عن طريقة العمـــل • وفى أثناء ذلك توقفت آلات البخار عن الشغل مدة وصار هدوء عظيم ، وأخذ العملة[1] يغنون بمقامة الدولة البريطانية ترحابا بتشريف سعادته معملهم •

ولمـــا قضى السيد الفرجة وأراد الخروج طلب اليه صاحب المعمـــل أن يشرفه بوضع اسم سعادته فى كتاب الزوار تذكارا لزيارته الشريفة فأجاب السيد طلبته بلطف وكتب اسمه بالعربى « برغش بن سعيد » • فشكر صاحب المعمل لسعادته ذلك وبعد أن توادعا خرج السلطان من المعمل والناس من الداخل والخارج يحبذونه •

ثم ساروا بسعادته من هناك الى دار التحف وكان والى سالفرد يشرح

---

(١) تكرر هذا اللفظ مرات عديدة كلما زار السلطان مصنعا ، ويقصد المؤلف بكلمة العملة أى العمال .

لسعادة السلطان عما كان فى تلك الدار من التحف النفيسة ، ومازالوا حتى حانت ساعة الغداء فخرجوا من هناك وساروا الى دار التجارة وكانت الناس قد ملأت الأزقة والشوارع حتى كاد يتعسر مرور مركبة سعادته فى الطريق من شدة ازدحام الناس •

ولما وصل السيد ورجاله الى دار التجارة وصعد الدرج رأى جمعا غفيرا من الرجال والنساء والأولاد قد تجمعوا الى ساحة دار التجارة يريدون مشاهدته وهم يصرخون صراخا عاليا استرحابا بسعادته ، وكان الشعب يتماوج من شدة الازدحام تماوج بحر عجاج متلاطم بالأمواج ، ولما دخل السيد دار التجارة رأى منها ما سره غاية السرور وتعجب من سعتها وعلوها وحسن بنائها واتقان نقوشها ، وقال هذه الدار نعم الدار • ولا غرو أن اتساع تجارة منشستر فى الدنيا تحتاج الى دار واسعة مثل هذه • وبعد أن قضى الفرجة على ما كان من التحف فى تلك الدار خرج منها وركب مركبته ورجع فى رجاله الى منزله وشعب المدينة محدق به من وراء ومن قدام ، وهم يحبذونه الطريق بطوله •

الباب الثامن والثلاثون

فى تشريف سعادة السلطان لدار الولاية بمنشستر

أرسل والى منشستر يرجو سعادة السلطان أن يشرف دار الولاية • فان عمدة المدينة عازمة[1] على تقديم فروض الترحاب الرسمى لسعادته • فأجاب السيد طلبته وركب مركبته وسار فى رجاله الى دار الولاية •

وكانت العمدة قد صرفت عنان العناية الى تزيين دار الولاية زينة تليق

---

(١) كلمة عازمة تعود على عمدة المدينة ، والعمدة هنا يعنى بها المؤلف مجلس ادارة المدينة .

بملك جليل ، ، وفرشوا أرضها بطنافس قرمزية وأوراق الغار وأصناف الزهور الجميلة ، وكانوا قد خصصوا فى قاعة الاســتقبال أماكن عالية لجلوس السيدات حرم أعيان البلد •

فلما وصل السيد الى دار الولاية رأى الناس مزدحمين عليها ازدحاما غريبا وقطعوا الطريق على مرور مركبته ومركبات رجاله • فمست الحاجة الى حضور الشرطة وحراس المدينة لمنع الناس من الازدحام وفتح الطريق لمرور سعادته ورجاله • وكان الشعب لا ينفك من الصياح والتحبذ لسعادته الى أن هطل مطر غزير ملأ أفواههم بماء الغمام وسد حناجرهم عن الصياح وبل ثيابهم حتى اضطروا الى الفرار •

وكانت فرقة من العساكر الخيالة قد رافقت سعادة السلطان من المنزل الى دار الولاية ، ولمــا دخل السيد قاعة الاستقبال نهض الجميع فى سلامه ورحبوا بقدومه وصافحوه وهنأوه بالسلامة •

أما السيدات اللاتى كن حاضرات فسلمن عليه بنشر مناديلهن البيضاء وتحريكها بأيديهن علامة السرور كمألوف عادة نساء الانكليز • وقال سار جوزف هيرون لمــا رأى ما فعلته النساء من نشر مناديلهن ان سعادة السلطان قد سر بتحريك مناديل السيدات علامة السلام عليه • ولكن عندى أنه يفضل ان يسمعهن يسلمن عليه بأصواتهن العذبة أكثر من تحريك مناديلهن الصامتة • فصرخت السيدات حينئذ بأصوات رخيمة حبذا حبذا سلطان زنجبار •

ثم أجلسوا السيد على كرسى وجلس والى المدينة الى يمينه • ثم جلس باقى الوزراء حسب مراتبهم • وفى أثناء ذلك نهض والى المدينة وقال لسعادة السلطان قد قر قرار أعيان المدينة وأكابرها ان يعرضوا على سعادتك خطاب التهنئة رسمياً فى هذا المحفل فان حسن بأعين دولتك قبول ذلك فيتلوه والا فلا • قال السيد فى جوابه حبا وكرامة • فنهض سار جوزف هيرون وتلا خطاب التهنئة الرسمية بالانكليزى وهذه ترجمته ملخصا •

الى سعادة السيد برغش بن سعيد سلطان زنجبار وما يليها من أصل البر أدام الله مجده واقباله آمين •

أما بعد فنحن والى منشستر وأعيانها وأكابرها نتشرف بتقديم التهانى الرسمية لسعادتك ونرحب قلبيا بتشريفك مدينتنا • ونحن بالأصالة عن أنفسنا وبالوكالة عن عموم شعب هذه الحاضرة نعرض على سعادتك ما نشعر به من السرور والفرح بمشاهدة سلطان جليل مثلك • كوننا واثقين غاية الثقة بأن زيارتك هذه لنا تكون باعثا على توطيد صلات الوداد بيننا أشد توطيدا وسببا لخير بلادنا وبلادك سوية •

ثم قال : ولنا أمل بأن يتسع نطاق التجارة فيها وتكثر أسباب الحضارة والعمران فى ظل ظليل سعادتك وهمتك العلية وترى بعينيك نجاح المملكة وعزها وأنت رافل فى ثوب السعادة والاقبال آمين •

فلما سمع السيد الخطاب بتمامه أوعز الى الفقيه جرجس باجر أن يترجم خطابه العربى الى الانكليزى ردا على خطاب والى المدينة • فنهض الفقيه المومأ اليه وشكر لوالى المدينة وأعوانه ما أسدوه اليه من الاكرام فى ذلك المحفل الحافل ، وأثنى على شعب المدينة كافة لأجل حسن الملاقاة التى لاقوه بها الى غير ذلك مما نقتصر عن ذكره خشية الملل •

نهض مستر براونينك وتلا خطابا عن لسان مجلس تجارة مدينة منشستر قال فيه ما ترجمته ملخصا •

الى سعادة السيد برغش بن سعيد سلطان زنجبار أعزه الله •••

أما بعـــــد •••

فنحن رؤساء مجلس التجارة نترحب بقدوم سعادتك الى هذه المدينة مركز تجارة العالم فى الأصناف القطنية ، وقد علمنا أن والدك المغفور له

سلطان زنجبار كان صاحب أراض واسعة مخصبة يعتنى فى حراثتها وفلاحتها ويستغل محاصيلها ويبعث بها الى أوروبا ، وما كان يحجـــر على الأموال الداخلة الى ملكه •

ويسرنا أن نرى الولد سر أبيه ويحذو حذوه فى هذه الشمائل الحميدة • وقد صرنا فى غاية الامتنان لسعادتك لأجـــل ما وعدت به أمتنا البريطانية ولاشك انك تفى بوعدك الصادق وتبطل تجارة الرقيق تماما ، وتعضد التجار فى بلادك على فتح أبواب جديدة للأشغال والأرباح والمعامل التى عليها مدار عز المملكة وجاهها وقوتها ، واتساع دائرة الأشغال يفتح سبيلا للأهالى أن يوظفوا فى دوائر مختلفة وينفتح باب الرزق فى وجوههم وتسعد أحوالهم وتقوى عزائمهم على المحاماة عن الوطن والملك •

ولنا ثقة تامة بأن زيارة سعادتك هذه البلاد تكون باعثا على توثيق عروة الحب والوداد بين دولتى بريطانيا وزنجبار ، وتكونان مثل أختين متحابتين تعضد كبراهما الصغرى فى جميع الملمات ، فنسأل الحق سبحانه وتعالى أن يستجيب دعاءنا هذا ويسبغ على سعادتك وعلى ملكك وشعبك فيض الخيرات والبركات والاقبال آمين •

ولمـــا فرغ الخطيب من كلامه أوعز السلطان الى الفقيه جرجس باجر بان يشكر له على خطبته الفصيحة ، ويعد الحاضرين بان السلطان لا يقصر فى شىء من كل ما وعد به ، ويؤمل بأن امة الانكليز أيضا لا تخرم بوعدها[1] مع دولة زنجبـــار •

وكما أن أمة الانكليز ترحب اليوم بقدوم سعادته الى بلادها هكذا

---

(١) اى أنها لن تنكث بعهدها .

سوف يترحب السلطان بقدوم تجار الانكليز الى بلاده متى شرفوها وحملوا اليها كنوز تجارتهم وأموالهم النفيسة • فصرخ الجميع بصوت الحبــور وقالوا حبذا حبذا ثم نهض السلطان وصافح الوالى وباقى رجال العمدة وخرج من قاعة الاستقبال •

الباب التاسع والثلاثون

فى حضور السلطان وليمة والى منشستر

أقام والى منشستر مأدبة شائقة لسعادة السيد برغش ليلة النهــار الذى قدموا له الخطب • وحضر أيضا تلك الوليمة قوم كثيرون من أعيان البلد • ولمــا كان السيد على سفرة (مائدة) الطعام نهض الوالى وخطب خطبة فصيحة أثنى بها على سعادة السلطان وهذه ترجمتها ملخصا •

أيها السادات الكرام انى اكلف اليكم هذه الليلة ان تشربوا معى كأس الهناء[1] بسر هذا السيد الجليل سلطان زنجبار المعظم الذى قد شرف محفلنا البهيج بحضوره السعيد •

ولاشك أن ضيفنا الكريم هذا قد قصدنا من أقصى بلاد الشرق ليرى بعينيه هذه المملكة التى وان كانت صغيرة فى مساحة أرضها غير أنها فسيحة جدا فى غناها وجاهها وعزها وسطوتها وامتداد ملكها من مشرق الشمس الى مغربها • هذه المملكة قد أضحت ترقص فرحا وحبورا بمشاهدة ملك من ملوك أفريقية الكبرى ، فهو لاشك ملك زينته أشرف خصال الملوك وجملته الطبيعة بعقل راجح وقلب سليم ، والدليل الأعظم على رجحان عقله الثاقب

---

(١) يقصد نخب السلطان . وسبق أن ذكر السلطان فى مجاراة القوم بشرب نخب تحية لهم ولكن « ماء زلالا » وهو « ماء قراح خالص » لأنه مسلم لا يشرب الخمــــر •

هو قدومه الى هذه البلاد ليرى ما فيها من العمران والنجاح ويتخذ منـــه وسيلة لنشره فى بلاده .

وما يدلنا على سلامة قلبه الشفوق الرؤوف هو سعيه بابطال تجارة الرقيق من بلاده وتحرير عباد الله من نير الرق والاعتناء فى تهذيبهم واصلاح شؤونهم ، وقد سرت أمة الانكليز قاطبة بحسن مساعى هذا السيد الشهم الهمام مع أن كثيرين نهضوا ضده وقاوموا ابطال تجارة الرقيق من بلاده . ولكنه انتصر عليهم بحزمه وذكاء عقله الراجح وهمته العلية ، وأقنعهم بأن نجاح البلاد وسعادتها قائمة ليس فى تجارة الرقيق الذميمة بل فى الحرية والمساواة بين عباد الله .

ونشر المعارف وادخال الصنائع وتحسين أحوال الزراعة واجراء العدالة والانصاف بين الأبيض والأسود ، والمسلم والنصرانى ، والعربى والعجمى ، لأن جميع البشر خلقة الله ، وهم من أب وأم واحدة وأصل واحد وليس لهم ما يفتخرون به على بعضهم سوى الطين والماء .

فمن زينته هذه المزايا الحميدة وجملته هذه الخصال المجيدة كان حقيقا بأن يملك على البلاد ويسوس العباد ويخلد ذكره ليس فقط فى صحف التاريخ بل فى قلوب الناس أجمعين الى دهر الداهرين : فهلموا اذا أيها السادات وحيوا هذا السلطان الجليل الذى أوردت على أسماعكم شطرا من صفاته الحميدة . فنهض الجميع وحبذوا السيد برغش .

ولمـــا فرغوا منالتحيات أوعز السلطان الى محبه جرجس باجر الفقيه أن يترجم شعائر قلب سعادته الى الحاضرين .

فنهض الفقيه باجر وقال أيها السادات الكرام قد أمرنى السيد بأن أترجم لكم خطابه هذا ردا على خطاب سعادة الوالى الأفخم ، فقال :

قد أضحيت غريق بحر الامتنان لكم هذه الليلة السعيدة • فقد غمرتمونى بالأفضال والمكارم والتبجيل • وقد أضحيت مخجولا (خجلاً) مما بالغ به واليكم الأفخم فى تقريظى وتعداد صفات أكاد لا أعهد فى نفسى نذرة منها • فقد أفحمت فى الجواب • ثم مضى يقول :

ومنذ تشرفت بحضورى الى بلادكم لم افتر عن تقديم الشكران لمكارمكم العميمة • والآن قد فرغ ما كان فى جعبة عقلى وقاموس لغتى العربية من الكلام للتعبير عما فى صميم قلبى من الشكران على أفضالكم فأطلب اليكم أن تعذرونى اذا رأيتمونى هذه الليلة مقصرا فى الكلام • ولكنى أكرر تقديم الشكران لكم ألفاً فى ألوف من المرات •

ومما يجب على أن أقر به فى محفلكم هذا الجليل هو انى قد سررت غاية السرور بمدينتكم هذه وأضحيت غريقاً فى بحر أفضال شعبها الكريم الذى غمرنى بالاكرام والعز والتحبيذ والترحاب • وكل هذا يفوق استحقاق شخصى الحقير • (فلما قال هذه الفقرة الأخيرة صرخ الشعب وقال كلا كلا أنت تستحق أكثر مما قلنا وفعلنا اجلالا لسعادتك) •

ثم استأنف الفقيه خطابه على لسان السيد وقال • امتلأ قلبى حبورا بينما كنت اليوم أطوف المدينة أريد الفرجة على ما فيها من التحف فرأيت العملة الذين يشتغلون فى معامل القطن وغيرها يتزاحمون فى الأزقة ليشاهدونى وهم لابسون ملابس الشغل • وقد أشارت اليهم صحيفة الأخبار انهم تقاطروا أفواجا الى الشوارع وهم لابسون ثيابا مبقعة بأقذار المعامل • ولكن تلك البقع فى ملابس العملة هى عندى أثمن من الجواهر الكريمة وهى أشرف من نواشين (نياشين) الشرف التى تعلق على صدور الملوك •

فلولا تلك البقع فى ملابس العملة لما تيسر للملوك لبس الشفوف وحمل نواشين الشرف على صدورهم • فيا ليت كان فى مملكتى رجال من

العملة على طراز رجال مدينتكم هذه • فان رفاهية معاش الأغنياء قائمة فى اجتهاد العملة وهم أيدى وأرجل الأمة والملكة وبدونهم لا يتيسر لهما السير على قدم النجاح • وأود لو أن أقدر أرسل قوما من شعبى الى مدينتكم هذه ليتعلموا من عملة معاملكم منافع الشغل والجهد ويرجعوا الى وهم لابسون ثيابا عليها بقع المعامل وأنا أضيف اليها نواشين شرف منضدة بالجواهر الكريمـــة •

فلما قال هذا صرخ جميع الحاضرين بأعلى أصواتهم وقالوا حبذا حبذا ثم ختمت الوليمة وتوادع السيد مع الوالى وأعوانه وتصافحوا ثم خرج فى رجاله وركبوا مركباتهم ورجعوا الى منزلهم فى سرور وحبور • وفى الغد ركب السيد قطار سكة الحديد وعاد الى لندن سالما غانما •

البـــاب الأربعـــــون

فى خلع امتيازات لندن وحريتها على سعادة السلطان

كتب حاكم لندن كتابا لطيفا الى سعادة السيد برغش يستقدمه الى دار الحكم ليخلع عليه امتيازات لندن القديمة وحريتها كما جرت العادة مع الملوك والسلاطين الذين يزورون لندن • فأجاب السيد طلبه بلطفه المعهود ، وكان قد اجتمع الى دار الولاية والى لندن وأعوانه ورجاله وهم لابســـون ملابسهم الرسمية • وكانت قد حضرت أيضا السيدة زوجة والى لندن فى صحبة كثيرات من حرم الشرفاء وهن لابسات أفخر الملابس ومزينات بأجمل الحلى والمجوهرات •

فلما وصل السيد الى دار الولاية خرج الى لقائه مستر ستابلتن ومستر فيلبس وغيرهما وسلموا عليه وأدخلوه دار الولاية بعز واكرام • وكان فى صحبة السيد وزراؤه ورجاله والمحب جرجس باجر الفقيه • ولـــا استوى

السلطان على الكرسى المعد له نهض والى لندن وخطب خطبة وجيزة فى مدح سعادة السلطان وتعداد صفاته الحميدة التى جعلته أهلا لاكرام أمة الانكليز قاطبة ، وعزيزا عند الناس أجمعين • ثم نهض كاتم أسرار الوالى وقرأ رقعة قال فيها ما ترجمته ملخصا •

أيها الامام الجليل والسلطان النبيل السيد برغش بن سعيد سلطان زنجبار وما يليها أدام الله مجدك واقبالك آمين •

أما بعــد ••• فقد حسن بأعيننا نحن والى لندن القديمة وشرفاؤها أن نخلع على سعادتك امتيازات لندن وحريتها التى قد جرت العادة أن نخلعها على الملوك والسلاطين المتحابين لدولتنا البريطانية اجلالاً لمقامهم وطمعا فى توطيد صلاة الوداد الوثيقة بيننا وبينهم •

ولمــا كانت أسباب التمدن قد سهلت وسائط الأسفار وفتحت الطرقات وقربت أهل العالم الى بعضهم بعضا ، حصلنا اليوم على شرف عظيم بقدوم سعادتك الى بلادنا • ولنا أن نفتخر بك أيها السيد أكثر من افتخارنا بالسلاطين الذين سبقوك الينا • فانك أنت أول سلطان عربى الأصل والنسب قد شرف بلادنا ، أنت وان كنت من أمة عربية قديمة العهد فقد أتيتنا اليوم بما لم تأته قبلك الأوائل •

فأنت قد تفردت بحب الانسانية وفتحت أبواب الحرية فى وجوه قوم طال ما نكبوا بمصائب الرق والعبودية • وأنت أول سلطان عربى عقد معنا معاهدة على ابطال تجارة الرقيق ، وأنت أول من سطر اسمه الشريف فى صحف تاريخ الحرية الافريقية ، وأنت أحق من سواك بنوال شرف حرية لندن القديمة وامتيازاتها المنيفة • ولهذا نطلب من الحق سبحانه وتعالى أن يديم لنا بقاءك بالعز والاقبال ، ويوطد ملكك على دعائم المجد ما اختلفت الأيام والليال آمين •

فلما فرغ الخطيب من كلامه أوعز السلطان الى محبه باجر الفقيه أن يترجم الى اللغة الانكليزية خطابه الآتى ردا على خطاب الوالى •

فنهض الفقيه المومأ اليه وقال : أيها الوالى الشريف ويا أيها السادات الكرام قد تشنفت آذاننا بسماع خطابكم البديع ، وسررنا غاية السرور بما أسديتموه الينا من الاكرام والتحبيذ الذى لانشك بأنه صادر من صميم قلبكم السليم • ونحن نحتسب كل هذا فخرا عظيما لنا ولذريتنا العربية من بعـــدنا •

ولا ريب أن شهرة مدينتكم لندن وحريتها ذائعة فى سواحل أفريقية الشرقية كما هى معروفة فى الدنيا بأسرها ، ونحن نقبل بفرح لامزيد عليه شرف امتيازات لندن وحريتها التى من نيتكم أن تخلعوها علينا لتوطيد صلات الوداد بيننا وبين دولتكم الفخيمة • وهذا غاية ما نتمناه وسوف نبذل همتنا الى المحافظة على هذا الود الذى اكتسبه لنا أجدادنا بعناء وتعب شـــديدين •

أما مسألة تحرير الرقيق فى بلادنا فاننا نراها قد أخذت بمجامع قلوبكم ، وشغفت عقولكم وأينما توجهنا وحيثما حللنا رأينا لسان أمتكم لا يفتر عن النطق بها • ولا عجب فى ذلك • فانكم تتذكرون ما قاساه جدودكم من العناء وما أنفقته أمتكم من الدينار الوضاح فى سبيل تحرير الرقيق من بلادكم وبلاد بقية الأمم •

واننا مسرورون غاية السرور بهذا كله لاننا نراكم تعتبرون قـــدر المصـــاعب التى تحملناها فى هذه المســـألة ، وتدركون قيمة الدراهم التى خسرناها من جراء ذلك • وما نتمناه علاوة على هذه المتاعب كلها هو أنكم لا تقفون عند هذا الحد وتقتصرون على اظهار المعروف بالكلام الداوى فقط • بل أن تقرنوا القول بالعمل وتفتحوا ليس أفواهكم فقط بل خزائن

أموالكم وتبذلوها فى تحرير الرقيق بأفريقية كما بذل جدودكم خزائن أموالهم فى تحرير الرقيق ببلادكم •

وأنتم تعلمون علم اليقين أن من قال وفعل كان نعم الرجل • فنسأل المولى سبحانه وتعالى أن يأخذ بيدكم وبيدنا ويقدرنا على ما فيه خير لعباده فهو السميع المجيب آمين •

فلما انتهى الفقيه من تلاوة خطاب السلطان حبذه جميع الحاضرين طويلا • ثم نهضوا من المحفل وساروا بسعادة السلطان الى بيت السفرة وكانوا قد هيأوا له ولرجاله ولكثيرين من الأعيان وليمة فاخرة فجلسوا جميعا وتناولوا الطعام فى هناءٍ وصفاءٍ ولا حاجة الى وصف ما كان على السفرة من فنون الأطعمة الفاخرة فان فى الاشارة كفاية •

وبعد الطعام تلا الوالى خطبة أخرى فصيحة كلف بها الى المدعوين ان يشربوا كاسات الهناء بسر سعادة السلطان ففعلوا جميعا وهم يصرخون بأعلى أصواتهم حبذا حبذا •

وفى ختام الوليمة شكر السلطان لوالى لندن • ولزوجته ولجميع من حضر الوليمة من الأعيان وتوادع معهم وخرج فى رجاله راجعا الى منزله ، وخرج والى لندن معه الى باب الدار يشيعه فرأوا جمعا غفيرا من الناس قد اجتمعوا الى ساحة دار الولاية يريدون أن يشاهدوا سعادة السلطان ويسلموا عليه فلما رآهم السيد وهو خارج قال لوالى لندن هل بقى أحد فى مدينة لندن العظمى ولم يحضر هذه الليلة الى هذه الساحة ؟ ، فانى لم أعهد من ذى قبل جمعا غفيرا مثل هذا •

فقال الوالى فى جوابه قد انطبع أيها السيد حبك الخالص فى قلوب أمة الانكليز ، وكلما ازدادوا نظرا اليك ازدادوا حبا لك • وقد أدركوا أن ساعة

الفراق قد دنت وانهم يطمعون فى أن يتزودوا منك بنظرة عند الوداع • فقال السيد بارك الله فيكم وفيهم وأدام لى حبكم هذا فهو أصل مناى وغاية مطمعى • ثم تصافح السيد مع الوالى وركب مركبته وانصرف بأتباعه فى كنف الرحمن •

الباب الحادى والأربعون

فى حضور سعادة السلطان وليمة ولى عهد بريطانيا

لمـــا دنا وقت سفر سعادة السلطان من لندن أقام له ولى عهد دولة بريطانيا وليمة شائقة فى جنينة شيزيك على سبيل الوداع • ودعا اليها الأمراء والشرفاء واللوردات والبارونات والمركيزات وغيرهم من رجال الدولة والسياسة والسفراء ما بلغ عددهم نحو ٤٠٠ نفس من الرجال والنســاء أغفلنا عن ذكر أسمائهم فردا فردا خشية الملل •

وكان فى صحبة السلطان وزراؤه وأتباعه الدكتور كيرك والفقيه جرجس باجر ومستر هيل وغيرهم • وصرفوا نهارهم فى تلك الجنينة بالصفاء والسرور وهم محاطون بزهور الطبيعة وأناقة نساء الشرفاء والخواتين اللاتى كن نخبة سيدات بلاد الانكليز • وكانت ملابسهن الفاخرة وزينة ما عليهن من الجواهر الكريمة قد زادتهن حسنا وبهجة •

وبعد ان تفسحوا وتنزهوا ساعات طويلة وهم فى أنس وحبور تناولوا الطعام على سفرة متفننة بالأطعمة الملوكية ، ثم شكر السلطان لولى العهد مكارمه العميمة وما ناله فى مملكته من العز والاكرام وحسن الضيافة ، وتوادع معه وصافحه ثم ركب مركبته وانصرف برجاله الى منزله وهو فى غاية الامتنـــــان •

الباب الثانى والأربعون

فى ما خلفه السلطان من الذكر الحميد فى قلوب الانكليز

نشرت صحيفة « التيمس » الانكليزية نهار سفر السيد برغش من لندن الى فرنسا فصلا طويلا عددت فيه حسن خصاله الحميدة وامتداد ملكه بأفريقية حتى نقطة خط الاستواء ، وما لسعادته من الهمة على اجـراء الاصلاح وتوسيع نطاق الحضارة والتجارة فى بلاده • وقد ترجمناه من الانكليزى الى العربى ملخصا •

قالت النشرة المومأ اليها • قد ولعت أمتنا الانكليزية فى بسط الكلام عن الملوك والسلاطين الذين يشرفون بلادنا من حين الى حين • ولكن تشريف سلطان زنجبار المعظم قد أخذ بمجامع قلب الأمة قاطبة ، وهش له كل وجه ونطق بمدحه كل لسان وتأصل ذكره الحميد فى قلب كل انسان • وذهل الناس عن ذكر سواه كأن لا قبله ولا بعده أتانا ويأتينا من حاباه •

فكنا قد تشرفنا منذ عامين بزيارة جلالة شاه العجم وارتاحت أمتنا الى ملك تأصل ذكر ملكه فى عقولها من نعومة أظفارها • فمنظر شاه العجم الذى كان يتشعشع شخصه بأحجار الالماس والزمرد والجواهر الكريمة كتشعشع قلب الأطلس بالنجوم والكواكب المنيرة ذكر أمة الانكليز بمملكة فارس العظيمة وبملكها داريوس الكبير وبعزه وسطوته واقتداره وحروبه مع اسـكندر المقدونى ذى القرنين •

أما الآن فقد انمحى ذكر هذا الشاه الجليل من عقول الأمة كأنه لم يأت ولم نره أبدا • وبردت محبة الانكليز له منذ رأوه يميل الى حب الروسية ويطمع فى مواخاتها فضلا عن دولتهم •

ثم كان الشاه قد وعد الدولة البريطانية يوم كان بلندن أن من نيته فتح بلاده لتجارة الانكليز وادخال العمران والاصلاح فى ملكه بســعى رجال الانكليز • ولكن أضحت مواعيده برقا خبا وسحابة لا ماء فيها • ورأينا نحن أيضا أن دوننا ودون بلاد فارس حائل عظيم يقطع وصالنا معها فهى غير متحابة معنا • فبردت حينئذ همة الأمة وخمدت مطامح رجال السياسة •

أما سعادة السيد برغش الذى قد حان يوم فراقه ودنت ساعة رحيله بالسلامة من بلادنا ، فليست منزلته منزلة شاه العجم ، ولكن مقامه فى أعين أمتنا الانكليزية أرفع من مقام الشاه ، وذكره أحب الينا ، وبلاده أشد أهمية ، وموقع مركزها الجغرافى يزيد آمالنا بأنها تضحى يوما من الأيام أكثر اتساعا من بلاد فارس •

وقد اشتهرت بلاد السيد برغش من قديم العصور بالخصب والغناء وجودة التربة والمعادن • وقد ذكرها الشاعر ميلتن الانكليزى فى ديوانه البديع المسمى « بالفردوس المفقود » • فقال فى قصيدة منه « رفع الملاك ميخائيل آدم عليه السلام الى قبة السماء وأطلعه على مملكة نجوس ومرسى اركوكو وبلاد ممباسا واكويلو ومالند » • وكانت هذه البلاد قبل اندراس آثارها من الممالك الخاضعة الآن لسلطان زنجبار •

ولكن لا ينحصر ملك السيد برغش فى حدود هذه البلاد فقط بل يمتد الى ما شاء الله فى أصل البر من أفريقية ، وأراضى بلاده تصلح لزراعة كل ما تنبته بلاد المنطقة الحارة الشديدة الخصب ، وفيها مراس كثيرة للسفن تسهل على التجار نقل المحاصيل والغلال منها الى جهات الدنيا •

وفى أواسط قارة أفريقية بحيرات وسيعة عظيمة تصلح لسير السفن والمراكب اكتشفها السياح فى هذه الأيام الأخيرة ، وهذه البحيرات تحت أمر سعادة السيد وقد توغلت جنوده فى تلك الجهات ونصبت خيامها الى

جوار بعض البحيرات ، وكان اسماعيل باشا خديو مصر قد طمع فى توسيع ملكه وأرسل جوقا من جنوده الى أواسط أفريقية وأمرهم أن يفتحوا تلك البلاد ويستولوا عليها الى خط الاستواء • ولكن اضطر أخيرا الى سحب جنوده والكف عما خامره قلبه من الطمع وحب الفتوحات • فان الخديو لا يتيسر له الوصول الى نقطة خط الاستواء من دون أن يغزو بلاد السيد برغش الواقعة بين الديار المصرية ونقطة خط الاستواء ، ورجال السياسة فى أوروبا لم يسمحوا لسعادة خديو مصر أن يسطو على بلاد السيد برغش ويغـــزوها •

أما السيد فلا يوجد له عائق يصده من فتح تلك البلاد الواسعة حتى نقطة خط الاستواء وقد أخذت جنوده فى التوغل فى غربى القارة ولنا معرفة تامة باتساع تلك البلاد وندرك حق الادراك ان للسيد برغش حقا فى توسيع ملكه الى ما شـــاء الله من دون أن يعترض له عارض • وقد اطلعنـــا من الاكتشافات الأخيرة التى أتتنا بها مجموعة السياح أن تلك البـــلاد التى كانت مجهولة عند علماء رسم الأرض قديما هى بلاد سعيدة مخصبة تسكنها قبائل قابلة للتمدن والحضارة • ومناخها ليس بسقيم كما كان يزعم القدماء ، وهى تصلح لسكنى الأوروبيين أيضا اذا اختاروا الاقامة فيها وسعوا فى توسيع نطاق الزراعة والتجارة والفلاح •

ولنا ثقة راهنة بأن أهل الحزم من الانكليز وغيرهم لا يلبثون طويلا أن يدخلوا تلك البلاد ويعينوها فى ظل ظليل سعادة السيد برغش سلطانها العادل ، ولنا أمل أيضا بأن تضحى مملكة زنجبار بعد مائة عام مملكة واسعة تشمل أراضى فسيحة وتمتد الى أقصى بلاد الزنوج • ومتى دخلت تلك الأراضى فى حوزة سلطان زنجبار ترقى سكانها الى طبقات الحضارة ، وعكفت على اكتساب المعارف والاشتغال بالصنائع والاعتناء بالحراثة والتولع بالتجارة وصارت أمة عزيزة بالرجال وغنية بالمال • وقد ذكر لنا سار بارتل فرير أشياء

كثيرة عن بلاد زنجبار وأحوالها فى كتاب رحلته يوم تفقد تلك البلاد ، ولا ريب ان السار المومأ اليه قد أصاب عين الصواب فيما قاله •

الباب الثالث والاربعون

فى سفر سعادة السلطان من لندن الى كاليس[1]

سافر السيد برغش فى صحبة رجاله من لندن الى بندر كاليس اليوم الحادى عشر من شهر جمادى الثانية (ايار) وكان ذلك نهار الخميس • وكان فى صحبته المحب جرجس باجر الفقيه والدكتور كيرك ومستر كليمنت هيل ، ولمـــا وصلوا الى محطة جارين كروس كانت قطار سكة الحديد (جارى البخار) حاضرة فركبوها وساروا فى كنف الرحمن ، وبعد ثلاث ساعات وصل السيد ورجاله بالســـلامة الى بندر دوفر الموجود فى آخر حدود جزيرة بريطانيـــــا •

ولمـــا نزل السيد من جارى البخار لاقاه وجوه البلد بعز واكرام لامزيد عليهمـــا •

ثم هيأوا مركبا بخاريا اسمه « فيكتوريا » وهو من أسرع المراكب جريا يسير ١٨ جيرة (عقدة) فى الساعة وقوة بخاره تعادل قوة ٢٠٠ حصان • فركبوا فيه بعد ما شيعهم الانكليز وركب فى صحبة سعادة السلطان ثلاثة أنفار من الانكليز وهم الفقيه جرجس باجر والدكتور كيرك ومستر كليمنت ، وساروا بالسلامة وطابت لهم الريح وراق البحر • وبعد ساعة من الزمان قطعوا الخليج ووصلوا الى بندر كاليس من بنادر بلاد فرنسة وقت الغروب •

---

(١) يقصد ميناء كاليه الواقع على بحر المانش .

ولما وصلوا الى المينا لاقاهم رجال الفرنسيس وأكابر البلد وكثيرون من العساكر وطلبوا الى سعادة السلطان أن ينزل ويشرف بلادهم • فأجاب طلبتهم ونزل وحال خروجه الى البر أطلقوا ٢١ مدفعا اجلالا لسعادته •

ثم انزلوهم فى دار فسيحة وأكرموهم غاية الاكرام • وباتوا هناك مدة للراحة وبعد ذلك ركبوا قطار سكة الحديد وساروا الى باريس • أما الرجال الثلاثة من الانكليز الذين رافقوا سعادة السلطان الى كاليس ودعوه ورجعوا الى لندن بالسلامة •

أما السيد وأتباعه فوصلوا الى باريس فى اليوم الثانى عشر من جمادى الثانية وكانت الدولة الفرنساوية أرسلت جوقا من العساكر وبعضا من أكابر الدولة لملاقاة سعادته •

فلما نزل السلطان من جارى الدخان سلم عليه أولئك الرجال ورحبوا بقدومه • وكان المارشال مكمهون رئيس الجمهورية الفرنساوية قد أرسل مركبته لسعادة السلطان فركبها صحبة رجاله وفرقة من الفرسان محاطة به من قدامه ومن ورائه ثم ساروا بالسيد ورجاله وأنزلوهم فى دار جميلة البناء وسيعة غاية الاتساع ذات طبقات عديدة ومزينة بالفرش الثمينة فدخلها السيد صحبة رجاله واستراح فيها •

وبعد صلاة العصر وصل المارشال مكمهون لمواجهة السلطان فسلم عليه ورحب بقدومه • ثم تقدم وزير الخارجية أيضا وسلم على سعادته وصارت الوزراء والأكابر وأعيان الأمة يترددون على سعادته ويهنئونه بوصوله الى بلادهم بالسلامة ، وقضى نهاره فى مقابلة الناس ورد السلام •

ولما أصبحوا ثانى يوم أتى رجال الدولة الى سعادته وطلبوا أن يخرج فى صحبتهم ليفرجوه على ما فى بلدهم من التحف والفرجات فأجاب

طلبتهم وخرج فى مركبته ومعه وزراؤه ورجاله • فساروا الى المدرسة الكلية الكبيرة وهى دار وسيعة فيها محلات كثيرة للكتب وللمعلمين وفيها قبة كبيرة • وقيل ان فيها من الكتب نحو ٢٩٠٠٠٠ كتاب • منها ٩٠٠٠٠ مجلد بخط قلم والبقية من المطبوعات • وفيها كتب قديمة بالقلم الكوفى وغيره • ثم ساروا بهم من هناك الى دار التصاوير وفرجوهم على ما فيها من أعمال المصورين المشهورين ثم دخلوا بهم مخدع المسكوكات القديمة ثم دار الأســـــلحة القديمة والدروع التى كانت الجنود تلبسها فى العهد القديم •

ثم فرجوه على دار التماثيل الحجرية فرأوا فيها تماثيل كبيرة الحجم قديمة العهد من زمن الجاهلية كانوا قد وجدوها فى قلب الأرض ويبلغ ارتفاع بعض منها نحو ١٧ ذراعا •

ثم ساروا بهم الى دار الطباعة وفرجوهم على طريقة طبع الكتب وطبع النشرات وعلى طريقة قطع الورق بالآلات فشاهدوا آلة تقطع فى ساعة من الزمان ثمانية عشر ألف طبق[١] من الورق • ثم فرجوه على طريقة جمع الأحرف الى قوالب ووضعها على المطابع ومسحها بالحبر وكبس الورق عليها بآلات عجيبة تدورها قوة البخار • ثم فرجوه على طريقة تجليد الكتب وكان فى دار الشغل نحو ١٠٠٠ نفس ونيف • وبعد أن تفرجوا على كل ما كان يستحق الفرجة رجعوا بالسلامة الى منزلهم •

---

(١) يقصد فرخ من الورق •

الباب الرابع والأربعون

فى زيارة سعادة السلطان للمرشال مكمهون

ببلد فرسايل[١]

خرج السيد برغش فى وزرائه نهار الأحد ١٤ جمادى الثانية يريد رد السلام على المرشال مكمهون • وكان المرشال مقيما فى قصر ملوك فرنسة القدماء الكائن فى بلدة اسمها فرسايل تبعد عن باريس نحو ١٥ ميلا • فركب السيد مركبته وسار الى القصر ووصل اليه بالسلامة فخرج رجال الدولة الى لقاء سعادته ورحبوا بقدومه وسلموا عليه ودخلوا به الى القصر فلاقاه المرشال مكمهون بالعز والاكرام ورحب بقدومه •

وبعد أن فرغوا من السلام والخطاب نهضوا وأخذوا يفرجون السلطان ورجاله على ما كان فى ذلك القصر الجميل من الأبنية والمنازل والمخادع والصور والتماثيل والأثاث والأوانى الثمينة الباقية هناك من عهد الملوك القدماء • وحيطان القاعة وسقفها مصورة بتصاوير الحروب والوقائع التى جرت بين أمة الفرنسيس والأمم الأخرى ، وكلها مصورة أحسن تصوير ومن يراها كأنه يرى الحرب قائمة على الساق أمام عينيه •

وتجاه هذا القصر جنينة عظيمة ذات أشجار وأزهار متنوعة وأحواض فيها تماثيل من حجر منها فى صورة بنى آدم ومنها فى صورة سمك ومنها فى صورة حيوانات البحر ينفجر المـاء من أفواهها وصدورها على علو قامات كثيرة وينزل الى الأحواض كالمطر أو يتساقط على الدرج ، ويظهر للناظر كأنه شلالات بحر النيل •

---

(١) ضاحية فرسـاى ، وفرسـاى قصر قديم بنى فى عهد الملكية (المراجع) •

ويوجد فى هذه الجنينة محل على دائرته عقود وفى وسطه استراحة ، وفى داخل العقود طريق يمشون فيها دائرة على تلك الاستراحة وعلى دائرة العقود من الخارج أشجار وأزهار وفى وسط كل عقد ثوارة[1] من الماء •

ومتى سار المتفرجون بتلك الطريق الى تحت العقود يقوم الماء عليهم مثل السور • ومن جملة ذلك حوض عظيم عليه أنواع مختلفة من الصور وتحتها نحو ٩٠ ثوارة • وعلى جانب الحوض مغارات داخلها تصاوير قديمة من خيل البحر وغيرها • وينصب الماء هناك من فوق جبل ويتشعب شعبا كثيرة تنحدر الى داخل الحوض ، وجميع المياه التى ذكرناها تأتى الى هذه الجنينة من شط مدينة باريس على مسافة خمسة أميال • وقد اتقنوا صنعة اللعب بهذه المياه اتقانا محكماً • فانهم متى أرادوا أوقفوا جريانها فى طرفة عين ومتى أرادوا أجروها بلمحة نظر • واذا أجروا المياه على ما ذكرنا مدة نهار واحد كلفتهم ثمانية آلاف فرنك على ما قيل •

ولما رجعوا من فرساىل الى باريس فرجوهم على دار الولاية أو قصر الدولة وهو قصر عظيم من أعظم القصور التى رأوها فى سفرهم وكان فيها نقوش وزخاريف كثيرة وصور جميلة من جملتها صورة كاثرينا دى ميديشى التى أمرت ببناء ذلك القصر • وجانب من ذلك القصر يشرف على شط ماء عذب اسمه السين[2] يمر فى شط مدينة باريس وعليه جسور كثيرة يمر عليها الناس من جهة الى جهة أخرى •

والجانب الثانى من القصر يشرف على جنينة التوليرى العظيمة الجميلة بالأشجار والأزهار وثوارات المياه والتماثيل الحجرية الى غير ذلك • ثم

---

(١) يقصد فوارة .
(٢) اى نهر السين .

فرجوهم على خزنة السلاح وكان فيها من الأسلحة أصناف كثيرة لا يسعنا ذكرها فى هذا الباب قد جمعوها من عهد قديم وهم يعتنون بها كثيرا ويعتبرون الأسلحة القديمة ويفتخرون بها وقد أضافوا اليها جميع أصناف الأسلحة الجديدة أيضا • وبعد أن تفرجوا على ما كان فى ذلك القصر من التحف المستحقة الفرجة خرجوا بالسيد ورجاله وساروا بهم الى قبر نبوليون[1] بونابرتى الكبير •

الباب الخامس والأربعون

فى فرجة سعادة السلطان على قبر نبوليون الأول

سار رجال الدولة الفرنساوية بسعادة السيد برغش الى المزار الموجود فيه قبر نبوليون الأول بهذا الاسم • وهو بناء شامخ عليه قبة عالية مصفحة بالذهب يراها الناظر من كل جهة • فلما دخلوا المزار انكشف لهم اتساعه وحسن بنائه وأرضه مبلطة بالرخام ، وفى صدر القاعة غرفة فى هيئة محراب كبير فيه بركة وفى وسطها تابوت من حجر الرخام المنحوت ضمنه عظام سلطانهم الكبير نبوليون المذكور • وحوله تصاوير موضوعة على دائرة القبر •

وكان هذا السلطان شديد البأس من عهد شبابه • فانه قهر أعظم ملوك الافرنج وله من العمر ٢١ سنة ، وكان ينزل معامع الحروب فى مقدمة الجيش ويقتحم نار المدافع ويهجم على صفوف الأعداء ويفتك بهم ، وما قام قائد جيوش بعد الاسكندر ذى القرنين مثل نبوليون الأول ، وكان ذا عقل ثاقب وقلب سليم وعلم واسع ، فرض فرائض عادلة تقتدى بها اليوم دولة الانكليز وباقى دول أوروبا ، وكان شجاعا لا يهاب الموت •

---

(١) نابليون بونابرت امبراطور فرنسا .

وما ذكره الاصمعى عن بسالة عنتر وحماسته وجرأته فى معامع الحروب ما هو سوى نقطة فى بحر بسالة نبوليون المومأ اليه • ولولا خيانة قواد جيشه وامرأته لمـا كان تمكن الانكليز من قهره • ومازالت الى اليوم رايات الدول التى قهرها منصوبة حول قبره وهى تسع رايات •

ثم فتح رجال الدولة الفرنساوية بابا صغيرا كان الى جانب قبر نبوليون اجلالا لسعادة السيد برغش وأدخلوه الى مخدع لا يدخله أحد سـوى الملوك والسلاطين وفرجوهم هناك على سيف السلطان نبوليون وسـائر مخلفاته الرسمية والشخصية وهى مازالت محفوظة على حال حسنة بلا تغيير الى الآن •

ثم خرجوا بالسيد ورجاله من هناك وساروا بهم الى محل عمـل الزوالى وعمل الأوانى الصينية والفناجين وغير ذلك من أعمال الصـناع الغريبة التى يحتار العقل من سرعة عملها وحسن نقشها • وبينما كان سعادة السلطان فى معمل الفناجين فرجوه على فنجان صغير من الفخار الصينى فاستحسن شغله وسألهم عن قيمته فقالوا ثلاثون ريالا •

الباب السادس والأربعون

فى فرجة سعادة السلطان على بستان مجموع الحيوانات

وغيره من أماكن بمدينة باريس

ولمـا كان اليوم الثالث من وصولهم الى باريس أتى رجال الدولة الى سعادة السلطان وطلبوا اليه أن يخرج فى معيتهم ليفرجوه على بستان مجمع الحيوانات • فأجاب طلبتهم وخرج فى رجاله معهم فساروا به الى البستان المذكور • وهو بستان عظيم متسع طولا وعرضا ، وفيه محلات مخصوصة لأنواع الحيوانات المختلفة •

ومن جملة الحيوانات الموجودة هناك جمال بيض ذات سنامين وأفيال . وكان هناك فيل صغير وضع سائسه مزمارا فى خرطومه فصار ينفخ فيه ويزمر . وكان كذلك بقر أبيض له أذيال طويلة كأذيال الخيل ، وطير النعام يجر مركبة كالخيل ، ثم حمير من نوع حمار الوحش . وكلاب وغنم وكلها قد طوعوها لتجر مركبات صغيرة ، وفى هذا البستان جميع أنواع الحيوانات والطيور لا يسعنا ذكر أجناسها وأنواعها فى هذا الباب .

ولما كان نهار الجمعة فرجوا سعادة السلطان على سرداب فى بطن الأرض تجتمع اليه مياه المدينة التى تصعد الى البيوت والمنازل ، وسرداب آخر تجتمع اليه فضلات المياه المستعملة فى البيوت بعد الغسل وغيرها ومن السيول وغيرها ، وهو سرداب طويل متشعب فى طرقات باريس من أسفلها وعلوه نحو قامتين وعرضه نحو عشرة أذرع ويسير فيه الماء حتى يصب فى نهر باريس .

وكان نزولهم الى هذا السرداب من كوة صغيرة ثم هبطوا منها الى درجة حتى وصلوا الى السرداب فركبوا مركبات من حديد تجرها أوادم (أشخاص) وتمشى والماء يجرى من تحتها ، وبعد أن ساروا بها مدة طويلة نزلوا منها وركبوا قوارب صغاراً تجرى على الماء ، وكان فى القوارب مصابيح يستضيئون بها فى ظلام السرداب . وفى هذا المكان علامات يستدلون بها على أمكنة المدينة المبنية فوق السرداب فاذا وصلوا الى علامة قالوا لهم نحن الآن تحت المحلة الفلانية من مدينة باريس .

ولبثوا يسيرون بالسيد ورجاله فى ذلك السرداب حتى خرجوا منه من طريق آخر .

ثم ساروا بالسيد ورجاله الى محل اسمه « شيركوس » وهو مكان ملهى تلعب فيه الخيل والرجال والنساء والأولاد ، وهو على شكل دائرة حولها

كراس يجلس عليها المتفرجون ، وفى قلب الدائرة ميدان ممهد[1] فأتوا بحصان وأدخلوه تلك الدائرة وخرج اليه رجل فى يده سوط وصار يحرك السوط ويفرقعه فى الهواء والحصان يدور يمينا وشمالا ويقدم ويدبر على هوى قرع السوط كأنه فى معركة من معارك أهل الفراسة •

ثم أبرزوا أربعة جياد وصاروا يديرونها فى ذلك الميدان على هوى الحصان الأول • ثم بعد حين أضافوا اليها حصانين آخرين ولاعبوا الجميع على قرع السياط اقبالا وادبارا وهجوما • ثم أضافوا اليها حصانين آخرين حتى صارت ثمانية حصن (جياد) وصاروا يلعبون الجميع سوية • ومن حسن اتقان تطبيع تلك الحصن كانت تجول فى ذلك الميدان الضيق المجـال من دون أن تصادم بعضها عند الاقبال والادبار يمينا وشمالا •

ثم أوقفوا حصانين فى صف واحد وخرج رجلان وصارا يركضان فى دائرة الميدان حتى وصلا الى قرب الحصانين فقفزا الى الهـواء فـوق الحصانين واندفعا يقلبان على أم رأسهما فى الهواء قلبات متتابعة حتى انتهيا الى قرب الأرض ووقعا على رجليهما •

ثم أضافا الى الحصانين حصانا ثالثا وقفزا عليه كما قفزا على الحصانين الأولين ومازالا يزيدان الحصن ويقفزان عليها حتى اصطف الثمانية حصن الواحد الى جانب الآخر وصارا يقفزان عليها وهما يقلبان قلبات متواترة فى الهواء على أم رأسهما[2] • ثم خرج رجلان وانتصب كل منهما على فرس وقبضا على ثوب وجاء رجلان وقفزا من فوق الثوب المقبوض ثم ركب رجل على أكتاف رجل آخر وصار الرجلان يقفزان فوق رأس الراكب على أكتاف الآخـر •

---

(١) يقصد بهذا الكلام انهم فرجوهم على سرك فى باريس •
(٢) يسمى العامة هذه الحركات فى مصر (الشقلباظ) •

ثم دخل الميدان رجلان آخران وامرأتان وصاروا يخيلون بسرعة عظيمة وهم يلعبون على ظهر الخيول والحصن ترقص فى طرب ، والناس يزمرون لها بالمزمار ويضربون بالطبل وهى ترقص على تلك الألحان كأنها من بنى آدم •

ثم برزت امرأة الى الميدان وقدامها حصان مسروج ولمـــا انتهت الى وسط الميدان قفزت على الحصان وهو يجرى بسرعة واستوت على ظهره ودارت فى الميدان ، وهى تارة تجلس وأخرى تنتصب على رجليها ، وآونة تميل بجسمها تارة الى اليمين وأخرى الى الشمال ، وآونة تقف على رجل واحدة ورجلها الأخرى فى الهواء ، وتارة تستقل على كفل الحصان وهو فى أكمـــل شـــوط •

ثم وقف ثلاثة رجال فى أيديهم ثلث (ثلاث) حجلات (طارات من حشب) مثل الدوائر فدارت المرأة بالحصان فى الميدان حتى اذا حاذت الحجلة الأولى قحمت (قفزت) فوقها على ظهر الحصان ثم نزلت من الجهة الثانية على ظهره وهو يجرى جريا سريعا واستقلت برجليها على ظهره ثم قحمت الحجلة الثانية والثالثة والحصان فى أتم الشوط وهى لا تتغير عن مركز ظهر الحصـــان •

ثم أتوا بثلث حجلات أخرى ملصوق عليها قرطاس رقيق ففعلت المرأة مثل فعلها الأول وقحمت على الحجلة وخزقت القرطاس حيث دخلت منه ونفذت وهبطت على ظهر الحصان وهو يجرى وهى ملتفة على نفسها مثل كرة • فصفق الحاضرون لها طربا لحسن فراستها •

ثم اخرجوا ست دواب وعليها ستة قرود (سبلان) راكبة وصارت

تبدو فى الميدان وكأنها من بنى آدم ، ولم يكن أحد يسوس الحصن (الجياد) سوى القرود ، وكانت ماسكة على عنان الخيل كفرسان ماهرين فى فن الفراسة ، فتعجب الحاضرون من نباهة تلك الحيوانات .

ثم جاء رجل وصعد الى خشبة معلقة فى الهواء بحبال وصار يلعب عليها ويتلوى ، وكان تارة يتعلق بأطرافها برجليه وتارة بيده الواحدة وأخرى برجله الواحدة ورأسه منكس الى أسفل وآونة يدور على محور الخشبة كالدولاب ثم يقبض عليها تارة بكوعيه وأخرى بعساقيل رجليه وهو غير متمسك بشىء ، فطرب الحاضرون من حسن براعته وصفقوا له بأيديهم .

ومازالوا يلعبون ألعابا كثيرة مثل هذه حتى فرغوا من اللعب وانصرف الناس مسرورين . وخرج السيد فى رجاله ورجع الى منزله بالسلامة .

الباب السابع والأربعون

فى سفر سعادة السلطان من باريس

طلب رجال دولة فرنسا من سعادة السلطان أن يطيل مدة اقامته بباريس ليفرجوه على جميع ما فى هذه المدينة الجميلة من التحف العجيبة . أما سعادة السيد فكان عازما على الرجوع الى أوطانه السعيدة وقال لهم بارك الله فيكم أيها السادات الكرام وحرس مدينتكم هذه من جميع الآفات .

ثم قال : وانها لعمرى نعم المدينة وقد صدق من قال أن باريس عروس الدنيا تفوق جميع مدن العالم جمالا وحسنا وبهجة تقر عين الناظر برؤيتها وتسر النفوس بحدائقها ومنتزهاتها . وهى نزهة الدنيا ذات أنهار جارية ، وفوارات ماء نافرة ، وأشـــجار مثمرة قطوفها دانية ، وأزهارها نضرة ، وقصورها شامخة عالية ، وطرقاتها معتدلة ساوية . فاذا لبث الانســـان

فيها عمره بطوله لا يسلوها • ولكن مهمات المملكة تدعونى الى الرجوع • وانى أشكر لكم مكارمكم العميمة وأسأل الحق سبحانه وتعالى أن يؤيد ملككم على دعائم العز والاقبال آمين •

ولمـــا كان اليوم ٢٢ جمادى الثانية خرج السيد بعد صلاة العصر فشيعته أرباب الدولة وأكابر البلد الى محطة سكة الحديد ورافقته العساكر الخيالة أيضـــا •

وقبل غياب الشمس بنصف ساعة قام قطار سكة الحديد من باريس وسار السيد ورجاله فى كنف الرحمن الليلة بطولها ، ولمـــا أصبح الصباح وأضاء بنوره الوضاح ، دخلوا مدينة ليون وصلوا الفجر فيها ، ثم سافروا بعد نصف ساعة ووصلوا الى مدينة مرسيليا بعد ست ساعات •

وكان رجال الدولة هناك قد بلغهم خبر قدوم سعادته فخرجوا الى لقائه بفرقة من العساكر الخيالة ، وأحاطوا بسعادته احاطة الهالة بالقمر ، والأكمام بالزهر والثمر • ثم ركبوا المركبات المعدة لهم وساروا قاصدين المنزل المهيأ لهم ، والعساكر الخيالة محيطة بهم من خلف ومن قدام •

وكانت الدولة الفرنســاوية قد أقامت موسيو ســـفريه ترجمانا لسعادة السلطان فرافقه الى مرسيليا • ولمـــا وصلوا الى الدار وارتاحوا من تعب السفر تواردت أرباب الدولة وأعيان المدينة وسلموا على سعادته ورحبوا بقدومه الشريف •

ولما كان نهار الأربعاء ٢٤ جمادى الثانية حضر أرباب الدولة الى سعادته وطلبوا اليه أن يخرج فى صحبتهم ليفرجوه على ما فى مدينتهم من التحف ، فأجاب السيد طلبتهم وخرج فساروا به الى معمل السكر وفرجوه على طريقة

تحليل السكر واستقطاره وتصفيته وسبكه قوالب وتقطيعه قطعا صغارا ، وكل ذلك بواسطة الآلات البخارية • ثم ساروا به من هناك الى محل المراكب وفرجوه عليها ثم رجعوا بسعادته الى المنزل •

وفى اليوم ٢٥ من جمادى الثانية ركب السلطان فى مركب بخـــارى فرنساوى وشيعه جميع أرباب الدولة وأكابر البلد وسافر بالسلامة من مرسليا ووصـــل الى نابل (نابولى) فى ٢٧ من الشهر وهى بلدة من بلاد ايطـــاليا •

ثم ســـافر السيد ورجاله منها بعد الظهـــر وتوجهوا قاصدين مدينة الاسكندرية • فلما وصلوا بالسلامة الى ثغرها نشر القبطان بيرق سعادة السلطان فى دقل سفينته ، وكانت بالمرسى خمس سفن حربية من سفن سعادة الخديو اسماعيل باشا ، فنشرت البيارق فى دقالها وصعدت عساكرها البحرية الى سطح المراكب وأطلقوا ٢١ مدفعا سلاما على سعادة السلطان •

وكذلك أطلقت العساكر البرية من البر ٢١ مدفعـــا اكراما لســـعادته وترحابا بقدومـــه •

ولـــا رست سفينة السلطان وافى اليها صاحب الدولة محمد توفيق باشا ولى العهد وصاحب السعادة حسين باشا أخوه ولدا حضرة الخديو المعظم ، وكان فى صحبتهم صاحب السعادة شريف باشا وحسن باشا محافظ الاسكندرية وغيرهم من المأمورين وسلموا على سعادة السلطان بالنيابة عن سعادة الخديو •

ثم طلبوا اليه أن ينزل معهم الى البر فنزل ونزل معه من رجاله الأخصاء عشرة أنفار • فلما وصلوا الى البر وخرجوا من الزورق أطلق الجنود ٢١ مدفعا اجلالا لسعادته •

ولمـا قربوا من سراية رأس التين اصطف لاستقبال السلطان صفان من العساكر ورفعوا السلاح ونشروا العلم وآلة الموسيقى العسكرية تترنم ترحيبا بقدوم سعادته • ثم خرج الخديو المعظم الى لقاء السلطان فقابله فى أسفل درج السراية (القصر) ورحب بقدومه ترحيبا يسفر عن خلوص المودة ثم صعد معه الى ديوان رحيب وجلسا يتحدثان نحو نصف ساعة • ثم توادعا وخرج السلطان فى رجاله ورجال سعادة الخديو وساروا الى القصر الذى كانوا قد هيأوه لسكنى سعادته ، وهو قصر فاخر لائق بمقامه ، وأقاموا واحدا من المأمورين ملازما لسعادته يقوم بكل ما يلزم من الخدمات • وعينوا له فرقة من العساكر الخيالة والمشاة تلازم القصر الذى كان مجملا بأفخر الأثاث ومزينا بأحسن الفرش (الأثاث) •

فلما استقر السلطان فى المنزل وافى الخديو المعظم وولى عهـده مصحوبين بأرباب الدولة وردوا السلام على سعادته ولبثوا يتوانسون بحضرة السلطان مدة من الزمان ، ثم توادعوا معه وانصرفوا الى دار الولاية • ثم وافى أكابر البلد وأعيانها وقناصل الدول الأجنبية وسلموا على سعادته • وكان من جملة المأمورين الذين عينتهم دولة الخديو لخدمة سعادة السلطان والى الاسكندرية وقتئذ المسمى حسن باشا والعالم الفاضل المسمى على الليث[1] ونفران من القراء يقرآن القرآن بعشر قراءات وغيرهم •

ولمـا كان نهار الخميس ٣ رجب خرج السلطان يريد زيارة صاحبة العصمة أم الخديو المصونة فى قصرها بالرملة • وبعـد أن قضى واجبات السلام على سعادتها رجع وسار الى زيارة شريف باشا واسماعيل صديق باشا • ثم عاد الى منزله بالسلامة •

---

(١) على الليثى وكان من سمار الخديو اسماعيل .

ثم خرج بعد العصر ثانية وسار الى زيارة سعادة محمد توفيق باشا ولى عهد الخديو وأخيه حسن باشا • وفى أثناء رجوعهم من الزيارة ساروا الى ساحة المنشية وهى ساحة جميلة أنشأها الخديو المعظم فى قلب مدينة الاسكندرية ونصب فى وسطها تمثال محمد على باشا صاحب مصر وهو راكب على حصان . ونصب فيها أشجارا يجتمع الناس الى ظلها ليسمعوا أنغام الموسيقى التى تعزف فى أوقات معلومة •

ثم رجعوا بعد الغروب الى منزلهم بالسلامة • ولما كان اليوم السادس من رجب أقام الخديو المعظم وليمة شائقة لسعادة السلطان وأصحابه الأخصاء • ولكن عرض للخديوى مرض أعاقه عن حضور الوليمة بنفسه فأقام ابنه ولى العهد نائبا عنه •

فحضر السلطان ورجاله تلك الوليمة وحضرها عدد وافر من رجال الدولة ورؤساء البلد من جملتهم حسن باشا ناظر الجهادية وكان رجال الخديو يكرمون السلطان ورجاله اكراما لامزيد عليه • وكانوا قد أقاموا لكل رجل من رجال سعادته أنيسا يؤنسه ويتولاه فى الطعام . وكانوا قد أخذوا مأخذ الافرنج فى ترتيب سفرة الطعام . وكتبوا اسم كل واحد فى قرطاس ووضعوه فى اناء ليعرف الرجل المكان المعد له على السفرة • وكانت الموسيقى تعزف بالأنغام خارج الدار فى جنينة مزينة بالأشجار والأزهار حتى فرغوا من الطعام ، وعقب ذلك نهضوا وشربوا القهوة ثم انصرف كل منهم الى منزله بسرور وحبور •

الباب الثامن والأربعون

فى سفر سعادة السلطان من الأسكندرية الى مصر

عزم السيد برغش على السفر من الأسكندرية الى مصر فى اليوم السابع من رجب ، فقام منها فى رجاله بعد صلاة الظهر وركبوا قطار سكة الحديد ، وبعد ٦ ساعات وصلوا الى مصر القاهرة بعد المغرب بنصف ساعة ثم نزلوا فى دار فسيحة للراحة •

ثم حضر أرباب الدولة الى سعادته وطلبوا اليه أن يخرج معهم ليفرجوه على زينة البلد تلك الليلة • فان من عادتهم أن يزينوا المدينة ليلا بالمصابيح فرحا بفيض النيل الذى عليه مدار خصب أراضيهم وحسن غلالها ، فأجاب السلطان طلبتهم وخرج معهم فساروا به الى النيل فى صحبة رجاله ثم ركبوا مركبا وساروا فى النيل يتفرجون على ما أعده أهل مصر من الزينة ، وبعد أن فرغوا من الفرجة باتوا تلك الليلة فى السفينة وبات أهل مصر فى أكمل زينة وسرور •

وكانت مصابيح كثيرة معلقة فى سفينة السلطان ومشاعل عديدة موقودة فى البر حذاء سراية الخديو • وكانوا قد اتخذوا ألعابا من البارود تتطاير فى الهواء على هيئات مختلفة •

ولما أشرق ضوء الصباح وتلألأ بنوره الوضاح وافى رجال الخديو الى سعادة السلطان وأخرجوه الى مكان فيض النيل • فلما نزلوا الى البر رأوا ميدانا واسعا قد اجتمعت اليه العساكر النظامية • وعند وصول السيد اليهم رفعوا أسلحتهم للسلام على سعادته • ثم ساروا به الى خيمة كانوا قد ضربوها على شط النيل • وكان قد اجتمع جمع غفير من أهل مصر للفرجة على ذلك الموسم •

ولبث السلطان هناك الى أن دنت ساعة فيضان النيل فارتفع ماؤه الى القياس المعين له ، وهذا القياس عامود من رخام منصوب فى مكان من النهر ينحصر الماء فيه • وهو مفصل على اثنتين وعشرين ذراعا ، وكل ذراع منقسم على ٢٤ قسمة متساوية تعرف بالأصابع فاذا استوى الماء ١٩ ذراعا فى الفيض كان غاية ما تمنوه من طيب العام وخصب الأرض وجودة الغلال ، وتارة يرتفع الماء أكثر من ١٩ ذراعا وربما هذا ضر بالأراضى وسبب فيها الطوفان ، وآونة لا يرتفع الى ١٩ ذراعا والمتوسط عندهم ما استوى الى ١٧ ذراعا وهو أحسن مما زاد عليه •

أما مخرج هذا النهر فقد عنى السياح كثيرا فى الاطلاع عليه منهم السايح ليفينكسبتن[1] الانكليزى واستانلى الأميريكانى وغيرهما ، وزعموا انهم وجدوا أصل مخرجه •

غير أنه من المعلوم أن ينابيع مياهه الى جنوبى بلاد دارفور ويصب فيه أنهر ونهيرات من بلاد الحبش ، وقبل دخوله الى مصر تعترض جريانه صخور فيحدث نوع من الشلالات وتسمى جنادل النيل • الأول منها فى بلاد دنكلة من النوبة • والثانى فى بلاد النوبة الداخلة فى حكم مصر وهو أقوى الثلاثة • والثالث عند دخول النيل الى مصر بقرب أسوان • ومن أسوان الى القاهرة يجرى بين جبلين شرقيهما ممتد الى البحر الأحمر وغربيهما ينتهى الى الصحراء الكبيرة •

والوادى الحادث بين هاتين السلسلتين ينفرج الى جهة الشمال وأراضيه مروية بماء النيل عند فيضه • وعندما ينتهى النيل الى مكان يقال له (بطن البقرة) ينقسم الى شطرين احدهما يصب فى البحر المتوسط بقرب مدينة

---

(١) ليفنجستون هو اسمه الصحيح .

رشيد والآخر يأخذ الى دمياط والأراضى بينهما يقال لها « الدلتا » عند اليونانيين والافرنج •

وأما عند العرب فاسمها « البحيرة » • ولما يكون نهر النيل على حالته الاعتيادية لا يصلح لركوب سفينة حمولتها أكثر من ١٢٠٠ قنطار من مدخله الى الجندل الأول ولكن عند فيضه يصير عمقه نحو ٤٠ قدما وتجرى فيه السفن الكبيرة حتى القاهرة • وأما أسباب فيضه فهى وقوع الأمطار الغزيرة فى الجبال المجاورة لمخرجه وقد أشار الى ذلك الأمير تميم بن المعز بقوله :

أما ترى الرعد بكى واشتكى
والبرق قد أومض واستضحكا
فانظر الى غيم كصبغ الدجى
اضحك وجه الأرض لما بكى

وانظر لماء النيل فى مده
كأنه الصندل قد مسكا

ويبتدىء فيض النيل عند الانقلاب الصيفى ويصل الى أعلى درجة الارتفاع عند الاعتدال الخريفى فيستمر الى ذلك عدة أيام ثم يأخذ فى التناقص الى الانقلاب الشتوى •

وبعد انحدار الماء من الأراضى تبقى مكتسبة بطين أسود فيه دسومة كثيرة يسمى الابليز وهو يدملها ويقويها على تغذية النبات والزروع • وكلما زاد فيض النيل زاد الخصب فى بلاد مصر • وفى ذلك قال أبو الحسن المعروف بابن الوزير :

أرى أبدا كثيرا من قليل
وبدرا فى الحقيقة من هلال

فلا تعجب فكل خليج ماء
بمصر مسبب لخليج مال
زيادة اصبع فى كل يوم
زيادة أذرع فى حسن حال

وقال المؤرخ عبد اللطيف البغدادى فى كلامه على نيل مصر « اتفق أن زيادة النيل بلغت فى سنة ست وتسعين وخمس مائة للهجرة ١٢ ذراعا و ٢١ أصبعا . وهذا المقدار نادر جدا فانه لم يبلغنا منذ الهجرة الى الآن أن النيل وقف على هذا الحد قط الا فى سنة ٣٥٦ فانه وقف على دون هذا المقدار بأربع أصابع ، وأما وقوفه على ثلاث عشرة ذراعا وأصابع فانه وقع ست مرات فى هذه المدة الطويلة . وأما ١٤ ذراعا وأصابع فانه وقع نحو ٢٠ مرة . وأما ١٥ ذراعا فأكثر من ذلك كثيرا .

وزعم أقباط الصعيد انهم يتكهنون على مقدار الزيادة فى السنة من طين معلوم الوزن ينجمونه فى ليلة معروفة ويزنونه غدوة فيجدونه قد زاد فيحكمون من مقدار زيادته على مقدار زيادة النيل . وقوم يتكهنون من حمل النخل . وقوم من تعسيل النحل ورأيت لبعض من شرح الثمرة لبطليموس الحكيم ذكر فى تفسير الكلمة الأخيرة التى يقول فى أولها « النيازك » ان النيازك شهب تظهر فى الجو ليلا وتتساقط سقوط النجوم . وهى تدل على جفاف الأبخرة ، فاذا كانت فى جهة واحدة دلت على رياح تعرض فى تلك الجهة ، واذا كانت شائعة فى الجهات كلها دلت على جفاف الأرض ويبوسة الهواء وقلة وقوع الأمطار . وننتج من ذلك نقصان فى فيض النيل .

وعندى أن هذا التعليل يقارب الصدق فان أصل المطر بخار يتصاعد من الأراضى الرطبة ومستنقعات المياه ومن الأنهر والبحار بشدة حرارة الشمس ثم يتكاثف فى الجو ويتكون منه الندى والمطر . وذلك أن البخار يعلو فى

الهواء ويتكاثف ويستحيل غيوما ، وهذه الغيوم لا تبعد أن تذهب بها الريح الى طبقات الهواء فتبرد فى الكلية وتستحيل الى ماء وتنصب مطرا • وما كان من هذه الغيوم دفع الى أعلى الجبال الشامخة وانحدر اليها ثلجا ومنه تتكون كثبان الجليد المخلدة • ومن هذه الثلوج وهذه الأمطار تتولد العيون وتتربى السواقى والبرك والأنهر ثم تسقى الأراضى وينصب ما فضل عنها الى البحار • وهناك تستحيل من جديد الى بخار وترجع الى سيرتها الأولى وهذا الترتيب العجيب يدوم بلا انقطاع مادامت الشمس والأرض على الحالة التى هما فيها الآن •

ولما فرغ السلطان من الفرجة على زيادة النيل سار به رجال الدولة المصرية الى قصر جميل كانوا قد أعدوه لسكناه وهى دار كبيرة ذات طبقات عديدة مزخرفة ومفروشة بأثاث فاخر ومزينة بثريات جميلة وقناديل كبيرة وفيها من الكراسى والأسرة المموهة بالذهب الى غير ذلك مما يليق بمقام الملوك •

وحول الدار جنينة واسعة ذات أشجار عالية وأزهار نضرة • ومقام أمام الباب تمثال ابراهيم باشا والد الخديو وهو راكب على حصان • وكانت العساكر محافظة على تلك الدار من داخل ومن خارج •

ولما استقر السلطان فيها واستراح مدة من الزمان طلب اليه رجال الدولة المصرية أن يخرج معهم ليفرجوه على ما فى المدينة من المنتزهات والتحف فأجاب طلبتهم وخرج • فساروا به أولا الى بستان الأزبكية وهو بستان كبير محفوف بالأشجار والأزهار وفيه بركة ماء متسعة كان المرحوم محمد على باشا صاحب مصر يجلس عليها للمؤانسة مع حرمه • وقيل انه كان له قارب صغير يجعله فى البركة وتنزل فيه بعض من جواريه ويقذفن به حول البركة •

وبعد أن فرغوا من الفرجة على تلك الدار وما فيها من التحف ساروا به ثانى يوم الى خزانة الكتب ومدرسة الطب • فرأوا فيها تلاميذ كثيرين من طلبة العلم والمريدين • وفى حزانة الكتب[1] هذه مصاحف كبيرة الحجم وقديمة العهد وفيها كتب الفقه والفرائض والطب والتفاسير والنحـو والصرف والفلسفة والهندسة والكيمياء والشعر والآداب الى غير ذلك من كتب العلوم القديمة والمستجدة ومعلق فى بعض غرف الدار ثلاث صور ، واحدة صورة لمحمد على باشا والثانية صورة ولده ابراهيم والثالثة صـورة الخديو اسماعيل باشـا •

وفى غرفة أخرى آلات علم الطبيعيات منها آلة كهربائية تتركب من دولاب ولوح من البلور فاذا دار الدولاب بسرعة ودنا الانسان منها سرت الكهربائية من الآلة الى جسمه وشعر برجة شديدة • أما المدرسة ففيها من جميع أصناف العلوم العربية والافرنجية وفيها مريدون كثيرون يدرسون العلوم العقلية والصناعية والطبية واللغوية وكل ما يحتاج اليه روح العصر من التمـدن •

ثم ساروا من هناك الى مدرسة البنات وحضروا فحصهن واختبارهن فى فن الحساب والجغرافية والتاريخ والموسيقى واللغات العربية والتركية والانكليزية والفرنساوية وغيرها • ثم فرجوه بعد ذلك على مدرسة الخياطة والنقش والزركشة بالحرير والقصب الى غير ذلك • ولمـا فرغوا من الفرجة على ما كان فى تلك المدرسة خرجوا وساروا بسعادة السلطان الى منزله •

وفى اليوم الثانى خرجوا بالسيد ورجاله وساروا الى معمل الأسلحة وفرجوه على طريقة عمل الأسلحة بجميع أصنافها ثم ساروا الى دار الطباعة

---

(١) اى دار الكتب التى انشأها الخديو اسماعيل ولايزال بناؤها القديم قائما بباب الخلق . وصحته باب الخرق .

ببولاق وتفرجوا على طريقة طبع الكتب وجميع آلات المطبعة • ثم فرجوا السيد على طريقة عمل القرطاس من الأثواب البالية والخرق وورق الموز وعلى جميع الآلات التى تشتغل لصناعة القرطاس حتى يخرج كاملا يصلح للكتابة •

ثم ساروا بالسيد ورجاله الى بستان مجمع الحيوانات وفرجوهم على ما فى ذلك البستان من الحيوانات الغريبة • والبستان فى مكان يسمى الجزيرة وفيه قصر للخديو جميل البناء مزين بالأثاث الفـاخر والأسرة والكراسى والموائد المموهة بالذهب وقناديل وثريات ثمينة ومرايا كبيرة •

وفى البستان حيوانات من كل الأصناف ، وكان بينها جاموس ذكر عجيب الخلقة ذو ست قوائم اثنتان من قدام وأربع من وراء بخلقة كاملة • وهذا من فلتات الطبيعة •

ولـما كان اليوم الثانى عشر ساروا بالسيد الى دار التحف[1] وفرجوه على الأصنام القديمة التى وجدوها تحت الأرض من عهد قدماء المصريين الفراعنة ، وهذه الأصنام مع كثرة عددها وعظم صورها أمرٌ يفوق الوصف ويتجاوز التقدير • وكذلك اتقان أشكالها واحكام هيآتها والمحاكاة بها الأمور الطبيعية فموضع التعجب بالحقيقة ، فمن ذلك صنم (تمثال) ارتفاعه عند قاعدته نيف وثلاثون ذراعا • ومداه من جهة اليمين الى جهة اليسار نحو عشر أذرع • ومن جهة الخلف الى جهة الأمام على تلك النسبة وهو حجر واحد من الصوان الأحمر وعليه من الدهان كأنه لم يزده تقادم الأيام إلا جـــدة •

والعجب كل العجب كيف حفظ فيه مع عظمه النظام الطبيعى والتناسب

(١) يقصد المتحف المصرى والأصنام هى تماثيل الفراعنة ، كما تفرجوا على رفاتهم (مومياءاتهم) ووصفها المؤلف بدقة .

الحقيقى الذى عنه يحصل حسن الهيئة وملاحة الصورة • وقد أحكم فى هذه الأصنام احكاماً وأى احكام • فمن ذلك مقادير الأعضاء فى نفسها ثم نسب بعضها الى بعض • فانك ترى الصنم قد ابتدأ بانفصال صدره عن عنقه عند الترقوة بتناسب بليغ ثم يأخذ الصدر بارتفاع الترائب الى الثندوتين فيرتفعان عما دونها ويفرزان عن سائر الصدر بنسبة عجيبة ثم يعلوان الى حـــد الحلمـــة •

ثم تصور الحلمة مناسبة لتلك الصورة الهائلة ثم تنحدر الى الموضع المطمئن عن القص وفرجة الزور وزر القلب والى تجعيد الأضلاع والتوائها كما هو موجود فى الحيوان الحقيقى • ثم تنحدر فى مقاط الاضلاع ومراق البطن والتواء العصب وعضل البطن يمينا وشمالا ، وتوترها وارتفاعها وانخفاض ما دون السرة مما يلى الاقراب • ثم تحقيق السرة وتوتر العضل حولها • ثم الانحدار الى الثنة والحالبين وعروق الحالب والخروج منه الى عظمى الوركين • وكذلك انفصال الكتف واتصاله بالعضد ثم بالساعد وانفصال حبل الذراع والكوع والكرسوع وابرة المرفق ونهرى مفصل الساعد من العضد وعضل الساعد ورطوبة اللحم وتوتر العصب وغير ذلك مما يطـــول شرحــــــه •

وقد صور كف بعضها قابضا على عمود قطره شبر كأنه كتاب • وصورة الغضون والأسارير التى تحدث فى جلدة الكف مما يلى الخنصر عندما يقبض الانسان كفه • أما حسن أوجهها وتناسبها فعلى أكمل ما فى القوى البشرية أن تفعله وأتم ما فى المواد الحجرية ان تقبله ولم يبق الا صورة اللحم والدم • وكذلك صورةالاذن وحتارها وتعاريجها على غاية التمثيل والتخييل • واتخاذ الأصنام قد كان فى ذلك الزمان شائعا فى الأرض ، عاما فى الأمم •

ومازالت الملوك تراعى بقاء هذه الآثار وتمنع من العبث فيها والعبث

بها وان كانوا أعداء لأربابها • وهم يفعلون ذلك لمصالح منها لتبقى تلك الأصنام تاريخا ينتبه به على الأحقاب •

ومنها أن تكون شاهدة للكتب المنزلة • ومنها أنها تدل على شيءٍ من أحوال من سلف وسيرتهم وتوفر علومهم وصنائعهم وفكرهم وغير ذلك • وهذا كله مما تشتاق النفس الى معرفته وتؤثر الاطلاع عليه •

ثم ساروا بالسيد ورجاله الى مكان كانت فيه جثث موتى المصريين القدماء وقد لفت بنسيج من القنب (الكتان) لعله يكون على الميت منها زهاء ألف ذراع •وقد كفن كل عضو على انفراده كاليد والرجل والأصابع فى قمط دقاق ثم تلف جثة الميت حتى يرجع كالحمل العظيم •

ويوجد بعض موتاهم فى توابيت من خشب الجميز الثخين • ويوجد بعضهم فى نواويس من حجارة ، اما رخام واما صوان وبعضهم فى أزيار مملوءة عســلاً •

وهؤلاء الموتى قد يوجد على جباههم وعيونهم وأنوفهم ورق من الذهب كالقشر وربما وجد قشر من الذهب على جميع الميت كالغشاء وربما وجد عنده شيء من الذهب والحلى والجوهر ، وربما وجد عنده الآلة التى كان يزاول بها العمل فى حياته •وقد وجدوا عند ميت منهم آلة المزين (الحلاق) ، مسن وموسى • وعند آخر آلة الحجام • وعند آخر آلة الحائك •

ويظهر من حالهم أنه كان من سنتهم أن يدفنوا مع الرجل آلته وماله • ويوجد فى أجواف هؤلاء الموتى وأدمغتهم شيء يسمونه « الموميا » ويشاهد أيضا داخل العظام وقد تشربته وسرى فيها حتى صارت كأنها جزء منه • وهذه المومياء سوداء كالقفر • اذا اشتد عليه حر الصيف يجرى ويلصق بما يدنو منه • واذا طرح على الجمر غلى ودخن وشممت منه رائحة القفر أو

الزفت والغالب أنه زفت ، وكان حكماء المصريين يخلطونها ويصبرون (يحنطون) بها جثث موتاهم لتصبر على ممر الزمان وقد صبرت وصبر الزمان على ممرها .

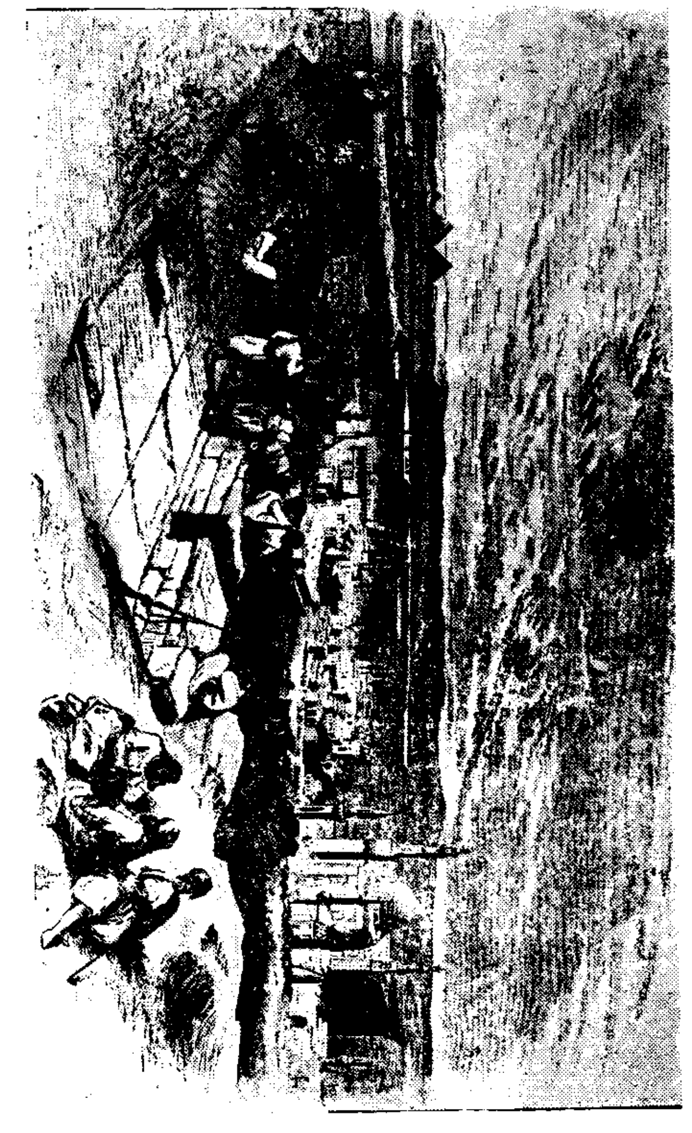
ثم خرجوا بالسيد ورجاله من دار التحف وساروا بهم الى مدرسة الطب وفرجوهم على محل كانوا قد جمعوا فيه تصاوير الأمراض والأوجاع والآفات فى تصاوير من شمع يخالها الناظر اليها كأنها أيد وأرجل وأنوف وقلوب طبيعية مصابة بمرض من الأمراض ويفعلون ذلك بقصد أن يسهلوا على طلبة علم الطب معرفة الأوجاع وطريقة معالجتها .

ثم دخلوا بالسيد الى معمل الكيميا وهو مكان يحلون فيه الطبايع ويركبونها ويغيرون ألوانها . وعلم الكيمياء عند علماء هذا الزمان خلاف علم الكيمياء الذى كان عند القدماء . فان ذلك كان ضربا من الخرافات ؛ كان يزعم صاحبه أنه يستطيع أن يقلب الرصاص الى فضة والنحاس الى ذهب وما أحد منهم استطاع أن يفعل هذا الانقلاب حتى انقلب دماغه ومات يائساً .

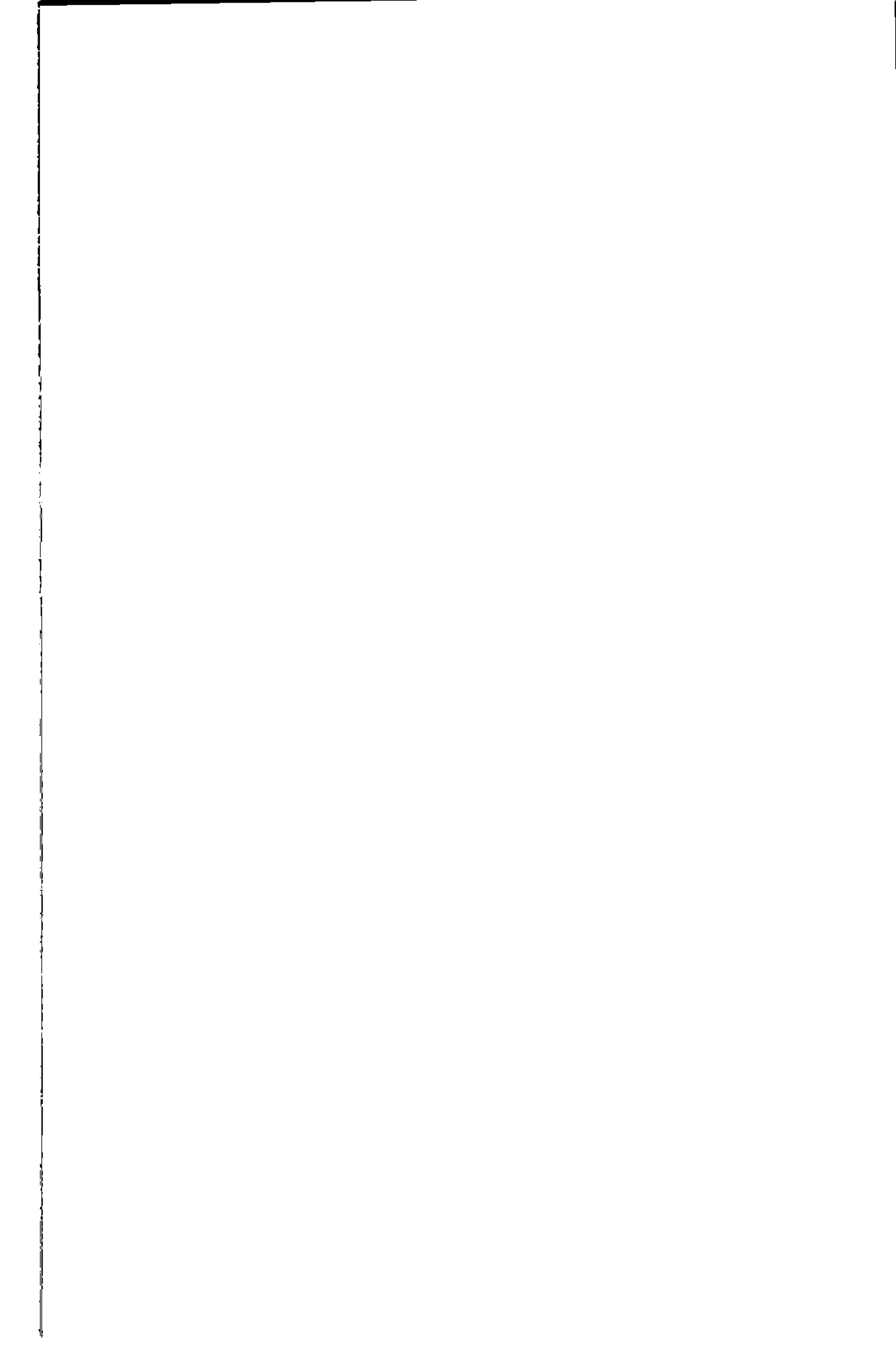
ولما كان اليوم الثالث عشر ساروا بسعادة السلطان الى الاسماعيلية فى ظاهر البلد ، وهناك عرضوا على سعادته جنود الجيش المصرى وهم يمارسون فنون الحرب باطلاق البنادق والمكاحل والمدافع والهجوم والدفاع وكأنهم فى معمعة الحرب والقتال .

ثم باشر الجنود فى ممارسة اطلاق المدافع والمكاحل على الغرض والهدف . فمن أصاب نقطة الغرض أو قرب منه رفعوا له علما دلالة على أنه أصاب . وان أخطأ لم يرفعوه .

ثم تفرج السلطان ورجاله على العسكر وهم يمارسون فن المسايفة (المبارزة) وعلم الطعان . ثم رجعوا الى منزلهم وكان الخديو عاد تلك الليلة



(منظر مدينة القاهرة والقلعة ونهر النيل واهرام الجيزة)



من الاسكندرية فسار السلطان فى رجاله وسلموا عليه وبعد ذلك قدم الخديو وولى عهده وابنه حسن باشا الى منزل سعادة السلطان لرد السلام فقابلهم السلطان بلطف وترحاب ثم خرج الخديو من لدن السيد وانصرف الى قصره بالســــلامة •

ولــا كان اليوم الرابع عشر ساروا بسعادة السلطان ورجاله وفرجوهم على قلعة مصر • وهى قلعة كبيرة أمر ببنائها صلاح الدين يوسف بن أيوب على يدى قراقوش ، وكان خصيا روميا سامى الهمة ، وكان يتولى عمــائر مصر ، وهو الذى بنى السور من الحجارة محيطا بالفسطاط والقاهرة وما بينهما وبالقلعة التى على جبل المقطم • فلما بنى القلعة أنبط فيها البئرين الموجودين اليوم وهما أيضا من العجائب وينزل اليهما بدرج نحو ثلاثمائة درجة ، فنزلوا بسعادة السيد الى هذه البئر على عمق ربعها وفرجوه على طريقة استقاء الماء منها •

ويزعم قوم من الذين ليس لهم المام بعلم التاريخ أن سيدنا يوسف عليه السلام كان قد سجن فى هذه البئر • وهذا خطأ فان هذه البير لم تنبط (تنشأ) الا فى عهد صلاح الدين يوسف بن أيوب كما أسلفنا الى ذلك •

وقد أشاد محمد على باشا صاحب مصر مسجدا عظيما فى هذه القلعة • وهو مبنى بحجر الرخام الأصفر ومزين بثريات جميلة وقناديل عديدة ، ولــا توفى أقاموا له ضريحا فى قبة الى جانب باب المسجد ومازال قبره هناك الى اليوم ، وحوله مصابيح وقناديل وشموع ، وعلى دائرة القبة اسم محمد وأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وفاطمة والحسن والحسين •

ثم خرجوا من القلعة وساروا الى الدار التى كان قد بناها محمد على باشا لنفسه وهى دار رحبة محفوفة بالجنائن تشرف على مدينة القاهرة • ولــا كان وقت العصر سار السيد ورجاله الى زيارة ضريح الحسين بن على

ابن أبى طالب • وهو ضريح مزين بأفخر الزينات • قيل ان التابوت المدفونة فيه عظام الحسين هو من فضة • وقد شادوا عليه قبة ذات بنيان فاخر وجللوا الضريح بأصناف الديباج ، وحول التابوت شماعدين كبيرة تتقد فيها شموع بيضاء من الشمع • والقبة كلها مزينة بالنقوش الذهبية وأرضها وحيطانها من الرخام المجزع الغريب الصنعة والبديع الترصيع • وفى صدر المسجد حجر شديد السواد والبصيص يلمع كالمرآة ، والزوار يتزاحمون على القبر ويتبركون به ويمسحونه بكسوتهم •

ثم ساروا بسعادة السيد ورجاله الى زيارة الجامع الأزهر والمسجد الذى بناه السلطان حسن وفيه قبره من تاريخ خمسمائة وثمان وخمسين سنة• ثم فرجوهم على المسجد المنسوب الى عمرو بن العاص وقبر الامام الشافعى وهو العالم محمد بن ادريس ، وعلى قبره حجر كبير منقوش عليه بالقلم العربى « هذا قبر محمد بن ادريس الشافعى أمين الله » • وقد كتبوا حول القبة آيات من القرآن الشريف بمداد الذهب وباقى أسماء الصحابة الى الحسن والحسين • ولما فرغ السيد من زيارة تلك المساجد رجع بالسلامة الى منزله •

الباب التاسع والأربعون

فى فرجة سعادة السلطان على أهرام مصر

لما كان اليوم الخامس عشر بعد صلاة الفجر خرج السيد ورجاله يريدون الفرجة على أهرام مصر • وهى من بقايا آثار المصريين القدماء ، وقد أكثر الناس من ذكرها ووصفها • وهى كثيرة العدد وكلها ببر الجيزة وعلى سمت مصر القديمة وتمتد فى نحو مسافة يومين وبعضها كبار وبعضها صغار وبعضها طين ولبن وأكثرها حجر وبعضها مدرج وأكثرها مخروط أملس وقد كان منها بالجيزة عدد كثير لكنها صغار فهدمت فى زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب كما ذكرنا •

وأما الأهرام الموصوفة بالعظمة فثلاثة أهرامات موضوعة على خط مستقيم بالجيزة قبالة الفسطاط وبينها مسافة يسيرة زواياها متقابلة نحو المشرق ، واثنان منها عظيمان جدا وفى قدر واحد وبهما أولع الشـــعراء وشبهوهما بنهدين قد نهدا فى صدر الديار المصرية .

وزعم صاحب القاموس من باب الخطأ وقال « الهرمان بناءان أزليان بمصر بناهما ادريس (نوح) عليه السلام لحفظ العلوم فيهما عن الطوفان أو بناها سنان بن المشلشل أو بناها الأوائل لمـــا علموا بالطوفان من جهة النجوم وفيها كل طب وسحر وطلسم » .

لعمرى هذا غلط من جملة أغلاط صاحب القاموس . وهذان الهرمان متقاربان جدا ومبنيان بالحجارة البيض . وأما الثالث فينقص عنهما بنحو الربع لكنه مبنى بحجارة الصوان الأحمر المنقط الشديد الصلابة ولا يؤثر فيه الحديد الا فى الزمن الطويل ، وهو صغير بالقياس الى ذينك وقد سلك المصريون فى بناية الأهرام طريقا عجيبا من الشكل والاتقان ، ولذلك صبرت على ممر الزمان بل على ممرها صبر الزمان فان الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها ، والملكات الهندسية قد أخرجتها الى الفعل حتى أنها كادت تحدث عن قومها وتخبر بحالهم وتنطق عن علومهم وأذهانهم ، وتترجم عن سيرهم وأخبارهم ، وذلك ان وضعها على شكل مخروط يبتدىء من قاعدة مربعة وينتهى الى نقطة ومن خواص الشكل المخروط ان مركز ثقله فى وسطه وهو يتساند على نفسه ويتواقع على ذاته ويتحامل بعضه على بعض فليس له جهة أخرى خارجة عنه يتساقط عليها .

ومن عجيب وضعه أنه شكل مربع قد قوبل بزواياه مهاب الرياح الأربع فان الريح تنكسر سورتها عند مصادمتها الزاوية وليست كذلك عندما تلقى الســـطح .

وهذه الأهرام ترى على بعد ٢٠ ميلا • وعلو الأكبر منها نحو ٥٠٠ قدم • وفيه مدخل يلجه الناس يفضى بهم الى مسالك ضيقة وسراديب متنافذة وآبار ومهالك وغير ذلك ، والمسلوك فيه المطروق كثيرا فزلاقة تفضى الى أعلاه فيوجد فيه بيت مربع فيه ناووس من حجر وهذا المدخل ليس هو الباب المتخذ له فى أصل البناء ، وانما هو منقوب نقباً صودف اتفاقا وذكر أن المأمون هو الذى فتحه •

فولج رجل من رجال السيد برغش هذا الهرم صحبة بعض من أهل مصر فسارت بهم الطريق الى مكان مظلم لا يلجه أحد الا بمصباح يستصبح به ، ثم صعدوا الى البيت المربع الذى أسلفنا ذكره •

وفى هذا الهرم خفافيش كثيرة ويعظم فيه الخفاش حتى يكون فى قدر الحمام وفيه طاقات وروازن نحو أعلاه وكأنها جعلت مسالك للريح ومنافذ للضـــوء ، وفى القرى المجاورة للأهرام قوم قد اعتادوا ارتقاء الهرم بلا كلفة فلما علموا بقدوم سعادة السيد برغش الى الأهرام بادروا اليه وأرادوا أن يرتقوا بسعادته الى الهرم ويستووا على سطحه فأبى السيد ولكن بعض من رجاله رقوا الهرم بمشقة عظيمة •

وبعد أن تفرجوا عليه نزلوا ودخلوا مغائر (مقابر) بقرب الأهرام كانت مدافن للملوك المصريين أو للثيران المقدسة التى كانوا يعبدونها تحت اسم افيس[١] • ثم شاهدوا بقرب الأهرام تمثالا كبيرا له رأس انسان على جثة حيوان من ذوات الأربع طوله ١٢٥ قدما وهم يدعونه أبا الهول •

ولمـــا فرغ السيد برغش ورجاله من الفرجة على الأهرام ذهبوا الى

---

(١) يقصد العجل ابيس •

دار كان قد أعد لهم فيها شيء من الطعام فدخلوها وأكلوا واستراحوا ثم رجعوا الى مصر بالسلامة .

وفى اليوم السادس عشر من الشهر سار السيد برغش فى رجاله الى مشاهدة قصر النيل والقناطر الخيرية ، ولما وصلوا الى القلعة السعيدية أطلق الجنود منها ٢١ مدفعا اكراما لسعادة السلطان . ولما تفرج على القلعة أطلقوا له كذلك ٢١ مدفعا وداعا له . وفى عصر ذلك اليوم سار السيد برغش الى تهنئة الخديو بعيد مولده ، وكان ذلك النهار ختام السنة السابعة والأربعين من عمره ثم عاد السيد الى منزله بالسلامة .

ولا يسعنا هنا أن نذكر ما رآه وشاهده السيد برغش من التحف والفرج فى الديار المصرية فانها بلاد قد اشتهرت منذ قديم الزمان ، وملك عليها ملوك كثيرون من أهلها ، وتسلط عليها أكثر الدول المشتهرة القديمة وأول من غزاها من الغرباء بختنصر ملك بابل . ثم أضيفت الى مملكة فارس ومادى فى عصر كمبيز (قمبيز) بن قورش قبل تاريخ الميلاد بخمسمائة و ٢٥ سنة .

ثم فتحها الاسكندر بن فيلبس المقدونى الموصوف بذى القرنين . وبعد وفاته قامت فيها الدولة البطليموسية وبقيت حتى أخذها الرومانيون قبل تاريخ الميلاد بمدة وجيزة ، واعتبرت جزءً من المملكة الشرقية ، حتى فتحها عمرو بن العاص فى خلافة عمر بن الخطاب .

وكانت تابعة للخلفاء العباسيين الى سنة ٩٦٨ حتى قامت فيها الدولة الفاطمية التى بقيت الى سنة ١١٧١ ميلادية ثم ملك عليها السلطان صلاح الدين الأيوبى .

ثم أضيفت الى المملكة العثمانية سنة ١٥١٧ .

ولمـا كانت سنة ١٧٩٨ تسلطت عليها الدولة الفرنساوية تحت لواء نابوليون بونابرتى وبقيت فى يده الى سنة ١٨٠١ ثم رجعت الى المملكة العثمانية حتى استقل فيها محمد على باشا الذى تصلط على الديار الشامية من أثناء سنة ١٨٢٠ الى سنة ١٨٤٠ • ثم عادت الى أيدى آل عثمان وبقى محمد على باشا مستقلا فى مصر • ولم تزل الى الآن بيد نسله •

وفى أيام المصريين القدماء كانت العلوم والفنون عند كهنتهم الذين كانوا قد اصطلحوا على نوع من الخلط بالعلامات والرسوم وصور بعض الحيوانات يعرف الآن بالقلم المصرى القديم ومازالت هذه الكتابات منقوشة ومحفورة فى صخور الآثار القديمة والأهرام وغيرها[١] •

وكان قد فقد الناس معرفة قراءتها ، فقام رجل فرنساوى من مدة بضع سنين اسمه شمبوليون واهتدى الى فكها بحذق عقله ، وعلم الناس قراءتها وصنف لها قاموسا وصرفا ونحوا ، وحذا حذوه ولده وسهل على المتعلمين طريقة درسها وقراءتها •

أما مدينة القاهرة فقد بناها المعز وجعلها مقر الملك الى اليوم • وهى مبنية بجوار مصر القديمة التى هى منف ، وكانت مقر سكنى الفراعنة ، وقد جاء ذكرها فى القرآن الشريف عن موسى عليه السلام « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها » • ومنه قوله « فخرج منها خائفا يترقب » • لأن مسكنه كان بقرية بالجيزة قريبة من المدينة تسمى دموه • ولمـا فرغ السلطان ورجاله من الفرجة على الأهرام وما فيها سار بهم رجال الخديو بالسلامة الى القاهرة •

---

(١) يقصد الخط الهيروغليفى أو اللغة الهيروغليفية .

الباب الخمسون

فى سفر سعادة السلطان من الديار المصرية

عزم السيد برغش على السفر من الديار المصرية فى اليوم التاسع عشر من الشهر • ولكن حدثت وفاة الأميرة زينب ابنة الخديو فى ١٧ الشهر وعظمت المصيبة فى مصر عند أهلها وأقاربها ثم خرجوا بجنازتها الى المقبرة فى موكب حافل ، وبعد ذلك أقاموا لها عزاء ، فرأى السيد أعزه الله أن يؤخر سفره الى بعد انقضاء أيام العزاء بثلاثة أيام •

ولما كان اليوم ٢٢ من رجب خرج السيد فى رجاله الى محطة سكة الحديد وكان الخديو وابنه محمد توفيق باشا ولى عهده وابنه حسين باشا ناظر الجهادية قد سبقوا سعادة السيد الى محطة سكة الحديد فتوادع[1] السيد معهم وركب قطار سكة الحديد ، وقام من القاهرة وسار على بركات الله •

وبعد خمس ساعات وصل قطار سكة الحديد الى الزقازيق فخرج السيد فى رجاله الى دار كانت هناك وكانوا قد أعدوا له ولرجاله سفرة فاخرة فأكلوا ثم ركبوا وقام بهم القطار الى مدينة السويس •

ولما وصلوا اليها أطلقت الجنود ٢١ مدفعا ترحابا بقدوم سعادة السيد • ولما خرج السلطان من مركبة سكة الحديد لاقاه والى السويس ومحافظ المدينة وكبراؤها ورحبوا به وبأصحابه وساروا بهم الى ساحل البحر ثم ركبوا قوارب قطعوا بها البحر الى بارجة كان قد أعدها الخديو

---

(١) اى ودع بعضهم بعضا .

لسعادة السلطان لتحمله الى عدن ثم الى زنجبار • فدخلها السيد وأصحابه وباتوا فيها ليلتهم •

ولمـــا أصبحوا سافروا من السويس فى ٢٣ رجب وسارت بهم البارجة الى باب المندب فى خمسة أيام • ثم وصلوا الى بندر عدن فى الساعة الثانية من النهـــــار •

ولمـــا دخلوا المرسى أطلقت البوارج البريطانية ٢١ مدفعا ترحابا بوصول سعادة السلطان بالسلامة ، وبات السيد ورجاله فى الباخرة تلك الليـــــلة •

ولمـــا أصبح أتت قوارب من بوارج الانكليز وأخرجت سعادته ورجاله الى البر وأطلقوا له ٢١ مدفعا • ثم اصطفت العساكر اجلالا لسعــــادة السلطان وأتى والى البلد ورؤساء العساكر وسلموا على سعادته ، وساروا به الى دار والى البلد • ولما استراح قليلا قال له الوالى قد أمرتنى الدولة البريطانية أن أهيىء لسعادتك داراً تليق بمقامك وقد فعلت ما أمرت به ، فاطلب الى سعادتك أن تشرفها بنزولك فيها • فأجاب السيد حبا وكرامة • وسار اليها برجاله وأقاموا بها الى حين سفرهم من عدن •

وكان سعادة الخديو أمر قبطان الباخرة التى حملت السلطان أن يسير به حتى زنجبار فى بارجة الخديو • ولكن سعادة السلطان اعتذر للقبطان وشكر له ولأفضال سعادة الخديو • وقال ان من نيته الاقامة فى عدن مدة من الزمان فى انتظار الدكتور كيرك الذى تخلف عن سعادته بلندن لانهاء بعض أشغال الدولة ، ولا يحب أن يحجز بارجة الخديو زمانا طويلا بعــدن ، ومن ثمة كتب السلطان كتابا الى الخديو يشكره على أفضاله العميمة ورخص للقبطان بالاياب الى مصر •

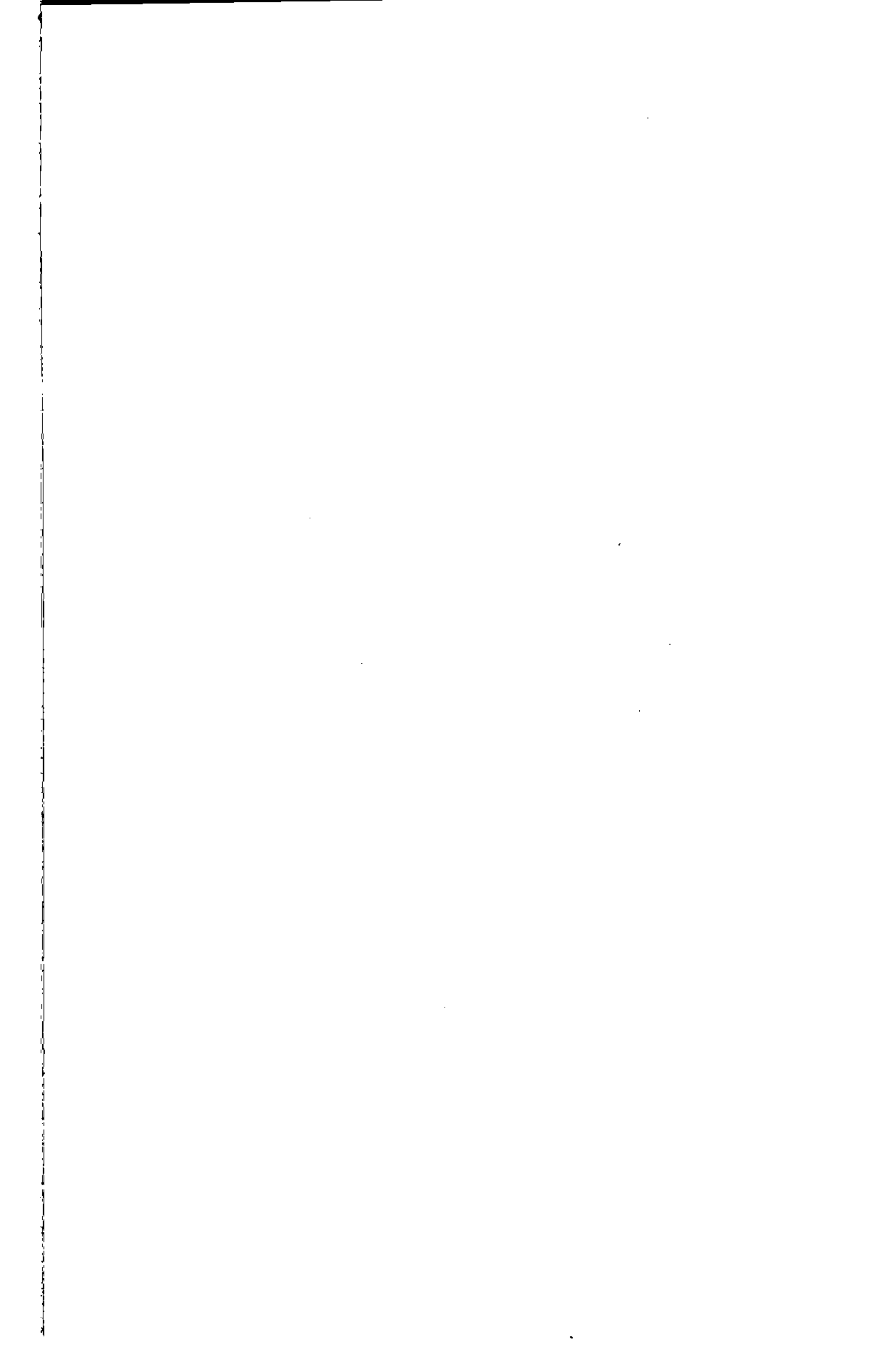
ثم وصل الدكتور المومأ اليه فى ٧ شعبان والتقى بالسيد • وكانت جلالة ملكة الانكليز قد أرسلت صحبة قبطان الباخرة رسم صورتهـــا الى سعادة السلطان ، فأتى القبطان وطلب مقابلة سعادته ، ودخل عليه وسلمه صورة الملكة فتناولها السلطان بعز واكرام ، وأنعم على القبطان بنيشان من الرتبة الثالثة من « الكوكب الدرى » وأنعم على قبطان بارجة الخديو بنفس النيشان من الرتبة الثالثة • وكذلك أنعم على قبطان المركب الذى ركب فيه من مرسيليا الى الاسكندرية ، وعلى قبطان الباخرة التى ركب فيها من زنجبار بنواشين[1] من الرتبة الثالثة من « الكوكب الدرى » •

وكان السلطان قد أنعم بهذا النيشان أيضا على أرباب السياسة وأصحاب المناصب فى باريس ومرسيليا والأسكندرية والبورتوغال كل على حسب مرتبتــه •

ثم سافر سعادة السلطان من عدن محفوفا بالسلامة فى ٩ شعبان وشيعه رجال الدولة وأطلقوا ٢١ مدفعا توديعا له ، وسارت باخرته فى أمن الرحمن ، وصفا له الجو وراق البحر حتى وصل بالسلامة الى أوطانه السعيدة وأشرف على زنجبار المجيدة فى اليوم الثامن عشر من شعبان • ولما خرج الى البر أطلق الجنود من قلعة البلد ٢١ مدفعا ترحابا بوصول سعادته بالسلامة ، وخرج أهل البلد وأرباب المناصب الى ملاقاة سعادته وسروا بقدوم سيدهم الكريم ومولاهم العظيم أيده الله وخلد ملكه على دعائم العز والمجد والاقبال آمين •

---

(١) يقصد نياشين .



خاتمة الكتاب

قال العبد الكريم المعتصم بربه القدير القس يحيى لويس صابنجى ابن يعقوب بن يعقوب بن يوسف الرهاوى الآخذ للعلم الشريف عن أساتذة المدرسة الكبرى بحاضرة رومية العظمى وعضو من أعضاء الجمعية العلمية الآسيوية الملوكية ومنشىء نشرة النحلة الأدبية بعاصمة لندن المحمية •

هذا ما تيسر لى جمعه وتأليفه وترتيبه فى هذا الكتاب مما سمعت به أذنى ووعاه ذهنى واقتطفته من الرقع التى دبجها السيد زاهر بن سعيد كاتب السلطان ، ووقفت عليه من صحف الأخبـــار الانكليزية والنشرات الفرنساوية فى ما ناله السيد برغش بن سعيد سلطان زنجبار وما يليها من العز والاكرام يوم خرج من ملكه السعيد يريد السياحة شرقاً وغرباً وما تلاه من الخطب الفصيحة فى المحافل والمجالس والولائم وقاعات السرور والحبور بنادى أرباب الدول والشرفاء والخواتين المخدرات •

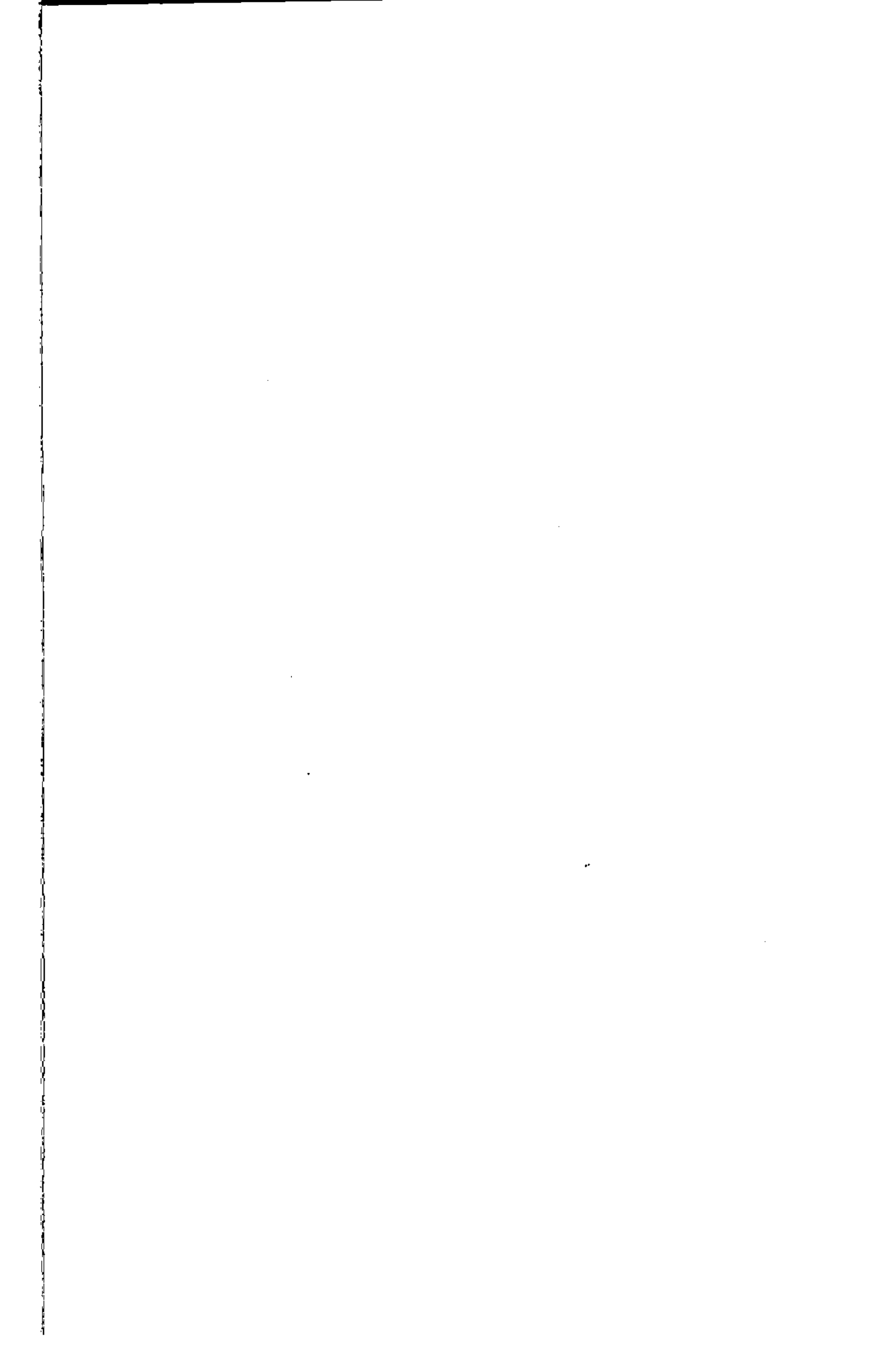
وكانت جميع هذه الخطب محفوظة فى صحف الأخبـــــار الانكليزية فترجمتها الى العربى وأثبتها فى كتاب هذه الرحلة • وقد تحريت الاختصار فى تأليفه وترتيبه وأضفت اليه فوائد علمية وتاريخية مما نيط بالبلاد التى خطرها والأمم التى عاشرها والأماكن التى طاف بها والتحف التى رآها •

وسلكت فى تصنيفه مسلكاً سهل المطالعة قريب المناولة وجلوته بتصاوير بهية تشخص مناظر البلاد وصور الرجال ذوى المناصب والأمجاد عسى يحوز القبول بأعين سعادة السيد برغش أعزه الله وأبقاه •

وانى أناشد كل من وقف على هذا الكتاب وخاض فى عبابه أن يغض الطرف عما يعثر عليه من الخطأ فى أبوابه واعرابه ، وأن يغتفر قليل أخطائه فى كثير صوابه . فان الانسان محل النسيان وان استوعب العلم من عبابه . واعتصم بكتبه وأربابه ، وأية عصمة يرجوها ابن آدم فى انشائه وخطابه . والله يأبى العصمة لكتاب غير كتابه .



(رسم القس يحيى لويس صابنجى مؤلف هذا الكتاب)



محتـــويات الكتاب

الموضـــــوع	رقم الصفحة

الموضـــــوع	رقم الصفحة

رقم الايداع ٨٨/٥١٠

طبع بمطابع النهضة ص.ب : ٩٧٩ ، مسقط